من أعلام الخالدين

حياة علم من أعلام الإسلام الشيخ عيسى منون

عضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى وشيخ كلية الشريعة بالأزهر سابقا

ويشتمل على

بحوث علمية ، محاضرات دينية
آراء اجتماعية ، نظرات فلسفية
رسائل فقهية

عمل

يوسف عبد الرزاق
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين

محمد عيسى منون
المدرس بالأزهر

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م



المغفور له العارف بالله فضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عيسى منون



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ، ولا يجرى فى ملكه إلا ما قدره وقضاه ، سبحانه من إله عظيم قدر وقضى ، وأوجد وأفنى وأضحك وأبكى وأمات وأحيا ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون .

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد الذى أنزل الله عليه فى كتابه المكنون « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فإنه ليحزننا الحزن كله ، ويحز فى نفوسنا ، ويضاعف آلامنا ، ويزيد فى حسراتنا أن نقوم بنعى علم العلماء ، وشيخ الشريعة الغراء . العالم الحجة المحقق المثبت ، المبرز ، ذى الشهرة العالية فى الأصول والفروع المغفور له العلامة العارف بالله الشيخ .

عيسى منون

عضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى بالأزهر وعميد كليتى الشريعة ، وأصول الدين سابقاً تغمده الله برحمته ، وأسكنه فراديس الجنان ، وأغدق عليه شآبيب الرضوان .

انتقل إلى جوار ربه الكريم راضيا مرضيا مبكيا على علمه وفضله ، مأسوفاً على خلائقه الغر ، وسجاياه الزهر من عارفى فضله إثر مرض لم يمهله إلا أياماً قلائل كنا فيها بين اليأس والرجاء ، والشدة والرخاء ، لا ينعم لنا بال ولا يقر لنا حال حتى وافاه الأجل الذى لا يتقدم ولا يتأخر .

فأى طود هوى ؟ وأى نجم أفل ؟ وأى روض صوح نبته ، وغيض ماؤه وذهب رواؤه ؟ وأى شمس جللت بكسوف وبدر وورى بخسوف .

أجل لقد وقع ما نحاذر ، ودنا منا ما نباعد ، وناجزنا ما كنا نطاول ، وحم القضاء المحتوم ، ونزل بنا ريب المنون ، فلو رأيت النفوس وقد زلزلت زلزالها ، والخطوب تقذف أهوالها ، والمنية تنشب أظفارها . لرأيت حزنا عظيما ، ومصابا أليما ، ورزءا جسيما تفيض له العبرات ، وتتصاعـــد الزفرات فإنا لله وإنا إليه راجعون .

أحقاً غاب عنا من كان ملء السمع والبصر ، وجمال الأحاديث وحسن السير وفارقنا من كنت لا تلقاه إلا طاق المحيا باش الوجه أبلج الغرة وضاح الجبين ، وما شئت من أدب غض ، وعلم فياض ، وخلق كريم .

أهكذا تغيب الفضائل ، وتغيض الشمائل وتمحى رسوم العلوم ، وتنطفىء تلك الشعلة التى أضاءت ما حولها وملأ نورها الآفاق .

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

ولقد دعانا واجب الوفاء ـــ ونحن فى غمرة الأسى ، ولوعة المصاب وصدمة الخطب ، والدموع غزيرة ، والزفرات متصاعدة ـ إذ اختطفت منا المـوت ذلك الطود الأشم . والركن الذى كنا نؤمله ونأوى إليه ونعتمد بعد الله عليه أن نقدم للأمة العربية خاصة . والشعوب الإسلامية عامة هـذه الصفحات المشرقة الوضاءة لتكون مرآة صافية لحياة ابن بار من أبنائها العاملين وعلم خفاق من أعلامها الخالدين الذين وقفوا حياتهم على خدمة العلم والدين .

ولسنا نستملى صفاته إلا من أعماله . ولا أعماله إلا من شعاع حياته ، ولا حياته إلا من تاريخه الصادق . وإذا كانت عظمة الرجال تقاس بما خلدوا من آثار نافعة وما قدموا من جهود مشكورة ومساع مذكورة وما بذلوا لدينهم ووطنهم وأمتهم من جليل الأعمال ، وجيد الافعال التى تمتد بها أيامهم . وتطول بها حياتهم ، ويذكرها الناس جيلا بعد جيل . وقبيلا إثر قبيل ـــ فإن الشيخ رحمـــه الله قد

ضرب من ذلك بالسهم الأوفر والحظ الأكبر

فلقد ظل طيلة حياته كلها يعمل من أجل هذه الغاية السامية النبيلة حتى لقى ربه ؛ وقضى نحبه فى محراب العلم مأجورا مشكورا من الله والناس ، مذكورا بالخير من تلامذته وأخوانه .

* * *

ولقد تفضل علينا الكثيرون من حضرات أصحاب السماحة والفضيلة أصدقاء الفقيد الكرام وتلامذته الامناء الاوفياء فأرسلوا لنا بكلماتهم التى تفيض وفاء وإخلاصا وتقديرا وتمثل بها صفاتهم وسجاياهم (وإنا إزاء ما غمرونا به من فضلهم لعاجزون عن أداء واجب شكرهم .

وإنا لنتوجه إلى الله تعالى أن يجزيهم عنا أحسن الجزاء .

* * *

ولا يسعنا قبل أن نختم هذه الكلمة إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل والثناء العاطر الفياض إلى حضرة صاحب السماحة مفتى فلسطين الأكبر ورئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين . الحاج « **أمين الحسينى** » فلقد كان لمواساته لنا أعظم الأثر فى تخفيف وقع المصاب الأليم على نفوسنا .

ولا عجب فسماحته فرع تلك الدوحة الحسينية الكريمة والشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء أطال الله بقاءه فى خير وعافية وأمتع المسلمين بحياته المباركة وحقق على يديه الآمال . إنه خير مسئول ، وأكرم مأمول :

يوسف عبد الرازق　　　　محمد عيسى منون

نسبه ومولده ونشأته :

هو المغفور له العلامة الأشهر ، الفقيه البارع ، والأصولى المتقن والحجة المحقق ، شافعى زمانه ، البحاثة النادر الأستاذ الكبير الشيخ ، عيسى بن يوسف بن أحمد منون ، أغدق الله عليه شآبيب الرحمة .

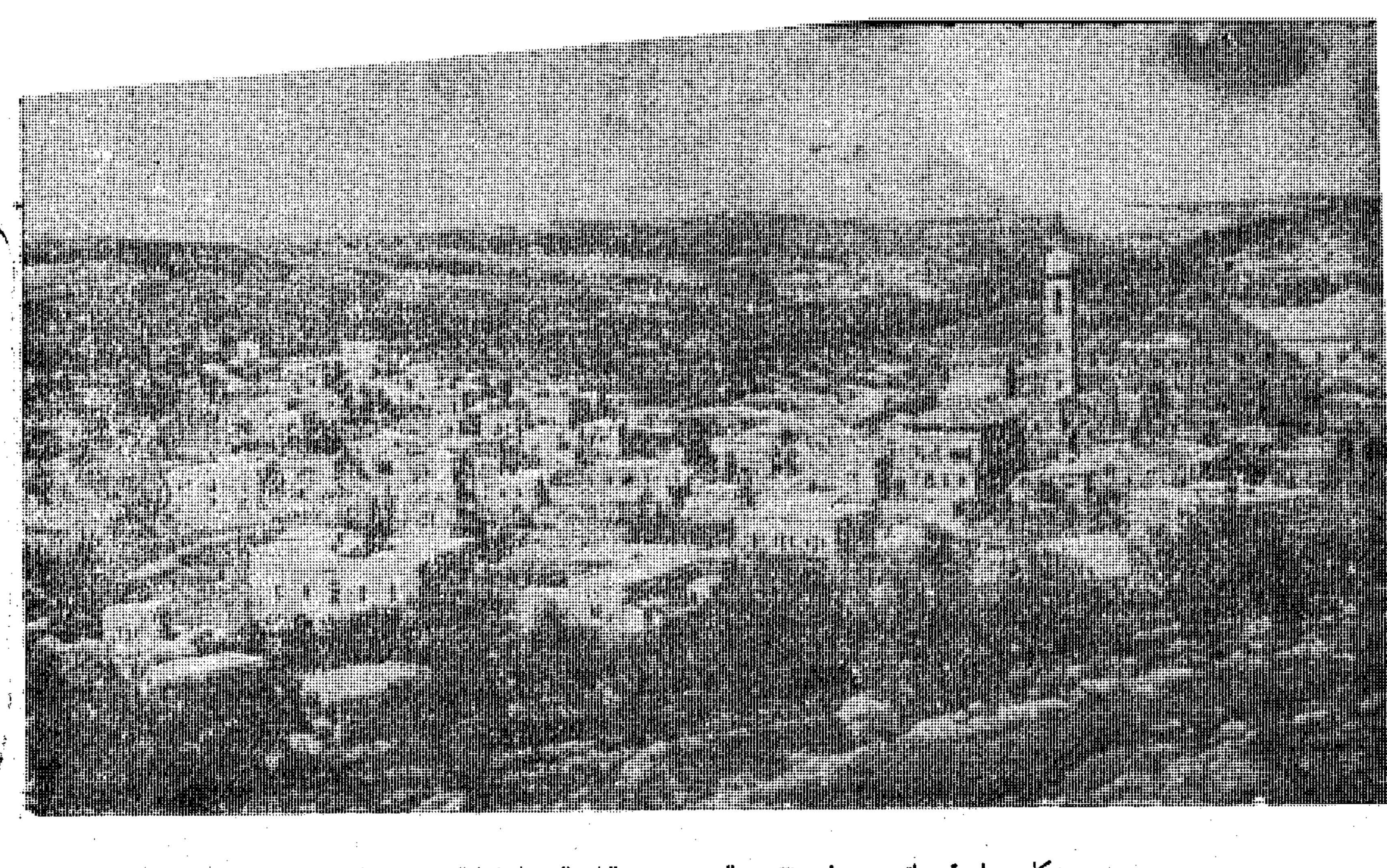
كان رحمه الله آية فى دقة النظر ، واشتعال الذهن ، وتوقد الذكاء ، وهمة المطالعة ، والغوص على دقائق المعانى . وحل غوامض المشكلات ، واستنباط المسائل ، وتحرير الدلائل .

ولد رحمه الله تعالى سنة ١٣٠٦ هـ فى بلدة عين كارم وهى ضاحية من ضواحى مدينة القدس قاعدة الديار الفلسطينية المقدسة . وهى جنة من جنان الأرض جميلة وادعة ، عذبة الماء ، طيبة الهواء ، جيدة المناخ ، تظللها أشجار السرو ، وتكتنفها مساحات واسعة من شجر الكرم والزيتون ومختلف أشجار الفواكه يقصدها سراة القوم لقضاء فترة الاصطياف فيها حيث يطيب فيها المقام لجمال موقعها وخضرة مربعها ، ونضارة بقعتها وحسن عمارتها ، وكثرة بساتينها ، وأنس أهلها . وهم عرب كرام عرفوا بكرم المحتد ، وطيب العنصر ، وسجاحة الأخلاق ونبل الأعراق .

فى هذه البلدة المباركة الطيبة ولد فقيدنا العظيم ونشأ وترعرع بين أبوين كريمين عرفا واشتهرا بالاستقامة والنبل وطيب الأرومة .

وكان جده المرحوم أحمد منون عميد الأسرة وكبيرها الذى يشار اليه بالبنان قد لمح فى حفيده شغفه منذ الصغر بالعلم والتعلم وحبه للقراءة والمطالعة فكان يشجعه على ذلك ، ويهيء له جميع ما يحتاج اليه ، ويتعاهده بالزيارة فى مدرسته ليوفر له عناية الأستاذ به . وكانت تلك الزيارة مبعث سرور للأستاذ يرى فيها تكريما لمدرسته ، وعناية بها ، كما كانت داعية نشاط للتلميذ وحافزا له على الاهتمام بالدرس ، ومضاعفة جده واجتهاده .

وكان والده يرى أن يشغل ابنه معه فى أعماله التى يزاولها لشدة حاجته إلى معاونته فكان يصحبه معه إلى كرم يملكه تكثر فيه الأشجار والثمار وتطرد فيه مياه العيون العذبة ، وتطيب فيه الحياة لجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ونضرة روائه ليظل على مرأى منه ومسمع ، حتى إذا ما شب وكبر وترعرع كان عضده الأيمن فى أعماله الكثيرة .



عين كارم ضاحية جميلة من ضواحي القدس الشريف وهي البلدة التي ولد فيها الشيخ رحمه الله



ومثل هذه الحياة الناعمة الراضية تستهوى الكثير من لداته وأترابه ، يجدون فيها متنفسا من تعب الدروس ، ومشقة التحصيل وقسوة الكُتّاب ولكن فقيدنا العظيم كان يطمح بنظره إلى معالى الأمور ، ويرمى بهمته إلى أبعد مراميها ، فكان لا يلبث الا فترة قصيرة حتى يعاوده الحنين إلى مدرسته ، والرغبة الملحة فى مواصلة تحصيله فيولى وجهه شطر مدرسته الحبية إلى قلبه ليغترف من مناهلها ، ويعل من سلسالها وينهل من رحيقها ، وينقع غليل فؤاده من مواردها .

ولقد ساعده جده المرحوم أحمد منون على تحقيق رغبته ، وبلوغ أمنية وإشباع نهمته فطلب من والده الا يحول بينه وبين دروسه حائل ولا يشغله عن مدرسته شاغل .

حين ذاك هدأ باله رحمه الله وقرت عينه وطابت نفسه واطمأن إلى تحقيق مستقبله الذى يصبو إليه وأقبل على دروسه بعزيمة ماضية ، وهمة لا تعرف السأم .

ولقد كان من حسن طالعه ، ويمن نقيبته ، وتمام سعادته ، وجميل صنع الله به أن قيض الله له وهو فى تلك السن المبكرة أستاذا عالما جليلا يختصه بمزيد من العلوم التى لم تكن ضمن برامج الدراسة فى المدرسة ذلك هو المرحوم الشيخ يوسف الحبية ، فقرأ عليه مبادىء العلوم من النحو والصرف والفقه والتوحيد وما إلى ذلك من علوم العربية والشريعة بعد أن فاق على أقرانه ، واستوعب العلوم المقررة فى منهاج الدراسة فى المدرسة من الحساب والتاريخ والتقويم وجودة الخط الأمر الذى حدا بأستاذه أن ينصبه عريفا على التلاميذ يعيد لهم الدروس وينوب عنه إذا غاب . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولما كثر إقبال التلاميذ على المدرسة وتضاعف عددهم فكر أولياء الأمور ورجال المعارف فى أن يعين أستاذ ثان للمدرسة ليساعد أستاذها الأول المرحوم الشيخ يوسف الحبية المذكور على تحمل أعباء المدرسة . فأوعز الشيخ يوسف الحبية عليه الرحمة إلى فقيدنا العظيم لما أنسه فيه من الذكاء النادر والقدرة التامة على ضبط الفصل ، وأداء الدرس للتلاميذ أن يتقدم لأداء الامتحان الذى سيعقد فى دار المعارف بالقدس الشريف .

وكان العزم على أن يرتب أستاذا ثانيا مساعداً له ولكنه حينما تقدم للامتحان حاز إعجاب المشرفين عليه ورأوا أن كفايته العلمية وثقافته الممتازة تؤهلانه لأن يكون أستاذا أول فى إحدى ضواحي القدس المجاورة لبلدته .

ولما صارحوه بذلك ، وبينوا له الفوائد التي تعود عليه من الترقية ، والتدرج فى سلك التدريس تألم أشد الألم وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وضاقت عليه الارض بما رحبت ، وأخذ يحاول أقناعهم بالعدول عن قرارهم بكل مايستطيع من حجة حتى لايبعدوه عن أستاذه وشيخه وألح فى أن يكون أستاذا ثانيا بصحبة شيخه بلا راتب بأن يعمل حسبة لوجه الله تعالى ولكن توسلاته لم تزدهم إلا إصراراً واستمساكا بضرورة تعيينه أستاذا أول . ولما لم يجد إلى إقناعهم سبيلا ذهب لفوره إلى مكتب السيد سليم أفندى الحسيني أحد أعيان القدس وعظمائها الذين يشار إليهم وكان بينه وبين جده المرحوم أحمد منون صداقة ومودة فقص عليه قصته ورجاه أن يبذل وساطته فى إبقائه فى بلدته مدرساً ثانياً حسب طلبه فهدأ من روعه ووعده خيراً ثم اتصل السيد سليم أفندى من ناحيته بمدير التعليم ورجاه تحقيق رغبته وتعيينه فى بلدته وقد تم له ما أراد ورجع إلى بلده قرير العين ناعم البال فرحا مسرورا لظفره بأمنيته .

وقد حدث له فى أثناء تدريسه فى مدرسته حادثة جديرة بالذكر لأنها تصور لنا عظمة أخلاق الفقيد وعلو همته ، فقد اتفق أن حضر إلى المدرسة أحد مفتشى المعارف ممن تستهويهم المظاهر فدخل حجرة الدرس على الشيخ رحمه الله فرآه يلقى دروسه وهو يلبس الطربوش لحداثة سنه وكان العرف السائد إذ ذاك يقضى أن تكون العمامة شعار الرأس للاساتذة فى مثل تلك المدرسة فأكبر المفتش هذا الأمر ورأى فى عدم تقيده بالزى المتعارف للمعلم فى ذلك العهد عملا يستوجب المؤاخذة واللوم وأصر على أن يرفع تقريراً بذلك إلى مدير التعليم بالقدس . وقد لفت المرحوم الشيخ يوسف الحبية نظر المفتش إلى حداثة سن الأستاذ وأفهمه أن هذا العمل صادر منه عن حسن نيـة وأنه على وشك السفر إلى الأزهر الشريف حيث يتم تحصيله وهناك تكون العمامة شعاره الدائم .

وشاءت الأقدار الإلهية ألا تطول مـدة تدريسه فى المدرسة حيث لم يمكث إلا سنة واحدة سافر بعدها إلى الأزهر فما لبث أن أتم تحصيله ونال شهادة العالمية

بتفوق وعين مدرسا بالأزهر ثم سافر سنة تعيينه مدرساً فى الأجازة الصيفية لزيارة أهله وذويه .

ولما علم بنبأ مقدمه أخوانه وأصدقاؤه علماء القدس الشريف دعوه إلى حفل أقاموه له ، ولما ذهب إلى القدس لحضور الحفلة مر على إدارة الأوقاف حيث يوجد بعض أصدقائه ممن سيحضرون الحفلة فوجدهم مجتمعين لأجراء مسابقة امتحان على إحدى الوظائف الشرعية ، وإذا بالمتقدم للامتحان ذلك المفتش الذى سبق أن توعد الفقيد برفع أمره لإدارة المعارف بسبب ارتدائه الطربوش أثناء تدريسه غير مراع ظروفه وصغر سنه وقرب سفره إلى الأزهر الشريف .

وقد ظهر للجنة الامتحان أنه ضعيف فى المادة العلمية ، لا يكاد يحير جوابا على أبسط المسائل وأسهلها الأمر الذى جعل لجنة الامتحان ترى عدم أهليته للوظيفة .

وهنا سنحت الفرصة للفقيد العظيم ليقابل الاساءة بالاحسان كما هو شأن الكرام فرجاهم أن يقدروا له سابقة خدمته فى المعارف وكبر سنه وربما تكون له أسرة هى فى حاجة إلى المساعدة فقبلوا رجاءه واتفقت كلمتهم على توجيه تلك الوظيفة إليه .

فهذه ناحية من نواحى أخلاقه ، ومأثرة من مآثره وكم له من مآثر ومفاخر ربما تقضى المناسبات بذكر شيء منها أثناء الحديث عن مناقبه .

وبعد فهذه لمحة خاطفة ونظرة عابرة فى حياته تكشف لنا بعض آثاره ، وتجلو طرفا من أخباره وماهى إلا قطرة من بحر أو زهرة من روض .

حياته العلمية

هذا هو البحر الخضم الذى لا يدرك ساحله . والميـــدان الفسيح الذى لا يعرف أوله من آخره ، والروض الأنيق المعجب الذى تتفتح أزهاره وتغرد أطياره ، وتسجع بلابله فتسحر العقول . وتملك القلوب والنفوس وتأخذ بالألباب .

لا هم هب لى بيـانا استعين به   على قضاء حقـوق نام قاضيهـا
قد نازعتنى نفسى أن أوفيهـــا   وليس فى طوق مثلى أن يوفيها
فو سرى المعـــانى أن يواتينى   فيها فأنى ضعيف الحال واهيها

قدومه إلى مصر

انتسابه إلى الأزهر :

فى سنة ١٣٢٢ تعلق قلب الشيخ رحمه الله فى طلب العلم ، وشغفه حبا وتاقت نفسه إلى الرحلة مفارقا الأهل والوطن على كره من أبويه لفراقه فما زال يستعطفهما ويستشفع لديهم حتى سمحا له ببلوغ أمنيته ، وتحقيق طلبته . ففارقهما مبحرا من ثغر يافا المدينة العربية الجميلة ذات الشهرة العظيمة ، أعادها الله إلى الوطن العربى ، حتى بلغ الديار المصرية وانتسب إلى الأزهر الشريف .

ولقد أدرك فيه شيوخا أجلاء أفذاذا يزدان بهم جيد الزمان وسيأتيك ذكرهم والحديث عنهم ، فأقبل على الطلب وتلق العلوم المعقول منها والمنقول بهمة لا تعرف الملل ، وعزيمة صادقة لا يرق إليها الوهن .

ولقد كان رحمه الله تعالى فى هذا الدور من أدوار حياته مثالا يحتذى وقف جهده على التحصيل ، وحبس نفسه على الطلب ووهب قلبه للعلم ابتغاء مرضاة الله تعالى لا يشـــغله شاغل ولا يصده صاد عما هو بسبيله وله فى ذلك حوادث وذكريات فيها عبر وعظات .

وكان لا يحضر درسا إلا طالعه قبل الحضور مطالعة تامة ووقف على دقائقه ، وأحاط بغوامض مسائله فإذا ما شرع شيخه فى تقرير الدرس على الطلاب أصغى

إليه أصغاء تاما ليرى هل يتفق فهمه لتلك المسائل وفهم أستاذه لها . وفى الأعم الأغلب كان يتفق فهمه وفهم شيخه فى تلك المسائل المعروفة بدقتها وصعوبتها وتكون ميزة أستاذه عليه اطلاعه على مراجع هامة نادرة ليست فى متناول يده لعزة الوصول إليها .

ولقد كان رحمه الله يستيقظ مبكرا فيؤدى فريضة الصبح ثم يذهب لحضور دروسه ولا يزال يتنقل من درس إلى آخر ومن حلقة إلى حلقة حتى قبيل صلاة العصر ثم يأخذ فترة يسيرة للراحة يتناول فيها طعام الغداء وبعد صلاة العصر يعود ثانيا إلى الأزهر لمطالعة دروسه التى يحضرها على شيوخه فى اليوم التالى ولا يزال فى مطالعة هذه الدروس حتى الهزيع الأخير من الليل وحينئذ يحمل حافظة كتبه ويذهب إلى حجرته فينام سويعات يسيرة يستيقظ بعدها ليعود سيرته الأولى وهكذا دواليك حتى فاح عبيره وفاض نميره وذهب صيته فى أوساط الأزهر العلمية كل مذهب .

ولقد كان يقطن معه فى حجرته زميل له ، وكان لذلك الزميل صلات بأهل الريف يسافر لزيارتهم ويمكث فى ضيافتهم أياما وشهورا فإذا ماقدموا إلى القاهرة لقضاء بعض مصالحهم كانوا يقصدون صاحبهم هذا فينزلون ضيوفا عليه فى حجرته فكان الشيخ رحمه الله إذا ذهب إلى حجرته بعد انتهاء مطالعة دروسه وأكثر ما يكون ذلك بعد منتصف الليل يجد الحجرة تغص بالنائمين من ضيوف ذلك الزميل فكان رحمه الله يمشى على أطراف أصابع قدميه حتى لا يحدث حركة توقظ النائمين ويمشى مع جدران الحجرة حتى لايتخلل صفوفهم ويصعد إلى سريره بعد أن يلبس جلباب نومه وينام هجعة خفيفة يستيقظ بعدها وهم نيام فيقوم إلى ملابسه يرتديها ويسير على أطراف قدميه ويعود إلى مزاولة دروسه أى أنه يدخل الحجرة وهم نيام ويخرج منها وهم نيام . وما كان يكن لزميله إلا كل ود وحب وكان يحمل هذا التصرف منه على أنه يجامل أناساً يودهم وينتفع بزيارتهم .

وبعد انتسابه للأزهر بخمس سنوات رأت مشيخة الأزهر أن تدخل الأنظمة الجديدة وتضع الطلاب فى سنوات دراسية تناسب مؤهلاتهم العلمية وجعلت مدة الدراسة اثنى عشر عاما . فأجرت لذلك اختباراً للطلاب وعقدت لجانا لفحصهم

فأسفرت نتيجة ذلك الإمتحان عن إلحاق الشيخ رحمه الله بالسنة التاسعة الدراسية مع أنه لم يمض على انتسابه للأزهر الا خمس سنوات فحسب .

وقد كان لهذا الوضع أثره العظيم فى تيسير دخول الشيخ رحمه الله امتحان الشهادة العالمية بعد ثمان سنوات تقريبا من انتسابه للأزهر على ماسيأتى شرحه عند الكلام على إجازاته العلمية .

وقد كان الشيخ رحمه الله يشغل نفسه فى الأجازات الصيفية بقراءة الدروس لطلاب العلم حسبة لوجه الله تعالى لشدة حبه للعلم وحرصه على أفادته ونشره ولم يشأ أن يسافر لزيارة أهله مدة طلبه للعلم إلا مرة واحدة ولم يسافر بعدها حتى عين مدرساً بالأزهر .

شيوخه الذين أخذ عنهم :

أدرك الشيخ رحمه الله نخبة ممتازة من الأعلام والجهابذة وفرسان الحلبة ممن سار ذكرهم ، وطارت شهرتهم وطبقت الأفاق . وطلعوا فى سماء الفضل بدورا وهم كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال من كان للمغفور له عناية خاصة بالانتساب إليهم تيمنا بذكرهم ، وتبركا بالحديث عنهم وهم المغفور له الإمام الجليل الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر وقد كان شيخ العلماء غير منازع وإمامهم غير مدافع ولقد أدركه الشيخ وسمع دروسه فى آخر حياته . والعلامة المحقق الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى . والأستاذ الجليل العلامة الثبت المحقق الشيخ عبد الحكم عطا وقد لازم الشيخ دروسه ملازمة تامة وكان يعد المغفور له من أنجب تلامذته وأكثر ملازمة لدروسه والتلقى عنه . والمحقق المتكلم الشيخ محمد أبو عليان وكان الشيخ أبو عليان آية من آيات الله فى دقة الفهم وقد اشتهر عنه أن ذهنه لم يكن يقبل الخطأ وكانت له شهرة بالغة فى علمى التوحيد والمنطق . والأستاذ الكبير والحجة المحقق الشيخ محمد بخيت والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . والعلامة الكبير ذو الشهرة الواسعة الشيخ دسوقى العربى والعلامة الجليل الشيخ أحمد الرفاعى . والأستاذ الكبير الشيخ أحمد نصر رحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم الله عما قدموا للعلم والدين خير الجزاء .

أجازاته العلمية

١ — شهادة الأهلية :

حصل الشيخ رحمه الله تعالى على شهادة الأهلية عام ١٣٢٨ هـ — ١٩١١ م ففى هذا العام أنس من نفسه المقدرة على التقدم للدخول فى امتحان هذه الشهادة وقدم طلبا بذلك للشيخة الجليلة يعرب فيه عن رغبته بالسماح له بدخول الامتحان أسوة بغيره من الطلاب المتقدمين فى تلك السنة ولم يشأ أن يضيع وقته فى انتظار نتيجة قبول طلبه بل أخذ يجد ويجتهد، ويوالى السهر ويستعد لخوض المعركة العلمية . وكان كثير من زملائه المتقدمين للامتحان يرغبون فى مطالعة الدروس معه لما يعهدونه فيه من دقة الفهم، وسرعة الخاطر، وتذليل صعاب المسائل، واستحضار قواعد العلوم فلبى رغبتهم، وانتظم عقدهم، وأخذوا فى مطالعة دروس الامتحان وظلوا على هذا الحال حتى سنحت له فرصة استأذن فيها إخوانه ليذهب إلى إدارة الامتحان ليستعلم عن طلبه الذى تقـــدم به وماذا تم بشأنه ؟ وإذا بأحد المشرفين يدعوه لدخول الامتحان فى الحال فحمد الله وتقدم غير هياب ولا وجل وليس معه كتاب يرجع إلى عبارته فكان يكلف بأحد موضوعات الامتحان فيتلو العبارة عن ظهر قلب ويجيب على أســئلة الامتحان بطلاقة لسان مما أدخل السرور على قلوب الأعضاء وجعلهم يجمعون على نجاحه واستحقاقه لتلك الشهادة من الدرجة الأولى .

ولما فرغ من أداء الامتحان رجع إلى زملائه الذين يشتغل معهم بالمطالعة وكأنهم استبطأوه فقص عليهم قصة دخوله فى الامتحان ونجاحه فى الشهادة الأهليه من الدرجة الأولى وأنه خارج الآن من لجنة الامتحان بعد أن مكث أمام اللجنة ما يقرب من ست ساعات فكان ذلك مثار دهشتهم ومحركا لعزائمهم ليقبلوا على أداء الامتحان بشجاعة وإقدام .

٢ — شهادة العالمية ١٣٢٩ هـ — ١٩١٢ م :

بعد أن نال الشيخ رحمه الله شهادة الأهلية من الدرجة الأولى سمت به همته إلى التقدم

لامتحان شهادة العالميه وكانت أعلى درجة علمية فى سائر أنحاء العالم الاسلامى فى ذلك العهد وكانت صعبة المنال نظرا لصعوبة الامتحان وندرة الناجحين فأقبل على التحصيل كعادته مقدراً المهمة العظيمة التى يعد نفسه لتحقيقها وكأنما كانت الأقدار تعده للمستقبل المجيد الذى ينتظره . ولما حان وقت أداء الامتحان صرفت المتقدمين دروس التعيين وهى موضوعات علمية معروفة بين العلماء بغموضها ودقتها وسعة مجال البحث فيها وكانت تلك الموضوعات تختار من ستة عشر علما وهى تتناول علوم الشريعة من الأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد وما إلى ذلك ، وعلوم اللغة العربية من المعانى والبيان والبديع والنحو والصرف والوضع والعروض والقافية ، والعلوم العقلية من المنطق والحكمة وما إلى ذلك من أدب البحث والمناظرة والأخلاق . ولما صرف التعيين أخذ يطالع تلك الدروس مع زملائه بهمة عالية لا تعرف الكلل وكان بينهم كالاستاذ لهم فاستغنوا به عن إحضار أستاذ يكون مرشدا لهم فى مطالعة تلك الدروس على ما جرت به عادة الطلاب أنذاك . لأنهم وجدوا فيه الذكاء النادر ، والذهن الصافى فى تمحيص المسائل . وفك رموز العبارات وكل ما يحتاج إليه الطالب للظفر بالاجابة الصحيحة عن الأسئلة التى توجه إليهم من أعضاء لجنة الامتحان .

وفى اليوم المحدد لدخوله ذهب إلى مكان الامتحان معتمدا على الله وكانت لجنة الامتحان التى دخل عليها برياسة المغفور له المحقق الكبير الشيخ عبد الحكم عطا وعندما نودى اسمه وتقدم إليهم أسر بعض الأعضاء إلى فضيلة رئيس اللجنة ألا يعجل باخراج هذا الطالب الشامى بسرعة لأن الوقت ضيق ونخشى إذا أخرجناه بسرعة أن تحضر لنا إدارة الامتحان بطالب آخر فيطول علينا زمان المكث . ظنا منه أن الطالب من أولئك الطلاب الذين كانوا يحضرون من بلادهم لا لطلب العلم ولكن لغايات مختلفة ومقاصد متباينة ليس طلب العلم واحدا منها .

وما إن جلس الطالب أمام اللجنة وشرع فى تقرير دروس الامتحان ، بطلاقة لسان ، وجودة بيان حتى أخذ أعضاء اللجنة ينظر بعضهم إلى بعض ، وظهر لهم أن أمامهم شخصية فذة ليست عادية وهى على خلاف ما كانوا يظنون .

وقد كان الرئيس العام للامتحان فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر .

وقد اتفق أن دخل على اللجنة والشيخ رحمه الله ماثل أمامها فأعجب به أيما إعجاب ووجه إليه من الأسئلة الدقيقة ، والمباحث الغامضة ما أجابه عنه بأحسن جواب ، وكشف عن غامضها النقاب فزاده ذلك إكبارا فى نفسه الأمر الذى جعله يبادره حينما ذهب لشكره عقيب نجاحه على ما هى العادة المتبعة فى الجامع الأزهر فى ذلك الحين بقوله : « لقد سررت منك كثيرا » .

ومما وقع له فى امتحانه هذا أنه دخل الامتحان بعد أن استوعب جميع علوم التعيين المعروفة بصعوبتها ، ودقة مباحثها كأصول الفقه وعلوم البلاغة والتوحيد والفقه وما إلى ذلك . وكان من العلوم المقرر الامتحان فيها علم العروض والقافية ولم يكن للشيخ رحمه الله عناية بتحصيله وكان من رؤساء الامتحان المبرزين المغفور له العلامة الكبير الشيخ حسين والى ، وكان عالما جليل القدر متبحراً فى العلوم ضليعاً فى الأدب وفنونه فلما فرغ رحمه الله من أداء الامتحان على أحسن وجه وأكمله وحاز إعجاب الأعضاء وإكبارهم ولم يبق عليه من العلوم إلا علم العروض والقافية وإذا بالمرحوم الشيخ حسين والى يدخل على اللجنة ويجلس ليستمع إلى تقرير الطالب ويلتفت إليه قائلا إنى لأعلم أن أبناء القطر السورى مشهورون بالأدب وقرض الشعر . وسأرى اليوم أكانت هذه الشهرة فى محلها أم لا ؟ ثم وجه إليـــه سؤالا دقيقا فى أجزاء الدوائر العروضية . فأجابه الشيخ رحمه الله « بأن العروضيين إنما فعلوا ذلك لاستيفاء أجزاء الدائرة » وهذا جواب دقيق لسؤال غامض دقيق لايتنبه إليه ويجيب عنه إلا من أوتى حظا من الفطنة والذكاء . وقد سر الشيخ حسين والى من تقريره وإجاباته وعند ذلك أعلنت اللجنة انتهاء امتحانه وهنئوه بالنجاح وهو جالس أمامهم كما جرت العادة فى ذلك فى هـــذا الوقت بعد أن مكث أمام اللجنة ما يقرب من ثمان ساعات خرج بعدها من اللجنة حامدا الله سبحانه وتعالى على حسن توفيقه ، وجميل رعايته .

وكان إخوانه وأصدقاؤه وأبناء وطنه ينتظرونه وما أن رأوه خارجا من اللجنة حتى أقبلوا عليه يهنئونه وقلوبهم مبتهجة بنجاحه ثم سار وسطهم يغمره السرور ولكنه كان ينطوى على هم فى نفسه ، وسر دفين فى قرارة فؤاده ذلك أن المكان الذى يسكنه لايتسع لتلك الجموع من الطلاب والعلماء والاعيان الذى ترافقه

والتى ستفد إليه مهنئة مباركة فقد كان نجاح عالم يعد فتحا عظيما وبشارة تهتز لها الأرجاء ولكن فضل الله عظيم وحكمته جليلة فإن لفيفاً من إخوانه منذ أن ظهرت لهم بوادر نجاحه ، وما شاع فى جو الامتحان من السرور والثناء العاطر من الرؤساء أعدوا عدتهم وأحضروا مقاعد وثيرة فى فناء المنزل تتناسب مع منزلة هذا العالم الجديد الذى سيكتب اسمه منذ الليلة فى سجل الخلود .

ولقد كان الشيخ الوالد رحمه الله يقص هذه القصة علينا وقد بلغ منه التأثر غايته شكرا لهم على هذه الالتفاتة الكريمة ، والأريحية العربية العظيمة وكأن لسان حاله يقول :

شكرت جميل صنعكمو بدمعى ودمع العين مقياس السرور
لأول مرة قد ذاق جفنى على ما ذاقه طعم السرور

وكانت ليلة حافلة ألقيت فيها الخطب والقصائد فى مدح الشيخ وتهنئته بهذا النجاح وقد أقبل المهنئون يفدون إلى مكان الاحتفال يعربون عن بالغ سرورهم ، وجميل شعورهم .

هل يتم السرور ؟ :

لجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

سمعنا الشيخ الوالد رحمه الله يتحدث قائلا كان أقصى آمالى ، وأعظم أمانى أن أزف خبر نجاحى لوالدى لأنال بذلك رضاه ، وأدخل السرور على قلبه . ولكن شاء الله أن يأتى نبأ وفاة والده وهو منهمك بالاستعداد للامتحان فرأى إخوانه وأصدقاؤه المخلصون أن يكتموا عنه ذلك النبأ المفجع ، والرزء المؤلم حتى لا يكدروا خاطره ولا يزعجوه الأمر الذى لو تم لأدى إلى عدم دخوله الامتحان . أما وقد خرج الشيخ ناجحاً ظافراً بأمنيته فلم يكن من الحكمة بقاء الخبر مكتوما عنه فقر قرارهم على إخباره وتخفيف وقع المصاب عليه فاجتمعوا فى غرفة أحدهم وأرسلوا إليه واحداً منهم المرحوم الشيخ « أحمد القيم النابلسى » وكان محباً للشيخ مخلصا له فأمسك بيديه وطلب منه الذهاب حيث يجتمع إخوانه للتحدث معه فى أمر يخصه

وما إن دخل عليهم الغرفة ورأى ما يرتسم على وجوههم من انفعالات حتى أدرك ما هم مجتمعون من أجله ، وما يرمون إليه من أحضاره . وقال : رحمه الله لحينذاك غامت الدنيا فى وجهى وأظلمت ولم يبق لحلاوة ذلك النجاح ، ولا لبهجة ذلك الحفل من أثر فى نفسى فسبحان الباقى بعد فناء خلقه .

وهكذا ما أشبه الليـــلة بالبارحة فجع الشيخ بوفاة والده فى غمرة سروره ، وأوج سعادته فأظلمت الدنيا فى وجهه ، وذهبت حلاوة أنسه . وها نحن أولاء نفجع بوفاة شيخنا العظيم ووالدنا الكبير فى وقت نحن فى أشد الحاجة إلى عطفه وحنانه ، فيشيع الأسى فى نفوسنا ، ويبلغ الحزن منا غايته ، والوجد ذروته . ولا نملك إلا أن نقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

اختياره للتدريس بالازهر سنة ١٩١٢ م :

إذا أراد الله نفاذ أمر يسر له أسبابه ، وهيأ وسائله . وهذه إحدى سنن الله الكونية التى لا تبديل فيها ولا تغيير .

وقد ألمعنا أن المترجم له رحمه الله حينما أدى امتحان شهادة العالمية ونجح نجاحه الباهر الذى عرضنا صورة له فيما سلف كان ممن سمعه وهو يؤدى الامتحان وأعجب به الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر إذ ذاك ولقد أسر فى نفسه أن ينتفع بهذا الشاب الذكى وينفع به أبناء الأزهر لما أنسه فيه من براعة وألمعية وسعة أفق ودقة فهم ، وتلك الصفات كانت ولا تزال مزايا الأزهرى الكفء بل هى الطابع الذى يميز أبناء الأزهر العظيم عن بقية خريجى الجامعات الاخرى .

وقد ذهب رحمه الله لزيارة الأســـتاذ الكبير عقيب تخرجه لشكره وجرى بينهما الحديث فى كثير من الشئون . وكانت فرصة مناسبة أن يسأله :

هل فى عزم المشيخة أن تعين هـذا العام مدرسين من خريجى العام المـاضى ؟ وهو العام السابق لتخرجه . ولما عرف منه عدم العزم على التعيين لم يشجعه هذا أن يسأل عن التعيين من خريجى سنته وهى سنة ١٩١٢ م .

ثم سأله رحمه الله بعـد ذلك هل أنتم فى حاجة إلى أساتذة مدرسين للخط ؟

فقال له الأستاذ الكبير نعم .
هل عندك أحد يصلح لذلك ؟
فقال له أجل : أنا ، فقال له : أما أنت فأولهم .
وهنا استأذن من شيخه الكبير وذهب لسبيله .

وما هى إلا أيام حتى وصله كتاب من مشيخة الأزهر يدعوه لدخول المسابقة التى ستعقد الامتحان فى فن الخط فى إدارة القسم الأولى للأزهر وهنـا أوجس رحمه الله فى نفسه خيفة فإن المتقدمين لهـذه المسابقة هم أعلام الخط العربى وأئمته ، وعنايته بالخط كانت محدودة وأعظم ما كان يوجه إليه عنايته هو الناحية العلمية وأنى لمثله أن يسابق أولئك الأعلام فى مادتهم التى اختصوا بها ؟ وتفرغوا لها طيلة حياتهم .

ولم يطل تردده طويلا فعزم أمره ، وأجمع رأيه على أن يدخل المسابقة معتمداً على الله جل وعلا .

وفى الموعد المضروب توجه الشيخ رحمـه الله إلى الامتحان وكتب أحسن ما يستطيع كتابته وسلم ورقته للمشرفين ومضى لشأنه .

والذى حصل بعد ذلك أن لجنة الامتحان حينما اجتمعت للنظر فيما لديها من أوراق المتسابقين لاختيار أحسنهم خطاً وأمثلهم طريقة . دخل عليهم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر وأخذ جملة أوراق المتسابقين بيده وأخـذ يتصفحها حتى عثر على ورقة المغفور له الشيخ رحمه الله فأمسكها بيده ونظر إلى أعضاء اللجنة المميزين وسألهم قائلا ما رأيكم فى هذه الورقة ؟ فقالوا له : أنها أهل للنجاح فأخذها ووضعها فى حافظته . وقال لهم ابدأوا عملكم على بركة الله ، ومضى لشأنه . وما هى إلا أيام قلائل حتى أعلنت النتيجة وكان اسم الشيخ رحمه الله ضمن الاسماء التى وقع عليها الاختيار وعلى أثر ذلك وصله كتاب من المشيخة يدعوه لمباشرة عمله الجديد مدرسا فى القسم الاولى .

وفى اليوم المحـدد لابتداء الدراسة ذهب وهو يحمل محبرته وأقلامه على ما هى عادة أساتذة الخط فى ذلك العهد وعند دخوله مكان الدراسة قابله صاحب الفضيلة العلامة الكبير الشيخ محمود الدينارى عضو جماعة كبار العلماء وشيخ القسم العالى

رحمه الله وكان إذ ذاك مراقبا للقسم ، وناوله جدولا بإمضاء فضيلة شيخ القسم يحوى جميع مواد الفصل ماعدا الفقه إذ كان طلاب الفصل الذين وكل إليهم التدريس فيه ينتمون إلى مـــذهب الإمام أحمد بن حنبل ووالدنا رحمه الله كان شافعى المذهب .

وعندما تسلم الجدول ظن أنه خطأ حيث هو لم يعن إلا مدرساً للخط وقال : للأستاذ الكبير فضيلة الشيخ محمود الدينارى ماهذا ؟ فقال له فضيلته هذا ما جاءنى من فضيلة شيخ القسم خاصا بكم فسر رحمه الله بهذا الجدول وتسلمه من فضيلة المراقب وتوجه لطلابه وأخذ يلق عليهم الدرس بما عهد فيه من جدارة وكفاية .

ثم رأى رحمه الله بعد أن ينتهى من دروس يومه أن يزور شيخه العظيم الشيخ « محمد شاكر» شاكراً له ثقته العظيمة وتقديره لكفايته . ولما جلس بحضرته قال له هذا الفصل فصلك وأولئك الطلاب أبناؤك وأنت المسئول عنهم ولا تفارقهم إلا فى حصة الفقه لاختلاف المذهب فشكره على ذلك ووعده أن يكون عند حسن ظنه به .

ولم يمض رحمه الله على تدريسه فى القسم الأولى إلا سنوات معدودة درس فيها معظم علوم القسم ثم رقى إلى التدريس فى القسم الثانوى فدرسا بالقسم العالى وقد درس رحمه الله مختلف أنواع العلوم الشرعية من الفقه وأصوله والتفسير والحديث رواية ودراية والتوحيد وما إلى ذلك .

والعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعلوم عقلية من منطق وفلسفة وحكمة وما يتصل بذلك . وقد درس هذه العلوم فى أعظم كتبها وأوفى مراجعها التى كانت ولا يزال بعضها مقررا تدريسه فى الجامع الأزهر وكلياته ومعاهده وقد أمضى رحمه الله سنين كثيرة مدرسا مادة أصول الفقه لطلاب السنة الرابعة وهى السنة النهائية للقسم العالى يؤدى الطلاب فيها امتحانهم النهائى ليظفروا بنيل الشهادة العالمية وفى هـذه الفترة وضع مؤلفه النفيس الذى قل أن يوجد له نظير فى كتب الفن على تشعبها وسعة مباحثها وهو كتاب «نبراس العقول فى تحقيق القياس عند علماء الأصول» والذى أبدى فيه من الاقتدار والتملك لناصية هذا العلم ماجعل الألسنة تلهج بالثناء عليه وخاصة كبار العلماء الذين هم فى طبقة شيوخه .

ولما أنشئت أقسام التخصص القديم اختير رحمه الله لتدريس مادة أصول الفقه فى كتاب كان ولا يزال يعد من أوسع كتب هذا الفن ، وأدقها وأشملها وهو كتاب

« مسلم الثبوت وشروحه » فكان رحمه الله يبدى من البراعة والغوص على دقائق هذا الكتاب واستنباط مراميه وإشاراته ما يملأ النفوس إجلالا وإكبارا .

والحق أن الازهر خسر بفقد هذه الطبقة من العلماء خسارة ما أظن أنها تعوض إلى آخر الدهر .

وهكذا لا يقبض الله العلم انتزاعا ، ولكن يقبضه بموت العلماء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وحينما أنشئت أقسام تخصص المادة ، وهى التى تخرج أساتذة للتدريس فى الكليات، اختير رحمه الله أستاذا لتدريس مادة التوحيد وأصول الدين وقد ظل سنين طويلة أستاذاً لهذه المادة فى قسم التخصص درس فيها لطلاب هذا القسم أشهر كتب الفن ، وأعظمها مثل كتاب (المواقف) للعلامة العضد مع شرحه النفيس للإمام المحقق السيد الجرجانى . وكتاب (المقاصد) وشرحه وكلاهما للامام المجمع على براعته وعلو شأنه «سعد الدين التفتازانى » .

وكان نظام التدريس فى هذا القسم يقضى بألقاء محاضرات علمية بالإضافة إلى دراسة الكتب المقررة فى كل مادة من مواد العلوم . ولقد أتيح لنا الإطلاع فى مكتبه رحمه الله على جملة من هذه المحاضرات النفيسة وسيرى القارىء المحاضرة الأولى فى ضمن ما سننشره من رسائله العلمية فى هذا الكتاب .

أما بقية المحاضرات ومؤلفاته الأخرى التى لم تطبع فسننشرها إن شاء الله فى كتاب مستقل فى فرصة أخرى .

نيله لعضوية جماعة كبار العلماء :

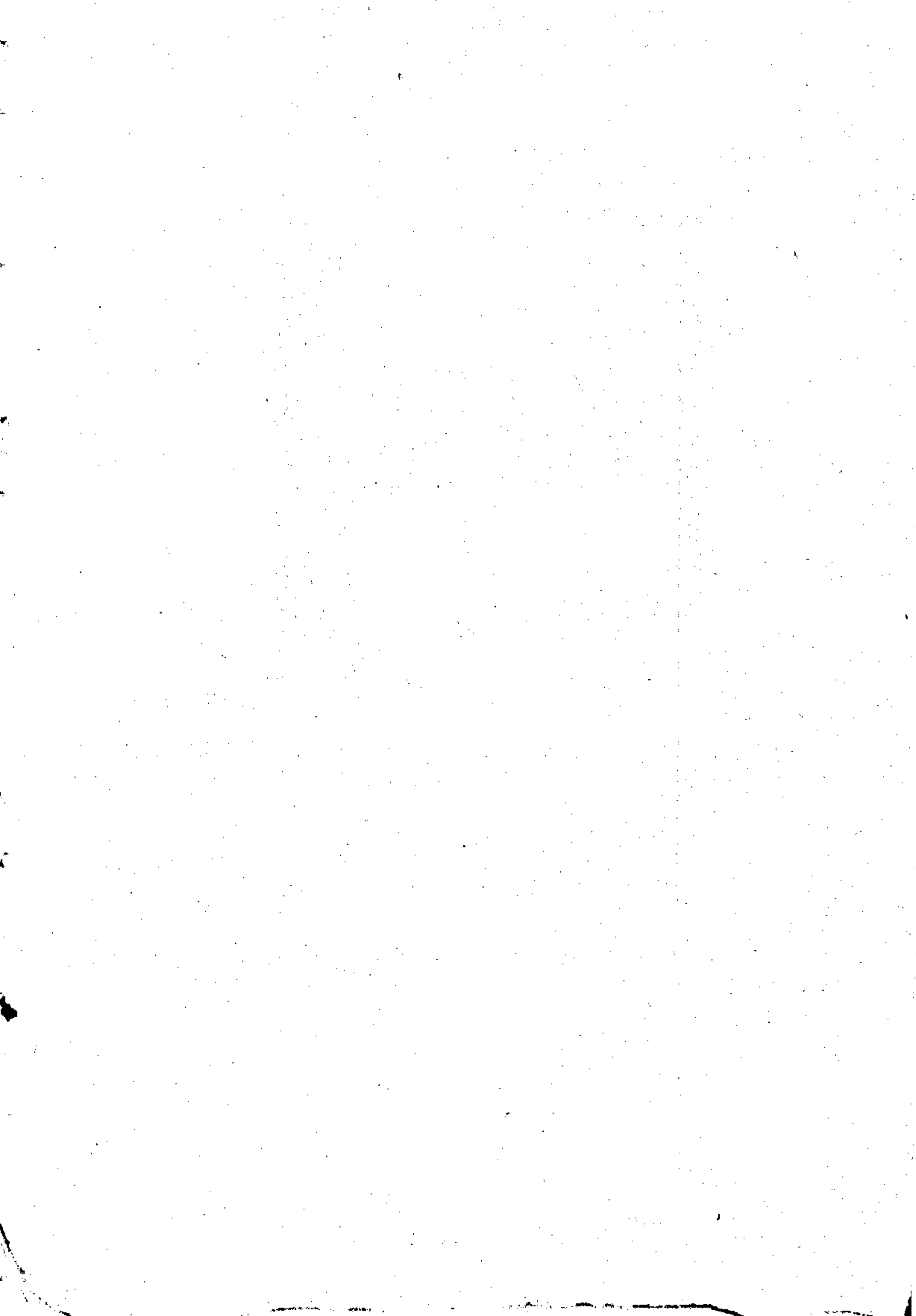
وفى سنة ١٩٣٩ تقدم رحمه الله بمؤلفه النفيس الذى أسلفنا الكلام عنه وهو (نبراس العقول فى تحقيق القياس عند علماء الاصول) إلى جماعة كبار العلماء لنيل عضويتها . ولم يطل بحثهم للمؤلف طويلا فقد انتخب عضوا فى الجماعة بالإجماع لما يتمتع به من شهرة فى الأوساط العلمية . وكان إذ ذاك أصغر أعضاء الجماعة سناً .

وبعد ضمه إلى جماعة كبار العلماء منح كسوة التشريفة من الدرجة الأولى سنة ١٩٤١ .

ومن دلائل الثقة به أنه اختير عضوا فى أول امتحان للاستاذية سنة ١٩٣٨ ثم تجدد اختياره رئيسا أو عضوا لهذا الامتحان وفى ذلك تقدير لعلمه وكفايته .



المغفور له وهو بملابس كسوة التشريفة من الدرجة الأولى



حياته الإدارية

١ — انتخابه شيخا لرواق الشوام سنة ١٩١٨م :

بعد وفاة شيخ الرواق الأسبق المرحوم الشيخ يحي الخليلي ؛ شغر منصب مشيخة الرواق فرأت المشيخة أن تجرى انتخابا لاختيار خلف للشيخ المتوفى ، وكان رحمه الله ضمن من تقدم لهذا المنصب وكان انتخابه بالإجماع من علماء الرواق وطلابه الذين تعلقت قلوبهم بشيخهم الناهض واتفقت كلمتهم على اختياره خير خلف لشيخهم الراحل .

أعماله فى الرواق :

كان أول عمل ابتدأه عقب توليه مشيخة الرواق أن وجه عنايته للأوقاف المحبوسة على الطلاب ومصالح الرواق ، وكانت مهملة لا يعنى بأمرها ، ولا يهتم بشأنها ، فما زال يرعاها ، ويحافظ عليها ؛ ويجدد دارسها ، ويرمم ما تداعى من بنيانها حتى تضاعفت غلتها ، ونمى إيرادها ؛ وكان فى سبيل ذلك لا يدخر جهدا ولا يضن عليها بوقت شأن الحريص على الأمانة الذى يراقب وجه الله تعالى فى عمله .

ولقد استطاع رحمه الله بحسن إدارته أن يوفر للطلاب المشمولين برعايته آخر كل عام مبلغا من المال يوزعه عليهم بالتساوى بعد استيفاء جميع الأعمال الاصلاحية التى تتعلق بأعيان الوقف وصرف المرتبات للموظفين .

وكان عدد الطلاب يصل أحيانا إلى نحو من خمسمائة طالب منهم الفلسطينى والأردنى والسورى واللبنانى .

وكان رحمه الله يكثر من زياراته للطلاب فى رواقهم ، ويناقشهم فى دروسهم التى تلقوها على أساتذتهم ، ويشجعهم على الإقبال على الدرس بهمة وعزيمة وينوه بالنابهين منهم ، ويثنى عليهم ، ويبث فيهم روح التنافس العلمى . ولقد أثمرت جهوده معهم وآتت أكلها وتخرج فى عهده نخبة من أفاضل العلماء هم الآن مناط رجاء الأمة ، وموطن ثقتها وأملها الذى تعقده لبلوغ غايتها ومجدها إذ يشغلون

أسمى المناصب العلمية والدينية فى جميع المدن السورية والأردنية والفلسطينية واللبنانية .

ولقد كان من عادته رحمه الله أن يجعل من بيته العامر ندوة علمية يؤمها الطلاب ليغترفوا من منهل شيخهم العذب ، فيعودوا وقد اكتسبوا علماً جماً ، وأدباً غضاً، واتسعت ملكاتهم العلمية . وكان ذلك ديدنه طيلة حياته رحمه الله .

وكثيرون الذين يذكرون تلك المجالس العلمية التى كان رحمه الله يعقدها فى منزله ويؤمها الطلاب الذين أتموا مطالعة دروس التعيين ليعرضوا على شيخهم ماقرأونه فيناقشهم ، ويختبر أفهامهم ويرشدهم إلى مايكونون قد غفلوا عنه من دقائق العلم وما عساه يوجه إليهم من غامض أسئلة الامتحان حتى إذا مامثلوا أمام لجان الفحص والاختبار كان النجاح حليفهم والفوز غايتهم .

وكان رحمه الله رئيساً أو عضواً فى إحدى لجان الامتحان العام كامتحان العالمية أوالتخصص أوأى لجان أخرى فيعود إلى منزله بعد عمل وجهد شاق لايعرفه إلا من مارسه فإذا هو غاص بالوافدين من الطلاب الذين ينتظرون قدومه فيجلس بينهم ، ويستمع اليهم ويناقشهم فيما فهموه منها ، ويوجه اليهم الأسئلة حتى يطمئن على حسن إدراكهم وصواب مافهموه فى تلك الموضوعات . وكان يبدأ مجلسه هذا بعد العصر بقليل ولا يفرغ منه إلا بعد العشاء الأخير ثم ينصرف الطلاب لشأنهم شاكرين مثنين داعين إلى الله تعالى أن يطيل لهم حياة شيخهم . وقد تستمر هذه المجالس قرابة شهرين حتى تنتهى أعمال الامتحان وتظهر نتائجها يفد اليه الطلاب الذين كتب لهم النجاح شاكرين عطفه وبره وحدبه وعنايته بهم .

وكان رحمه الله يعمل كل هذا حسبة ، لوجه الله تعالى فما أخذ طيلة حياته أجرا من طالب كما هى عادة بعض الناس .

ومن مآثره الجيدة المحمودة أن مدرسة القضاء الشرعى كانت أبوابها مغلقة أمام الطلاب الغرباء لأن شرط الانتساب اليها أن يكون الطالب حاملا لشهادة العالمية المصرية ، وأن يكون حنفى المذهب .

فما زال الشيخ رحمه الله يوالى اتصالاته بولاة الأمور ويشرح لهم فوائد فتح أبواب هذه المؤسسة العلمية أمام الطلاب الغرباء ليكون منهم قضاة قديرون يحكمون

بين الناس بالعدل ويسيرون بسيرة أسلافهم حتى كللت جهوده بالنجاح ودخلها فريق من نبهاء الطلاب الاحناف إذ ذاك ووقفت عقبة المذهب أمام بعض آخر من الطلاب الذين كانوا ينتمون إلى مذهب آخر فاقترح رحمه الله تذليلا لهذه العقبة لثقته بأبنائه أن يكلفوا بامتحان مسابقة فى فقه الإمام أبى حنيفة وفعلا أجريت لهم المسابقة فى الفقه الحنفى وكان النجاح حليفهم .

وتلك إحدى حسناته وبعض مآثره التى سجلها التاريخ.

ولقد اتفق له مأثرة أخرى نظير مآثره السابقة فإنه حينما أنشئت كليات الجامع الأزهر وهى كلية الشريعة وكلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية وكان من شرط الانتساب إليها أن يكون الطالب حاملا لشهادة إتمام الدراسة الثانوية . ولم يكن هذا أمراً ميسورا بالنسبة للطلاب الغرباء الذين يفدون من شتى أنحاء العالم الاسلامى فبقيت الكليات مغلقة الأبواب أمام أولئك الطلاب .

فأدرك رحمه الله بنافذ بصيرته مبلغ الضرر الذى يلحق أولئك الطلاب من حرمانهم من مرحلة التعليم العالى التى هى أعلى مراحل التعليم والحاجة إليها ماسة ، ومالم يتيسر للطلاب الانتساب إليها والاستفادة من دروسها والتلقى على أساتذتها يظل مستوى أولئك الطلاب ضعيفا وتحصيلهم ناقصا ، وأمهم فى أشد الحاجة إليهم لأنهم سيكونون رسلا ، ودعاة للخير . وهذا يتوقف على تمام نضوجهم العلمى ليكونوا أهلا لتحمل هذه الأمانة .

فسعى رحمه الله سعيه الحثيث المتواصل بما عرف عنه وعهد فيه من إقناع وقوة حجة ، وتبصر فى العواقب حتى ظفر من ولاة الأمور بتشريع يجيز لأولئك الطلاب الانتساب إلى الكليات بعد أداء امتحان مسابقة فى طائفة من العلوم التى تقررها كل كلية على حسب حاجتها وظروفها ، فكانت خدمة جلى أسداها إلى العلم وأهله وعم نفعها الأمم الاسلامية .

إلى جانب هذا كله كان رحمه الله بارا بأبنائه الطلاب . وقد كانت له فى ذلك عادات حسنة جميلة :

فلقد كان إذا أقبل شهر رمضان وهو شهر خير وبركة ، يقيم حفلات أفطار فى بيته يدعو إليها الطلاب جماعات جماعات، يخصص لذلك بعض أيام الاسبوع كالأثنين والخميس

من كل أسبوع فيحضر فريق منهم فى يوم ، وفريق آخر فى يوم آخر ، وهكذا حتى يعمهم جميعا مهما كان عددهم .

وكذلك كان شأنه معهم فى عيد الاضحى المبارك فكانوا يحضرون لمنزله زرافات ووحدانا ، يهنئونه بالعيد ، وماهى إلا هنيهة حتى تمد لهم الموائد فيأكلون هنيئا ولا تنصرف منهم جماعة إلا لتقدم بعدها جماعة أخرى .

وذلك كله ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وطلبا للزلفى لديه جل وعلا .

عطفه على أسرة كاتب الرواق :

ولقد اتفق أن انتقل إلى رحمة الله تعالى كاتب الرواق الشيخ «محمدحسنى قاسم» وترك أطفالا صغاراً ولم يترك لهم مايسد أودهم ، فكان من كريم التفاتاته رحمه الله إلى الشيخ حسنى وأطفاله أن أسند وظيفة الكتابة إلى نجله الشيخ «محمدعيسى منون» وكان إذ ذاك لا يزال طالبا فى كلية اللغة العربية فى سنتها الثانية الدراسية ؛ ووقته ثمين وحاجته إلى التحصيل لا تخفى ، فلم يبال رحمه الله بذلك كله وأسند وظيفة المرحوم الشيخ حسنى لنجله الشيخ محمد عيسى وكان يصرف راتب الوظيفة لورثة المرحوم الشيخ حسنى بمقتضى إيصالات لا تزال محفوظة إلى يومنا هذا .

وقد بقى الامر على ذلك حتى شب أبناء الشيخ حسنى وكبروا ومنهم من اشتغل بالتجارة ومنهم التحق بوظيفة . والمدة التى اشتغل فيها الشيخ محمد كاتبا وكان مرتبه يصرف لاسرة كاتب الرواق تسع سنوات .

هذه هى أخلاقه رحمه الله وهذه هى إحدى أياديه البيض فما أحوج المسلمين إلى هذه الأخلاق وتلك المكارم .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض الذين كانوا يطمعون فى وظيفة المرحوم الشيخ حسنى كاتب الرواق تقدموا بالشكوى لفضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر المرحوم الشيخ الأحمدى الظواهرى من إسناد وظيفة الكاتب لنجل شيخ الرواق وهولوا الأمر عليه فرأى الشيخ الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الازهر أن يتصل بالشيخ رحمه الله ويستعلمه جلية الأمر فلما قابله وسأله عن حقيقة الحال وقص عليه قصة أولاد كاتبه المتوفى وأنهم صغار لا عائل لهم يعولون عليه وأن نجله إنما يشتغل بهذه الوظيفة حسبة لوجه الله تعالى وأطلعه على مستندات الصرف التى تثبت صحة صرف ذلك المرتب لأبناء الكاتب الاول المرحوم الشيخ حسنى . أكبر فيه هذا الخلق وهـــذه التضحية براحة نجله

وشكره على موقفه هذا ، وطلب إلى أولئك الشاكين ألا يحاولوا إثارة هذه المسألة مرة أخرى .

ولم يزل رحمه الله يعامل أبناءه الطلاب معاملة الأب الشفوق يعود مريضهم ويأخذ بناصر ضعيفهم ، ويساعد المعوزين منهم ، بماله وجاهه ما وجد لذلك سبيلا ، ولو حاولنا بسط مواقفه فى بره بهم ، وعطفه عليهم ومواساته لهم لاحتجنا إلى أسفار ولكنه قليل من كثير وقطرة من بحر رحمه الله رحمة واسعة .

عنايته بطلاب البعوث الاسلامية :

لقد كان طلاب البعوث الاسلامية يفدون إلى الجامع الأزهر من شتى أقطار العالم الإسلامى ، وكثيرون منهم كانوا يحضرون إلى مصر وهم لا يجيدون اللغة العربية ، وربما لا يحسنون التفاهم بها .

وكانت الأنظمة واللوائح المعمول بها فى الجامع الأزهر لا تفى بحاجاتهم العلمية ولا تحقق الغاية التى فارقوا أوطانهم وذويهم من أجلها ، الأمر الذى ربما يستتبع أن تغلق أبواب الجامع الأزهر أمام أبناء الأمم الاسلامية غير المصريين ، وهذا مالم يحصل له مثيل فى جميع تاريخ الأزهر بل فى تاريخ الاسلام أجمع .

ولقد ضج طلاب البعوث الاسلامية بالشكوى من هذا الوضع الذى يعود عليهم بأشد الاضرار ، وأوخم العواقب .

ولقد شعر رحمه الله بما يحس به أولئك الأبناء الأعزاء ، ولمس آلامهم . وكانوا كثيرا ما يعلقون آمالهم على جهوده إذ كانوا يعتبرونه عميدهم لما لمسوه من العطف عليهم ، والعناية بهم . فأخذ يواصل مساعيه ، ويشرح لولاة الامور مبلغ الضرر الذى يحل بطلاب البعوث وهم مرآة الأزهر الصافية التى تنعكس أشعتها على أممهم وشعوبهم .

ولقد أثمرت جهوده الصادقة ثمراتها وأصدر فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى قراراً بتأليف لجنة من بعض مشايخ الأروقة فى ٨ من نوفبر سنة ١٩٤١م . رقم ٤٦٤٢ تحت رياسة المترجم له رحمه الله للنظر فى حالة أولئك الطلاب والشكاوى المقدمة منهم من أحكام القانون رقم ٣٦ لسنة ١٩٤١ م الصادر بتنظيم الأقسام العامة ، وفيما ينبغى تعديله من

مواد هذا القانون بما يلائم حالتهم ، ورفع تقرير بما تراه اللجنة فى ذلك .

ولقد اجتمعت اللجنة المشار إليها تحت رياسته رحمه الله ووالت عملها فى جلسات متعددة واتفقت بعد البحث فى أمر الطلاب وحالتهم أن ترفع تقريراً لفضيلة الأستاذ الأكبر متضمناً ما رأته من الاقتراحات للتفضل بالنظر فيه .

ونحن نلخص ذلك التقرير لأهميته التاريخية وقد عثرنا على صورة منه بخطه رحمه الله ولقد قدم له بتمهيد قال فيه :

الجامع الأزهر مدرسة إسلامية كبرى لم يحو الوجود له من نظير يشع نوره على جميع الأقطار الإسلامية فيزيل عنها ظلمة الجهالة بشريعة الإسلام السمحة . وما يحتاج من العلوم العربية والعقلية — إذ أنه من مبدأ تأسيسه لغاية الآن مازالت طلاب العلم تفد إليه من سائر بلاد المسلمين سواء القاصى منها والدانى ، فيغترفون من مناهله العذبة الصافية ثم يرجعون إلى بلادهم فيروون به غلة أهلها ، ويكونون سبباً فى حياتهم حياة طيبة وسعادتهم الدنيوية والأخروية .

من أجل ذلك حبس على هؤلاء الطلاب ذوو اليسار من بلادهم ما يعينهم على أداء مهمتهم ، فصار الجامع الازهر بحكم ذلك وبما جرى عليه العمل مدة وجوده مدرسة مشتركة بين المسلمين . غير أنهم بلسان الحال وتلويح المقال والاستمرار على هذا المنوال الذى سار عليه الأزهر فى جميع أطواره قد وكلوا أمر القيام بهذه المدرسة ، وتنظيم شئونها وتكميل ما تحتاج اليه من النفقات إلى مصر التى هى زعيمة البلاد الاسلامية فى الثقافة الدينية ، وحاملة لواء العلم والدين والمحافظة على القرآن الكريم من عهد بعيد .

ومصر والحق يقال قد قامت ولا تزال تقوم بهذه المهمة العظمى على أحسن الوجوه وأكملها .

وقد خصت مصر الطلاب الغرباء فى كل زمان بمزيد العناية ، وجميل الرعاية وتسهيل سبل التعليم أمامهم بشتى الوسائل ، فاستحقت الثناء الجميل ،والشكر الجزيل من العالم الإسلامى أجمع وكانت بذلك أحق بالقيادة العليا من سائر الأقطار الإسلامية لجيوش الثقافه الدينية ، وأجدر بالزعامة العظمى للسلمين فى سيرهم نحو الرقى إلى أن يعود إليهم مجدهم القديم .

نظرنا فى هذا القانون فوجدناه قد استتبع إلغاء الشهادات التى كانت خاصة

بالغرباء ، وحتم على الطالب الغريب الذى يفد على الأزهر ويريد الحصول على شهادة يرجع بها إلى بلاده أن يلتحق بالأقسام النظامية ، وهذا لا يتيسر لكل طالب بمجرد وصوله إلى مصر لا سيما الطلاب الذين لا يعرفون اللسان العربى وهم كثيرون جدا ويستحقون مضاعفة العناية بهم وتيسير سبل تعليمهم بكل الوسائل . وبذلك انسد باب الجامع الازهر عن كثير من الطلاب الغرباء من غير سبب يرجع إليهم. وهذا لم يقع قط فيما مضى . كما أنه حتم على الطلاب الغرباء الموجودين قبل صدوره أن يلتحقوا بالأقسام النظامية ، إذا أمضوا فى الازهر مدة تقل عن ثمان سنوات وهذا لم يمكن تطبيقه إلا على القليل منهم فاستتبع ذلك حرمان الكثير من تلق العلم على الوجه الأكمل وهو مما لم يعهد قط .

لذلك رأينا بعد البحث الشديد والنظر فى شكواهم وبعد رجوعنا إلى خبرتنا بأحوالهم وما يحتاج إليه مختلف البلاد الإسلامية أن نتشرف بتقديم اقتراحين لفضيلتكم راجين التفضل بالنظر فيهما بعين الاعتبار والعمل على معاملة الغرباء على أساسهما .

الاقتراح الأول :

أن يعدل القانون بإضافة مادة واحدة يستثنى فيها من أحكام الغرباء على أن يضع مجلس الأزهر الأعلى لهم لائحة خاصة تناسب حالهم يبين فيها كيفيه انتسابهم ونوع الشهادات التى يمنحونها وغير ذلك أسوة بالقوانين السابقة كقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ .

والذى دعانا لهذا الاقتراح . أولا صعوبة التسوية بين كثير من الغرباء والمصريين فى المعاملة والمنهج الذى يسيرون عليه . وثان اختلاف حاجة الأقطار الاسلاميه إلى العلوم . وثالثا جعل الباب مفتوحا أمام المجلس الأعلى لأن الوقوف على الحاجة الحقيقية لمختلف البلاد فى وقت واحد غير متيسر . إذ ليس من المصلحة أن تحدد تفاصيل معاملة الغرباء بقانون لا يسهل تعديله فى كل وقت إذا تصادم مع بعض الحاجات التى يمكن أن تظهر لبعض البلاد الاسلامية ، بل المصلحة تقضى أن يحال تفصيل معاملتهم إلى المجلس الأعلى .

الاقتراح الثانى .

مشروع لائحة للغرباء رأينا أنه مناسب لأحوالهم وقد استمددناه بالنسبة إلى

اللحاق إلى الكليات وأقسام التخصص بما جرى عليه العمل طبقا لقرارات في هذا الشأن بمجلس الأزهر الأعلى . وبالنسبة إلى الالتحاق بالأقسام العامة بما نعلمه من حال كثير من الطلاب الغرباء ومن مختلف حاجات البلاد الاسلامية .

كما أننا راعينا فى وضعه التفادى عن مكث الطالب فى الأزهر مدة يعلم منها قطعا أنه ليس أهلا لطلب العلم وعن إهمال الطالب فى أثناء تعلمه فى الأقسام العامة ويلى هذا المشروع . وقد تضمن جملة مواد تحقق للطالب مصلحته العلمية وتيسر له نيل كبرى الاجازات العلميه حتى إذا ما رجع إلى بلاده كان جديرا بأن يكون رسول إصلاح وإرشاد لبنى وطنه .

ولقد أخذ ولاة الأمور فى الأزهر بما اقترحته اللجنة التى يرأسها الشيخ رحمه الله ونفذت اللائحة التى وضعت لصالح الطلاب الغرباء وفتحت أمامهم أبواب الكليات والأقسام النظامية ، وأصبحت تزخر بمختلف الطوائف والأجناس وتخرج منهم العدد الوفير وزالت تلك العقبات التى كانت تقف أمامهم سدا منيعا يحول بينهم وبين نيل إجازاتهم العلمية التى يتوقف عليها مصيرهم فى الحياة .

اهتمامه بحالة طلاب الأزهر الفلسطينيين : الذين انقطعت عنهم مواردهم .

حينما قامت الحكومه الانجليزية بإنهاء انتدابها على فلسطين توطئه لإعلان قيام إسرائيل وتحالفت قوى الشر الغادر والعدوان الأثيم وسعت سعيا لإجلاء عرب فلسطين عن وطنهم وديارهم ووقعت الطامة الكبرى وتحدث التاريخ عن حالة اللاجئين العرب وبؤسهم وشقائهم وكيف ضاعت فلسطين قلب العروبة النابض وسقطت مدنها وقراها التى كانت إلى الأمس القريب زاهية زاهرة تفيض حياة وأمالا وسعادة وبهجة بأهلها العرب .

فأصبحت بين عشية وضحاها وقد عصف الدهر بها وبأهلها فأذا هم مشردون يعانون مرارة البؤس وشقاء الحرمان وعلى وجوههم كآبة مريرة وفى صدورهم حقد دفين وحزن أليم .

ولقد كان ينتسب إلى الأزهر الشريف معاهده وكلياته وأقسامه العامة مئات من أبناء فلسطين الشهيدة وشبابها المهاجر لوجه الله والعلم . وكانوا يحيون حياة كريمة بما كان يمدهم به أهلوهم وذووهم من أموال سخية تحفظ عليهم كرامتهم وتيسر

لهم طلب العلم بلا حرج ولا مشقة شأنهـــم شأن غيرهم من أبناء الجامعات وطلاب العلم .

ولم تكد الكارثة تنزل بوطنهم وتحل قريبا من ديارهم حتى أصبحوا على حالة يرثى لها توجب النظر فى أمرهم وتهيئة الجو الصالح لهم لاتمام دراساتهم ليساهموا فيما بعد فى انقاذ وطنهم الغالى وتفديته بأرواحهم العزيزة .

وكان رحمه الله بحكم مركزه ومنصبه أقرب الناس إليهم وأدرى من غيره بأحوالهم ، وأعرف بشدة وقع المأساة على نفوسهم ،

فسعى سعيه الحثيث لدى مشيخة الأزهر كعادته ، وأثمر سعيه فاجتمعت الهيئة العليا الأزهرية لانقاذ فلسطين التى كانت قد ألفت من قبل على أثر الكارثة التى حلت بفلسطين ودخول الجيوش العربية لحماية أهلها وجمعت تبرعات كثيرة لهذا الغرض.

اجتمعت هذه الهيئة بسعى فضيلته على أثر ما لمسه من حالة أبنائه الطلاب وانقطاع مواردهم عنهم ، ونظرت فى المذكرة التى رفعها رحمه الله إلى الهيئة وقد شرح فيها حالة الطلاب وذلك فى ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ ﻫ الموافق ٧ من أبريل سنة ١٩٤٨ وقررت لكل طالب مبلغا من المال يستعين به على قضاء مصالحه حتى لا يعوقه عن طلب العلم عائق .

كما قررت تأليف لجنة فرعية تتولى توزيع الاعانات على أولئك الطلاب بعد بحث حالتهم وكان رحمه الله من بين أعضائها . كما قررت وضع المبلغ الذى خصص للصرف منه على الطلاب فى بنك مصر تحت يد فضيلته .

وهذه مأثرة من مآثره وحسنة من حسناته وكم له من مآثر وحسنات رحمه الله رحمة واسعة وجزاء عن سعيه فى الخير أعظم الجزاء .

٢ ــ مشيخة كلية أصول الدين سنة ١٩٤٤

أسندت مشيخة كلية أصول الدين إلى الشيخ رحمه الله فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤ وكانت الظروف القائمة وملابسات الأحوال السائدة توحى إذ ذاك بأسناد المناصب الكبيرة فى تلك الجامعة الكبرى لأشخاص عرفوا فى بيئاتهم بسعة الأفق والخلق المتين والحزم والتدبر والسهر على المصلحة العامة .

وكان للشيخ المراغى رحمه الله ثقة مطلقة بالشيخ رحمه الله وتقدير تام لكفايته وإخلاصه فى عمله وقوة خلقه وشدة محافظته على التراث الاسلامى العظيم الذى هو أجل ما ورث الخلف عن السلف .

وكان رحمه الله يعتقد من قرارة نفسه أن الأزهر أمانة غالية فى أعناق المسلمين ووديعة قدسية أودعها الله كنانة فى أرضه ، ومازها به على سائر عواصم الاسلام الزهر وحواضره الغر .

ولقد تقوم جامعات وتزدهر معاهد ومدارس ويعلو منارها ويشمخ بنيانها وتخفق أعلامها ولكن الأزهر سيظل دائما علمها المفرد غير منازع إذ هو رسالة السماء إلى الأرض وينبوع البيان الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولقد كان أول عمل له رحمه الله أنه توجه لزيارة سلفه العظيم المغفور له العلامة الشيخ محمد عبد الفتاح العنانى وتلك العمرى عادة حميدة وسنة من سنين الوفاء درج عليها كثير من العظماء .

وبعد أن أدى رحمه الله واجبه هذا ذهب لمباشرة عمله فى الكلية ولقد قوبل من أساتذة الكلية وطلابها بفيض من السرور فإنهم ما علموا بنبأ قدومه حتى أقبلوا جميعا مهنئين معربين عما تكنه ضمائرهم من تقدير ووفاء .

وقد ألقى فيهم طيب الله ثراه كلمة فياضة شاكراً لهم حسن ظنهم ونبل شعورهم به وقد ختمها بدعوتهم جميعا إلى الإقبال على أداء واجبهم العلمى برغبة وقوة عزيمة وبصرهم بما لهم فى نفوس أبناء الأمة من مكانة مرموقة إن هم أحسنوا أداء رسالتهم وحافظوا على الأمانة وأحلوها من نفوسهم المحل اللائق بها وكان من خلقه رحمه الله أن يكون أول من يحضر لمقر عمله وآخرهم خروجا إلا أن يذهب لحضور إحدى الجلسات التى تدعوه المصلحة لحضورها ولا يخفى ما لهذا الخلق من تأثير عظيم فى نفوس الطلاب والأساتذة .

ولقد سارت الدراسة فى زمنه سيرها الحميد وأقبل الجميع يؤدون واجبهم وانتظم الطلاب فى دروسهم يستمعون إلى أساتذتهم الكرام .

وكان رحمه الله لا يفتأ يبث فى نفوس أبنائه الطلاب حب البحث ويشوقهم إلى

المراجعة والتعمق فى فهم المسائل التى تعرض لهم فى دروسهم وبحوثهم حتى يكون للأمة علماء أمناء على الشريعة الغراء يحيطون بدقائق العلوم تنموا لديهم ملكة البحث العلمى بما لهم من بصـــيرة نافذة وقدم راسخة فى شتى فنون المعرفة الاسلامية .

وكثيراً ما كان يزور الأساتذة وهم يلقون دروسهم فيستمع إليهم ويقف على مبلغ فهم الطلاب وهضمهم لما يسمعون وربما وجه بعض الأسئلة إلى الطلاب وناقشهم فى إجاباتهم وكان دائما يختم زيارته بالنصائح للطلاب بالالتفات إلى شرح أساتذتهم ومطالعة دروسهم قبل حضورهم واحترامهم للأستاذ فإن فى هذا كله الفائدة الكبرى لهم .

ولا يخفى ما لهذا التوجيه العلمى النافع من أعظم الآثار وأجل الفوائد .

ولم تنسه مشاغله الجمة ولا أعماله الكثيرة أن يسعى جاهدا لإعادة الأساتذة الذين كانوا نقلوا من الكلية بسبب النزعات الحزبية وأبعدوا إلى بعض المعاهد النائية فرأى رحمه الله أن لا تحرم الكلية من جهودهم فإن العلم كان ولا يزال حرما آمنا وملاذا وعصمة . ولقد كللت مساعيه الموفقة بالنجاح ورجعوا جميعا إلى الكلية ولسانهم يلهج بالثناء والشكر .

وهناك ظاهرة بارزة فى حياة الفقيد الإدارية فإنه كان يعنى عناية لا حد لها ويهتم اهتماما بالغا بأن ينال كل عامل معه حقه ويظفر بنصيبه من درجات وعلاوات دورية وحجته فى ذلك أن العامل إذا اطمأن إلى وصول حقه إليه وأمن أن يناله غبن أو يحيق به ضرر أو حرمان أقبل على عمله وأحسن أداءه وكان فى ذلك فائدة فى إنجاز الأعمال ، وحسن أدائها ، والإخلاص فى القيام بها .

ولقد ظفرت هيئة التدريس فى كلية أصول الدين وجميع موظفيها فى فترة توليه رياستها بنصيبها فى الدرجات كاملا غير منقوص ، ولم يحرم أحد من حق يرجوه ، أو خير يناله .

وكان لذلك أعظم الوقع فى النفوس ظل مثار الحديث أمداً طويلا مما يسجلها له التاريخ .

٣ ـ مشيخة كلية الشريعة مارس سنة ١٩٤٦ :

كلية الشريعة تعد بحق أعظم كليات الجامعة الأزهرية ، وأجلها خطرا ، وأكثرها أهمية إذ ينتظم فى سلكها العديد الأوفر من طلاب البعوث الاسلامية من مختلف الأقطار ، ويلتحق بها قسم تخصص القضاء الشرعى وأهميته ظاهرة ، وهى التى تخرج للأمة العلماء والأساتذة والمدرسين والقضاة الشرعيين ورجال المحاماة ، كما تضم أكبر مجموعة من الأساتذة والطلاب .

وفى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٦ كان منصب عميد كلية الشريعة شاغراً . فرأى ولاة الأمور لما لهذه الكلية من أهمية توجيه هذا المنصب إلى الشيخ رحمه الله فصدر قرار بنقله من مشيخة كلية أصول الدين إلى مشيخة كلية الشريعة .

ولقد أسفت كلية أصول الدين أساتذة وطلابا لهذا النقل بعد أن أنسوا لأخلاق الشيخ رحمه الله ، ولمسوا مقدار إخلاصه لهم جميعا ، وحرصه الشديد على تحقيق مصلحتهم العامة بكل ما أوتى من قوة .

ولما ذهب إلى إدارة الكلية لجمع أوراقه الخاصة توطئة لاستلام عمله الجديد عميدا لكلية الشريعة أقبل عليه حضرات أصحاب الفضيلة أساتذة الكلية ومن ورائهم كثير من الطلاب ، ودخلوا على مكتبه معربين عن بالغ ألمهم لهذا النقل الذى يترتب عليه حرمانهم من جهوده الصادقة ومساعيه الحميدة لإعلاء شأن كليتهم وإعزازها ورفع المستوى العلمى فيها .

ولقد شكرهم الشيخ العميد رحمه الله على جميل شعورهم ووعدهم أن يكون دائما عند حسن ظنهم وأفهمهم أن مصلحة الأزهر العليا ستظل دائما نصب عينه لا فرق بين كلية وكلية ، ومعهد ومعهد. فالأزهر كله وحدة جامعة ، والعلماء جميعا أمناء على رسالتهم المقدسة التى اضطلع بها أسلافهم الاجلاء ، وقاموا برعايتها خير قيام حتى استحقوا من أبناء الأمة كل ثناء وإعجاب وتقدير .

الشيخ يباشر عمله الجديد :

توجه الشيخ إلى كلية الشريعة لمباشرة مهام منصبه الجديد ، ولما بلغها علم أن الدراسة ليست منتظمة فى فصولها ، لأسباب تتصل بالظروف السياسية التى كانت سائدة إذ ذاك ، وعلم أن نفرا من طلاب الكلية يبلغ عددهم زهاء خمسين طالبا قد



المغفور له فى مكتبه بكلية الشريعة الإسلامية



فصلوا وأن لفيفا من أساتذة الكلية ومراقبيها نقلوا إلى المعاهد الدينية ؛ وأن هذا وذاك قد حمل طلاب الكلية على الانصراف عن الدراسة تضامنا مع أخوانهم المفصولين .

فأدرك فضيلة عميدها الجديد رحمه الله بثاقب بصره أن الأمر جد خطير يحتاج إلى المعالجة بحنكة وسياسة ، وحسن ترفق مع الحيطة والحذر فإن أقل تصرف أو انحراف عن الجادة ربما كانت له عواقب خطيرة لا تبشر بخير ، والأغراض متباينة ، والزعاب مختلفة ، والذين يصطادون فى الماء العكر كثيرون .

ولم يطل به التفكير كثيرا حينما دخل الكلية لأول مرة حتى سأل عن أساتذتها فعلم أنهم يجتمعون جميعا فى حجرتهم الخاصة بهم ، فلم يشأ أن يذهب إلى مكتبه ينتظر قدومهم إليه ولكنه سار من فوره إليهم ، ودخل عليهم الحجرة ؛ وحياهم وصافحهم واحدا واحدا ثم دعاهم إلى زيارته فى مكتبه ليبحث معهم شئون الكلية ، ويتعرف إلى آرائهم فيما يعود على الكلية بالنفع والخير الذى هو رائدهم جميعا .

وهنالك انعقد مؤتمر يضم أساتذة الكلية جميعا وعميدها ، وبينما هم يتبادلون الرأى فى ما يجب أن يعمل للمصلحة العامة إذا بلفيف من الطلاب يستأذن للدخول فأراد الحاجب أن يحول بينهم وبين ما يريدون ولكن الشيخ رحمه الله أمره أن يفتح لهم باب الحجرة فدخلوا أجمعين فسألهم عن شأنهم فشرحوا إليه أمرهم وأنهم قد فصلوا من الدراسة ويخشون ضياع مستقبلهم ، وعلقوا عليه آمالهم فى إعادتهم إلى دروسهم . فوعدهم خيرا ؛ وأكد لهم أنه لا يرتاح له ضمير ؛ ولا يهدأ له بال حتى يعودوا جميعا ؛ وينتظموا فى فصولهم وحتى يعود أساتذتهم المبعدون أيضا لمزاولة أعمالهم فى الكلية ولقد سعى رحمه الله كما هى عادته سعيا حثيثا حتى تم له ما أراد ورجع الطلاب لدروسهم، وعاد الأساتذة أيضا لمباشرة عملهم واطمأن كل فرد إلى عمله

وعمل على إزالة ما فى النفوس من حزازات حتى يشعر الجميع أنهم أسرة واحدة إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وكان لموقفه هذا وقع عظيم فى نفوس الجميع وأخذت الألسنة تتحدث عن إدارته وحنكته وحسن سياسته .

أثر الشيخ فى نهضة الكلية ، واضطراد تقدمها

أمضى الشيخ رحمه الله زهاء عشر سنوات متصلات عميدا لكلية الشريعة كانت مصلحة الكلية فيها شغله الشاغل . وعمله المتواصل ، وسعيه الدؤوب . والأمل المشرق الذى يداعبه فى يقظته ، والحلم الجميل الذى يطربه فى منامه ، والأنشودة التى يلذ له سماعها ، وتطيب له أنغامها .

ولاغرو فلقد كان يرى فى ذلك الخير كل الخير والصلاح كل الصلاح وكان يرى أن فى صلاح أبناء الأزهر صلاح الأمة .

وأن ما أصاب المسلمين من تفكك العرى ، وانفصام الوحدة حتى تداعت عليهم الأمم . واستأثروا بخيرات بلادهم وبركات أرضها وحتى صار لشذاذ الآفاق دويلة هزيلة مزعومة فى قلب العالم الاسلامى ، إنما يرجع إلى ضعف الوازع الاسلامى فى نفوسهم وتقلص ظل الروح الإسلامية عن أفئدتهم .

فكان حريصا الحرص كله على إنماء الروح الإسلامية فى النفوس والقلوب ونشر أسرار الكتاب المجيد وسائر ما جاءت به الشريعة السمحة الغراء بين طبقات الأمة وذلك لا يتيسر الا بأخراج علماء أجلاء ، يخلصون العمل لله ، ويقومون بالدعوة إليه ، ويشرحون للناس أسرار دينهم الحنيف وبذلك تشعر الأمة كلها بوحدتها الكاملة ، وعزتها الشاملة ، وتصبو إلى أن تعود سيرتها الاولى علوا ورقيا ومجدا وتقدما فى أساليب الحياة .

على هذا الاساس الوطيد ، وبهذه الروح الاسلامية المخلصة ساس الشيخ رحمه الله شئون الكلية التى نال شرف عمادتها فكان للطلاب أبا رحيما ، وكان للاساتذة صديقا حميا .

وإنا نسمح لأنفسنا أن نقتبس من كلمة فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ « محمد سامون » وكيل كلية الشريعة التى يراها القارىء منشورة فى غير هذا المكان لأنها تعبر أصدق تعبير عما يلمسه كل شخص عاشر الشيخ رحمه الله واشتغل معه فى العمل وهى شهادة قيمة جليلة لها قيمتها التاريخية والأدبية .

قال حفظه الله : فى حفلة الوداع التى أقامتها هيئة التدريس وطلاب الكلية عند اعتزاله الخدمة بعد مقدمة مناسبة للمقام . (سادتى : كلمة موجزة أقولها ولست

فيها محابيا ولا مجاملا . وإنما هى الحقيقة أقولها بيضاء ناصعة . والله على ما أقول وكيل .

(لقد عاشرنا فضيلته معاشرة . إن قلت معاشرة الأب لأبنائه فقد أكون مقصرا وإن قلت معاشرة الصديق لأصدقائه فقد أكون مقصرا . لأنه كان أبا رحيما فى حنوه وعطفه ، وكان صديقا حميا فى تنزله وتواضعه ومداعبته .

أما عن حبه للعمل فحدث عنه ولا حرج فقد كان يحب العمل للعمل والمصلحة للمصلحة . وقد جاهد فى ذلك جهادا كبيرا . وسعى سعيا مشكورا) .

كما نسمح لأنفسنا أن نقتبس من كلمة فضيلة الأستاذ الشيخ «السباعى الشناوى» المراقب بكلية الشريعة والتى يراها القارىء ضمن الكلمات التى ألقيت فى حفلة التكريم التى نوهنا عنها آنفا . فإنها تصور ما يجيش فى نفس كل من خالطه رحمه الله واشترك معه فى العمل . قال بعــد مقدمة مناسبة المقام (وأخيراً الإدارى الحـازم ساس الأمور ببصيرة نافذة ، وحكمة نادرة ، يختص كل فرد بمـا يناسبه وكل إنسان بما يلائمه حتى كان كل منا يشعر بأنه صفيه ومجتباه ، وحواريه ومصطفاه .

وتلك خلة لا يصل إليها إلا عليم بصير ، مجرب حكيم خبير ، وما رأيت والله شيخاً أجمعت القلوب على محبته ، والألسن على الإشارة بعبقريته وحكمته سوى شخصكم الكريم لأن الصفاء معدنك ، والطهارة منبتك ، والتقوى شعارك والوفاء دثارك وحب الخير سجيتك ، والعفو طبيعتك .

فما أخذت مسيئاً بإساءته ، وقد كافأت المحسن على إحسانه ، بل كنت قوياً فى غير عنف ، ليناً فى غير ضعف ، لم يبطرك المنصب ، ولم يغرك الجاه ، لم تعمل إلا بالله ولله ، وعلى الله توكلك ، ومنه توفيقك ، وهذا سر نجاحك وسبب فلاحك) .

فهاتان الشهادتان القيمتان اللتان لا يبتغى بهما إلا وجه الحق . ولأن الشيخ رحمه الله كان على أبواب اعتزال العمل وكانت الحفلة حفلة وداع لهذه المناسبة — تدلان دلالة صريحة على ما تركه الشيخ رحمه الله فى النفوس من أثر عظيم ، وتقدير كريم ، وعلى مقدار إخلاصه لعمله ، وحبه لأداء واجبــه مهما كلفه ذلك من مشقة ونصب .

مبلغ حبه لأداء واجبه

لا يسعنا قبل أن نختم هذا الموضوع إلا أن نشير فى إيجاز إلى أمور هامة كان لها أعظم الآثار فى حياة الشيخ رحمه الله الإدارية .

الأول — أنه كان حريصا الحرص كله على استتباب النظام فى الكلية، واطراد تقدم الدراسة فيها . فكنت لا تراه يجلس فى مكتبه إلا قليلا ، ثم يكون دائم التنقل من سنة إلى سنة ، ومن فصل إلى آخر ليشرف على سير الدراسة ، ويطمئن على انتظام الطلاب فى فصولهم ، ومباشرة الأساتذة لواجبهم .

الثانى — ما كان يمتاز به من طابع الدقة فى كل عمل يضطلع به أو يعهد إليه القيام به سواء أ كان ذلك العمل علميا أم إداريا فلقد كان يحيط بدقائق عمله إحاطة تامة بحيث لا يخفى عليه منه قليل ولا كثير ، ولا دقيق ولا جليل . فكان يعرف طلاب الكلية معرفة تامة ، ويعرف اتجاهاتهم وميولهم ، ويعرف المجد منهم والخامل والعالم والجاهل ، وحسن الأخلاق وفاسدها وقل مثل ذلك عن معرفته التامة بأحوال الأساتذة فكان يعرف مبلغ عناية كل أستاذ بأداء واجبه ، ومقدار ما يبذله من عناية فى دروسه .

وكان له فى تأليف لجان الامتحان نظرات فاحصة ، فيعرف عن كل لجنة وعن كل عضو فيها ما يخفى مثله على كثير من الروساء . وكان يعالج كل مشكلة أو ملاحظة تطرأ فى وقتها بحنكة ولباقة تجعل الكل مرتاحاً لهذا التصرف الحكيم .

وهكذا كان يعرف كل دقيق وجليل يجرى فى كليته .

الثالث — أنه دافع دفاعا مجيدا ، وبذل غاية جهده فى العناية بأبناء الكلية وخريجيها ، واتصل بولاة الأمور حاثا إياهم على الإنتفاع بهم وإيجاد أعمال تتناسب ومؤهلاتهم ، وقد استجاب له ولاة الأمور ، وقدروا مساعيه ، وأحلوها للعناية اللائقة بها . فازداد بذلك إجلالا فى النفوس ، وإكبارا فى القلوب رحمه الله .

بلوغه سن الإحالة :

قضى رحمه الله حياته كلها فى خدمة الدين والعلم والعلماء وكان فيها إما طالباً يشار إليه بالبنان ، أو أستاذاً تتناقل علمه الركبان فشيخاً لرواق الشوام فعميداً لكلية أصول الدين ، فعميداً لكلية الشريعة ، وعضواً فى لجنة الفتوى .

وهو فى جميع أحواله ذلك الوالد الحنون ، والصديق الوفى الأمين ، والرئيس المحبوب ، والإدارى الكفء الحازم ، والبحاثة الذى لا تغيب عنه شاردة .

وقد أمضى رحمه الله من سنى حياته المباركة فى الأزهر اثنتين وأربعين سنة وشهرين كاملين فى عمــــل متواصل فى التدريس ، ومطالعة الدروس للمتقدمين للامتحان حسبة لله تعالى ولم تقف جهوده على ما تقدم بل تعدته إلى نواحى الإصلاح والتنظيم فانتخب فى لجان عدة فلا تجد لجنة تؤلف للنظر فى مناهج الدراسة ، أو بحث مسائل الأوقاف ، أو وضع لقوانين الأحوال الشخصية ، أو للبحث التشريعى والفقه المقارن ، أو الأبحاث العلمية لجماعة كبار العلماء ، أو بحث الكتب العلمية التى فيها خروج عن قواعد الدين الصحيحة الخ من اللجان العديدة التى يطول بنا الكلام فى تعدادها إلا ويقع عليه الاختيار ، وتهفو إليه القلوب ، وتتطلع إليه الأنظار للانتفاع بخبرته الواسعة ، وآرائه الصائبة . علاوة على الأبحاث الخاصة به فى التأليف وغيره ، وخدمة أبناء المسلمين الذين كانوا يفدون إليه بدون انقطاع من مختلف البلدان والأقطار للاستفتاء والاستفسار منه عن مشكلة شرعية ، أو بحث على للاستعانة فى إخراج الرسائل والمؤلفات لنيل الأجازات الجامعية .

هذه كانت حياته رحمه الله إلى أول ديسمبر سنة ١٩٥٤ ويكون بهذا قد بقى على بلوغه سن التقاعد شهر وبضعة أيام عند ذلك رأى أن يتفرغ لبحوثه العلمية الخاصة بعيداً عن قيود وتكاليف الوظيفة والإدارة .

فطلب من مشيخة الأزهر منحه إجازة عن هذه المدة الباقية ليفسح المجال لولاة الأمور فى اختيار خلف له يقوم بإدارة الكلية . وقد أجيب إلى طلبه وجمع أوراقه الخاصة وغادر الكلية والكل يأسف أشد الأسف على حرمانهم من نصائح عميدهم وإرشاداته .

احتفال كلية الشريعة بوداعه

ما أن علم أساتذة الكلية وطلابها بنبأ اعتزاله رحمه الله العمل حتى علتهم الدهشة إذ كان ذلك الأمر مفاجأة للكثيرين منهم وسرى ذلك النبأ فيهم مسرى الكهرباء واجتمع الطلاب خارج فصولهم وبدت عليهم أمارات الألم والأسى لأنهم حيل بينهم وبين أب رحيم وشيخ كريم خبروا مواقفه الكريمة من أجلهم عن كثب إذ كان حريصا عليهم راعيا لمصالحهم يفرح لفرحهم ويألم لألمهم ويبذل كل مايملك فى سبيل أعزاز كلمتهم ورفع شأنهم حتى يكونوا رجال الغد وحملة الرسالة فى أمم العروبة والإسلام ووقع ذلك النبأ من حضرات الأساتذة والمدرسين موقعا أليما. وقد أجمعت كلمتهم على أقامة حفلة تكريم لشيخهم الذى بادلهم حبا بحب وإخلاصا بإخلاص.

وقد أبدى لهم الشيخ رحمه الله اعتذاره غير مرة حتى لايشغلهم بأمر آخر وراء واجباتهم ومحاضراتهم التى يلقونها على أبنائهم الطلاب، ولكنهم أصروا على رأيهم ولم يزدهم اعتذاره لهم إلا شدة وقوة وتمسكا برأيهم.

وكانت حفلة رائعة تجلى فيها تعلق حضرات الأساتذة والطلاب بشيخهم ومقدار حبهم وتقديرهم له. وقد تداول حضرات الخطباء والشعراء فأضفوا على المحتفى به من صفاتهم وآدابهم ورفاتهم ماهم له أهل.

وقد ألقى رحمه الله فى ختام الحفلة كلمة جامعة شكرهم فيها شكرا جزيلا وأوصاهم بالأزهر وصاة الوداع الأخير وحضهم على أن يكونوا خير خلف لأئمة العلم والدين وهداة الانسانية ممن تفخر الأجيال بذكراهم

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره … هو المسك ماكررته يتضوع

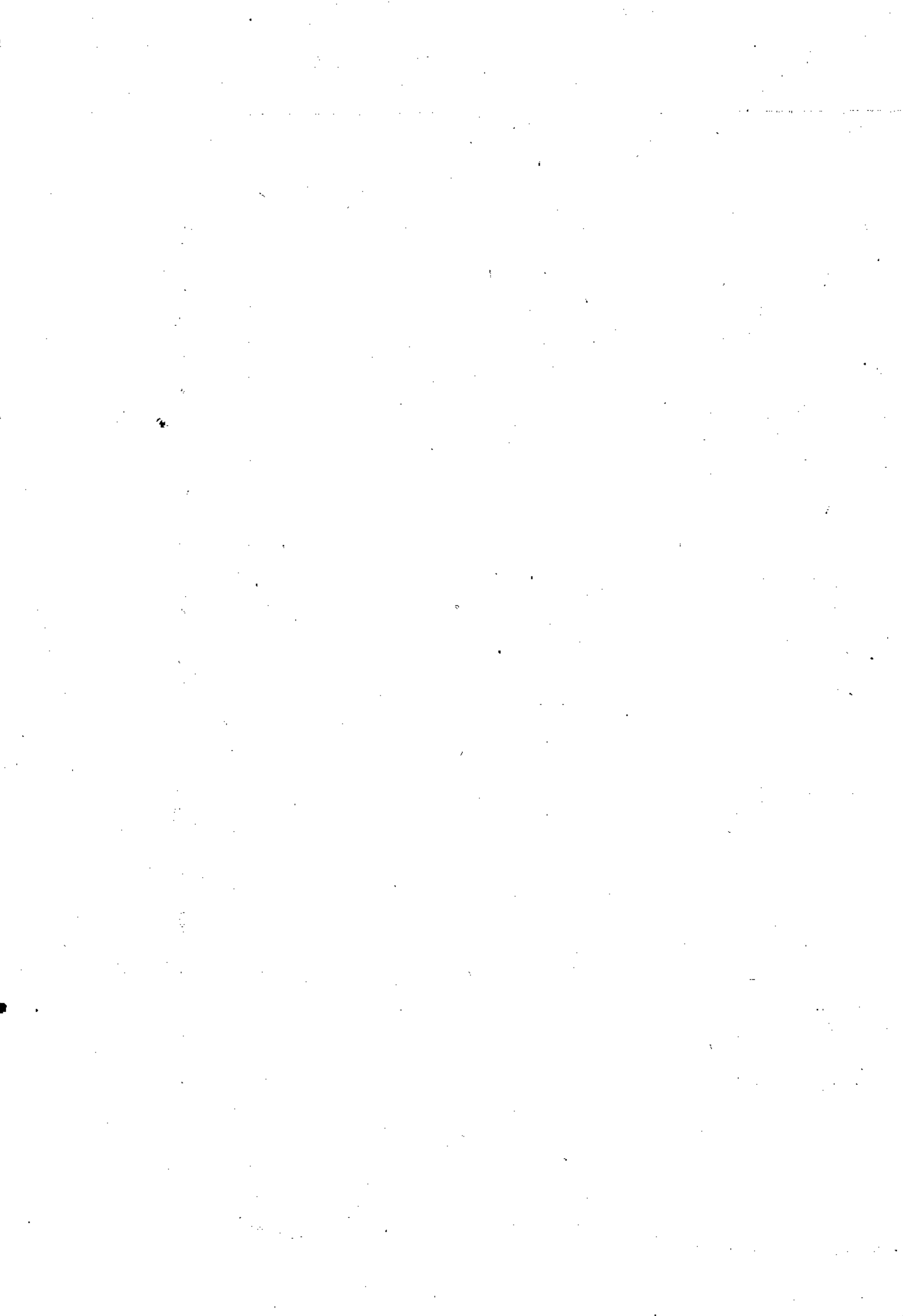
ولم نستطع إثبات جميع كلمات حضراتهم لكثرتها ولورود بعضها متأخرا فاكتفينا بإثبات طائفة منها

ونحن نوجه لحضراتهم جميعا جزيل شكرنا وعظيم تقديرنا والله نسأل أن يجزيهم عنا وعن شيخهم السابق جزاء المحسنين

وفيما يلى كلمات حضراتهم.



المغفور له يتوسط هيئة التدريس بكلية الشريعة الإسلامية فى حفلة التكريم التى أقامتها له الكلية بمناسبة اعتزاله الخدمة



كلمـــة

صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سامون وكيل كلية الشريعة
فى الحفل الذى أقيم بكلية الشريعة تكريما لعميدها فضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عيسى منون بمناسبة إحالته إلى المعاش

إذا احتفلت الهيئات بعظماء رجالها . فذلك من أقدس الواجبات ، وأجل الحقوق . لأن هذا من باب التحدث بالنعمة والشكر عليها ، والتحدث بالنعمة والشكر عليها ، يفرضهما الدين وتوجبهما الملة السمحاء . لذلك تحتفل اليوم كلية الشريعة بتوديع عميدها الجليل فضيلة الشيخ عيسى منون ، احتفالا متواضعا دعت إلى تواضعه الضرورة ، وألجأت إليه المناسبات - ومع هذا فهو وإن كان متواضعا فى ظاهره لكنه يحمل فى باطنه كل مايحمله أعظم احتفال وأبهجه ، وماجعل الظاهر إلا وسيلة للباطن وهم يقولون — إذا تحقق المقصود فلا عبرة بالوسيلة .

سادتى : كلمة موجزة أقولها ولست فيها محابيا ولا مجاملا . وإنما هى الحقيقة أقولها بيضاء ناصعة والله على ما أقول وكيل - لقد عاشرنا فضيلة الشيخ معاشرة إن قلت معاشرة الأب لأبنائه فقد أكون مقصرا ، وإن قلت معاشرة الصديق لأصدقائه فقد أكون مقصرا ، لأنه كان أبا رحيما فى حنوه وعطفه ، وكان صديقا حميما فى تنزله وتواضعه ومداعبته أما عن حبه للعمل فحدث عنه ولا حرج ، فقد كان يحب العمل للعمل ، والمصلحة للمصلحة ، وقد جاهد فى ذلك جهادا كبيرا ، وسعى سعيا مشكورا ، أما علمه فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل .

وليس يصح فى الأذهان شىء   إذا احتاج النهار إلى دليل

فشكرا لك أيها الشيخ الجليل على صنائع المعروف التى أسديتها إلينا وللعلم ، وجزاك الله على حسن صنيعك الجزاء الأوفى ، وأطال فى حياتك التى نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يبارك لك فيها ، والتى نرجوا أن تكرسها على خدمة العلم بتأليف نافع ، وتدريس تبغى به وجه الله لاتريد جزاء ولا شكورا .

فإلى جهودك الجبارة فى تمحيص الحق ، وإلى عزماتك الصادقة فى دفع الشبه ، والله معك ، ولن يترك عملك ،

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

قصيدة

فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبى الخشب فى حفل التكريم الذى أقامته هيئة التدريس بكلية الشريعة لمناسبة اعتزال فضيلة عميدها الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون الخدمة.

حيِّ الحِجا بادياً ، والعلمَ منسكِها ... واذكر له دائما بعضَ الذى وجبا
ولا تُبالِ بقولِ الكاشحينَ فكم ... للفضلِ من حاسدٍ حيرانَ مُضطرِبا
وقل مَقالة إنصافٍ ومعدلةٍ ... للحق لا للهوى ـ ضل الهوى سَبَبا
فتلكَ فينا أياديه محدَّثةٌ ... مَدَى الزمانِ حديثاً يملأُ الكُتُبا
قرأتُها فرأيتُ المجدَ مؤتلقاً ... فقلتُ أبدعَ من سوَّى ومَنْ كتبا

* * *

ومَن كعيسى الذى أحيا الإلهُ به ... مَوْتَى النفوسِ فظلَّتْ تألف الحقبا
له بقلبى مكانٌ لستُ أذكرهُ ... إلا نسيتُ به الألقابَ والرُّتبا
ولا لمستُ له فيما هُنَــا أثرًا ... إلا لمستُ بكفِّ النُّبلَ والحسَبَا
كأنما اللهُ ذو الإعجازِ صوَّرهُ ... وصوَّر المجدَ فى أبرادِه نَسبا
لم يعرفْ العفَّ فى قولٍ ولا عملٍ ... ولم يُسىء الصَّديقِ الحرَّ مُصطَحَبا
ولم يكن لِليالى السوء منتهزًا ... يُغرى بها الفحمَ أو يُغرى بها اللَّهبَا
أرضى الزميل ولم يَجْنِ عوارفَه ... عليه يوماً . ولم يخلُق له الرِّيبَا
وعاشَ ما عاشَ لم يذمُمهُ حافِرُه ... ولم يُعبه من الأيامِ ما ذَهبَا

* * *

شيخى ولستُ أطيلُ المدحَ مُبتعدا ... فى القولِ، أو أرسلُ الأوزانَ مُقتربا
أرضيتَ ربكَ فيما كنتَ تفعلُه ... من واجبٍ .وصنعتَ الخيرَ مُحتسبا
حتى بلغتَ مُنًى هيهاتَ يبلغُها ... سِواك مهما عدا فى السيرِ أو وثبا
ونحن حولكَ وُدٌّ خالصٌ ، وهوى ... محضٌ يدومُ على أيامِنـا عَجبا
باهِ الملوكَ بنا واسخرْ بما ملكوا ... ملكتَ منَّا المنالَ الحلوَ والأدبَا

كلمـــة

صاحب الفضيلة الشيخ السباعى السباعى الشناوى المراقب بكلية الشريعة
فى حفل تكريم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون
شيخ كلية الشريعة بمناسبة إحالته على المعاش

أيها السادة

اعذرونى إذا عقد الأسى لسانى ، واغفروا لى إذا غاض معين بيانى ، فإنما هى ساعة الوداع العصيبة ، وإنما هى مواقفه الرهيبة ، ولقد أصبحت لاأقوى على التعبير، عما يحتويه الضمير ، وصرت لاأستبين الرشد من الغى ، ولاأدرى أأنا ميت أم حى ؟ ، فقد ، كان لى كل شىء ، وكنت له كل شىء ، بادلنى إخلاصا بإخلاص ، وولاء بولاء ، وكان لى أبا رحيما ، وأستاذا كريما ، سقانى كؤوس عطفه ، وأغدق على سحائب بره وماذا عسى أن أقول فى شيخ ملأ ذكره الخافقين ، وذاع صيته فى المشرقين ، تحدث بذكره كل لسان ، وخفق بحبه كل جنان ، ذكر عاطر سعيد ، وتاريخ مشرق مجيد ، فقد كان طالبا يشار إليه بالبنان ، وأستاذا تتناقل علمه الركبان ، علم كالسحاب يهمى فيخصب ، وأخلاق أصفى من النبع تترقرق وتسكب ، لم يختلف فى ذلك إثنان ، ولم يشك فى صحته إنسان ، وأخيرا الإدارى الحازم ، ساس الأمور ببصيرة نافذة ، وحكمة نادرة ، يختص كل فرد بما يناسبه ، وكل إنسان بما يلائمه ، حتى كان كل منا يشعر بأنه صفيه ومجتباه ، وحواريه ومصطفاه . وتلك خلة لايصل إليها إلاعليم بصير ، مجرب حكيم خبير

وما رأيت والله شيخا أجمعت القلوب على محبته ، والألسن على الإشارة بعبقريته وحكمته ، سوى شخصكم الكريم ، لأن الصفاء معدنك ، والطهارة منبتك ، والتقوى شعارك ، والوفاء دثارك ، وحب الخير سجيتك ، والعفو طبيعتك فما أخذت مسيئا بإساءته ، وقد كافأت المحسن على إحسانه ، بل كنت قويا فى غير عنف لينا فى غير ضعف ، لم يبطرك المنصب ، ولم يغرك الجاه ، لم تعمل إلا بالله ولله ، وعلى الله توكلك ، ومنه توفيقك وهذا سر نجاحك ، وسبب فلاحك ، فلا عجب أن رأيت كل قلب بحبك خافقا ، وكل لسان بمدحك ناطقا فشكرا لك أستاذى الجليل

على أياديك البيضاء . ومننك الغراء ، وإن كلية الشريعة وقد أحطتها بهالة وضاءة من الرعاية ، ولففتها بدمقس العناية ، لن تنسى أيامك الجميلة . ولياليك الحسان داعية من أعماق قلبها أن يبقيك الله ذخراً للعلم تذود عن حرماته ، وتدافع عن شبهاته . وأن يديمك موئل السائلين ، وعون الطالبين ، إنه سميع مجيب .

وإليكم قصيدتى من ذوب الإخلاص ، ورقة الإحساس ،

الدهرُ مهما صَفا فى طيه الكدرُ ... وحادثاتُ الليالى كلُّها عِبرُ

والدهرُ إن يسقِ كأسَ الودِّ صافيةً ... يُدر كؤوساً بها للصابِ مدَّخرُ

يا أيها الدهرُ إن تَهتفْ بتفرقةٍ ... فلن تُحجبَكَ أرواحٌ ولا صورُ

محبة فى ربا الإخلاص قد غرست ... فأينعت ودنا فى غُصنها الثمرُ

أرستْ دعائمَها فى القلب ثابتةً ... فلن تزعزِعَها الأنواء والغيرُ

قد كنتَ فينا أباً تبدو بشاشتُه ... وكنتَ غيثاً إذا ما أخلفَ المطرُ

كنتَ الرئيسَ الذى تُخشى بوادرهُ ... مَهابةً ووَقارًا زانَه الكِبرُ

كانت إدارتك الغراء حازمةً ... لارهبةً فى نواحيها ولاخطرُ

فما أخذت مسيئا فى إساءته ... وكم غفرتَ وما للذنبِ مغتفرُ

دهاء عمرٍو تراهُ فى سياستِه ... وحِلمُ أحنفَ فيه ليس يستترُ

فى فقههِ كابنِ إدريس ولا عجبُ ... وفى الأُصولِ له الآراء والفِكرُ

فى كل علم تراه حجة ثبتًا ... من الأوائلِ ممن يبخلُ القدرُ

كان القوىَّ بلاعنفٍ ولا صلفٍ ... واللّينَ السهلَ لا يلوى فيُنتصرُ

إن كانَ للغير آياتٌ بمكرمةٍ ... فإنَّ آيكَ فى تكريمنا سُورُ

جُزيتَ عيسى جزاء المخلصين بما ... قد قدَّموا من هِداياتٍ لها الأثرُ

بَقيتَ للدين تحميهِ وتحرسُهُ ... ودمتَ للعلمِ تُنميهِ فيزدهرُ

كلمة العميد

وما أن انتهى حضرات السادة خطباء الحفل وشعراؤه الكرام من إلقـــاء كلماتهم العذبة التى تفيض إخلاصا وتقديرا — حتى نهض فضيلة المحتفى به وألقى الكلمة التالية شاكرا لهم جميل شعورهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إخوانى وأبنائى : حضرة صاحب الفضــيلة شيخ الكلية بالنيابة وحضرات أصحاب الفضيلة أساتذة الكلية ومراقبيها وحضرات موظفيها ومستخدميها .

لا أستطيع أن أقوم بواجب رد الجميل إليكم . ولا بحق الشكر لكم على هذه الحفاوة العظمى ، والشعور الفياض ، والعواطف النبيلة . فأبتهل إلى الله العلى القدير فى هذا المكان الطاهر الذى ينبعث منه نور الشريعة الغراء ، فيضىء العالم الإسلامى فى جميع الأرجاء . أبتهل إليه سبحانه وتعالى وأسأله أن يجزيكم عنا أحسن الجزاء . وأن يوفقكم لأداء رسالتكم فى خدمة الشريعة ونشر علومها وتعليمها على أتم الوجوه وأكملها وأن ييسر لكم المحافظة على الطريقة المثلى التى تعلمتم عليها والتى امتاز بها الجامع الأزهر مهما تبدلت النظم ، واختلفت القوانين .

أما ما تفضل به خطباؤكم وشعراؤكم ، وما أفاضوا فيه من المدح لشخصى الضعيف فأشكرهم عليه شكرا جزيلا فأنه بيان لما يكنه الجميع من ود خالص ، ومحبة صادقة وأعتذر عما أبدوه وأبدعوه من المبالغة والغلو . فأن الشاعر أو الخطيب لا يعذب كلامه ، ولا يستحسن سماعه . إذا اكتفى ببيان الواقع المعروف ، والحقائق الثابتة المألوفة ، وإنما يعذب كلامه ، ويلذ سماعه ويستحسن فى نظر السامعين إذا سبح فى بحر الخيال والتقط منه دررا ، ونظم منها عقدا وصوره بصورة غير مألوفة للحس وغير معهودة للعقل .

إخوانى الأفاضل

أذكركم فى هـذه المناسبة الكريمة بمكانة الأزهر وعظمته فأن محبته وعظمته

ومكانته قد أخذت على جميع مشاعرى ، وامتزجت بدمى ولحى ، وقد خدمته مدة اثنتين وأربعين سنة وشهرين كاملين لا أذكر أنى طلبت فيها أجازة إلا أجازة هذا الشهر وأخرى قبلها لأداء فريضة الحج أسأل الله تعالى أن يتجاوز عن تقصيرى فيها . وأن يثيبنى عليها تفضلا منه وإحسانا إنه سميع مجيب .

نعم أذكركم بعظمة الأزهر لتجعلوها نصب أعينكم فيزداد حماسكم فى الذب عنه فأن الذب عنه ذب عن الاسلام وعلوم الإسلام .

الجامع الأزهر هو المدرسة الدينية الكبرى ، والجامعة العلمية العظمى ليس له نظير ولا مثيل فى سائر البلاد . خدم كتاب الله الكريم ، وسنة نبيه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وحافظ على الشريعة الإسلامية وعلومها ، وعلى اللغة العربية وفنونها وغيرها من العلوم العقلية والرياضية منذ أكثر من ألف سنة . وهو فى جميع عصوره كالبحر الخضم يموج بالعلماء والطلاب يعلمون ويتعلمون ، وينشرون الدين بين العالم ، ويحرسونه من عبث العابثين وإلحاد الملحدين .

ولم يخل عصر من عصوره من وجود فطاحل من العلماء أتمـوا الدراسات لجميع العلوم وأحاطوا بدقائقها ، ووقفوا على خفاياها ، إليهم المرجع فى حل المشكلات وتبيين المعضلات ومن مزاياه الجليلة أن أبوابه مفتحة لجميع أبناء العالم الإسلامى من جميع الأقطار يفدون إليه ليتفقهوا فى دينهم ، ويندروا قومهم إذا رجعوا إليهم . لذلك لا ترى عالما ولا واعظا ولا قاضيا ولا مفتيا ولا موظفا فى الشئون الدينية فى معظم البلاد الإسلامية فى هذا الزمان وفيما مضى من الأزمان إلا وقد تلقى علومه فى الجامع الأزهر مباشرة أو بالواسطة — فهو غرة فى جبين الدهر ودرة وهاجه فى تاج العزة لمصر ، ومفخرة عظيمة لها تتيه بها على سائر الأقطار الإسلامية وهو مع استظهار القرآن الكريم الميزة الوحيدة التى امتازت بها مصر عن سائر البلاد الإسلامية — لذلك كان محط أنظار العالم الاسلامى وكان من أقوى الأسباب التى هيأت لمصر الزعامة الكبرى لجميع الدول الاسلامية .

هذه كلمات قصـيرة تشير إلى عظمة الأزهر ومكانته ومهما أطلت ، ومهما أفضت فلن أستطيع الوفاء بحقه بتصويره على ماهو عليه . وإن أردتم الوقوف على حقيقة الأزهر بعلم اليقين فسيحوا فى الأرض وجوبوا البلاد الإسلامية وغيرها تروا بأعينكم ، وتسمعوا بآذانكم ما لا يخطر على بالكم من عظمة الأزهر ومكانته .

إخوانى الأفاضل

بحق الأقدمية عليكم أستبيح لنفسى أن أوصيكم بالتآلف والتكاتف على رفعة شأن الأزهر ، والمحافظة على مجده . ذلك بدوام القيام بما عهدته فيكم من بذل الوسع فى التعليم والتثقيف لأبنائكم الطلبة بالطريقة التى امتاز بها الأزهر من تربية الملكات العلمية والإحاطة بمهمات قواعد الفنون ، والتدريب على تطبيقها ، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم والسبيل الوحيد لتعلمهم التعلم الصحيح ، ولوصولهم إلى المطلوب الذى تستمر معه سلسلة العلم على وجهها الذى بيناه . وتنبيههم إلى التحلى بالأخلاق الفاضلة والسير على طريق الاستقامة فإن ذلك من أعظم أسباب الفتوح وأهم سبب لتسهيل وصولهم لجنى ثمرة أعمالهم ، وتعريفهم أن صغيرتهم فى نظر غيرهم كبيرة ، وأن وقوعهم فى الشبهات يعتبر فى نظر العامة انحرافا عن الاستقامة على وجه الحقيقة .

كما أنى أستبيح لنفسى إسداء النصح لحضراتكم بدوام الاستذكار لما تعلمتم من أنواع الفنون ، وعدم الإكتفاء بما يمهد إليكم من الدروس ليتكون منكم ومن أمثالكم الطبقة العليا فى الأزهر التى يكون إليها المرجع فى حل المشكلات ، ودفع الشبهات وتفهيم دقائق العلوم وتبيين معضلاتها . وفقكم الله لما يحبه الله ويرضاه .

إخوانى الأفاضل :

إن أسفى الشديد وحزنى البالغ لبعدى عن خدمتكم قد غطاه وغمره بل أزاله بالكلية سرورى العظيم باختيار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر لمشيخة الكلية مؤقتاً ونرجو أن تكون دائمة . أخى الفاضل وساعدى الأيمن فى إدارة الكلية حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ « محمد على السايس » عضو جماعة كبار العلماء والعضو عن الكلية فى مجلس الأزهر الأعلى .

ولست فى حاجة لبيان علمه وفضله ، وسمو خلقه ، وحسن إدارته فإن كل ذلك معلوم لديكم ، ولدى غيركم ممن عرفه وشاركه فى العمل . فرجائى منكم بل أملى فيكم أن تلتفوا حوله ، وتكونوا أعواناً له فى كل ما يعود على الكلية والأزهر بالرقى والاستقرار ، وستجدون منه إن شاء الله صدراً رحباً ، وقبولا

حسناً لكل ما يلق إليه من المشورة الصحيحة ، والتوجيه المفيد . وفقه الله تعالى لأن يقوم بشئون الكلية خير قيام إنه سميع مجيب .

إخوانى الأفضل :

فى الختام أرجوكم أن تجعلونى فى حل مما قد يكون صدر منى من الخطأ أو التقصير فى حق واحد منكم أثناء إقامتى بين أظهركم . فإن الإنسان محل الخطأ والنسيان كما أنى أعلنكم أنى جعلت فى حل كل واحد منكم حصل منه شىء ما فى حق فى الغيبة أو الحضور فى السر أو العلن وسامحته مسامحة تامة وأنى أشهد الله على ذلك .

وهذا بالنسبة إلى من باب الاحتياط وإلا فالواقع أنه ليس فى اعتقادى ولا فى ذهنى أن أحداً منكم صدر منه شىء ما فى حق لا فى الغيبة ولا فى الحضور . وإنما الثابت عندى وفى اعتقادى وضميرى أنكم جميعاً أساتذة ومراقبين وموظفين كنتم معى تقومون بعملكم خير قيام مع الإخلاص للمصلحة ، والمحبة الصادقة لشخصى .

وهذه الميزة هى التى خرجت من الكلية بها ، وهى دائماً ماثلة أمام عينى أنظر إليها فيمتلىء قلبى سروراً وأحمد الله تعالى على هذه النعمة العظمى . والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

الأزهر لا يستغنى عن جهوده :

لم يمض على اعتزاله رحمه الله أيام معدودات حتى ورد إليه كتاب من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر يدعوه فيه إلى مواصلة عمله فى لجنة الفتوى بالأزهر ويعرب فيه عن أمله فى أن لا يحرم الأزهر من جهوده وبحوثه العلمية لتظل صلته بالأزهر متصلة الحلقات ، ونتائج جهوده صادقة المقدمات : فكان عند حسن الظن به ، وما زال يشارك فى أعمال اللجنة ويوالى حضور جلساتها إلى آخر أيام حياته رحمه الله .

وهذا نص خطاب الأستاذ الأكبر للشيخ رحمه الله عقب إحالته إلى التقاعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

أما بعد فإنه يسر الأزهر أن يدوم اتصالكم به ، وألا تنقطع عنه جهودكم فى الدرس والبحث ولا سيما فى لجنة الفتوى التى تعرف لكم الدقة وسعة الإطلاع الأمر الذى هو أساس الإجادة فى الإفتاء .

فإن كانت ظروفكم تسمح بمواصلة العمل فى لجنة الفتوى. فإنى أكون لكم شاكرا .

وأدعو الله أن يديم لكم نعمة العافية والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟ — شيخ الجامع الأزهر

٤ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٥ — إمضاء

١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥٥

لجنة الحديث :

وكان من الفأل الحسن ، وبشارة القبول أن يكون آخر حياته معنيا بالاشتغال بخدمة السنة النبوية ، ومطالعة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وأداء ما فرض الله على العلماء من بيانه للناس . إذ اختير رئيساً للجنة الحديث التى ألفت لمراجعة كتاب الجمع بين الصحيحين ، الذى اهتمت مشيخة الأزهر بإخراجه خدمة للسنة الكريمة ، وألفت لذلك لجنة قامت بهذا العمل الجليل خير قيام — ولما أتمت مهمتها قدمت أصول هذا المشروع للمشيخة فرأت المشيخة تقديمه إلى المجلس الأعلى للأزهر ، الذى رأى تأليف لجنة لبحثه ومراجعته مراجعة دقيقة حتى يكون هذا العمل الشريف بالغ الكمال ؛ لما للسنة من المنزلة الهامة فى التشريع الإسلامى .

وكانت تلك اللجنة برياسة المغفور له الشيخ عيسى منون وعضوية أصحاب الفضيلة الشيخ محمد أحمدين ، الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين والشيخ طه الساكت المفتش بالأزهر ، والشيخ محمد عبدالوهاب بحيرى المدرس بكلية الشريعة .

وقد ظل يعمل فى هذه اللجنة بهمة ، ومضاء عزيمة حتى وافاه الأجل المحتوم .

أثره فى المحيط العلمى

١ ـ عنايته بطبع ونشر كتاب المجموع للإمام النووى

كتاب المجموع للأمام النووى الحافظ الورع المجمع على علمه وورعه وديانته.

وهذا الكتاب لم يؤلف نظيره فى دواوين الإسلام العظام ، وفى ذلك يقول مؤلفه فى آخر خطبته ص٦ من الجزء الأول :

واعلم أن هذا الكتاب وإن سميته شرح المهذب ـ فهو شرح المذهب كله ، بل لمذاهب العلماء كلهم ، وللحديث وجمل من اللغة والتاريخ والأسماء .

وهو أصل عظيم فى معرفة صحيح الحديث وحسنه وضعيفه ، وبيان علله والجمع بين الأحاديث المتعارضة ، وتأويل الخفيات واستنباط المهمات

ولقد ظل هذا الكتاب الجليل القدر ، العظيم النفع كنزا مخفيا وسرآ مطويا آمادا طوالا حتى قيض الله له والدنا وشيخنا رحمه الله فكشف عن محاسنه النقاب، وأطلعه طلوع الشمس ليس دونها حجاب .

لقد حدثنا رحمه الله ، وطيب ثراه أنه كان يجلس ذات يوم عند أحد باعة الكتب فمر عليه بائع متجول يحمل كراسات مخطوطة لايدرى أولها من آخرها فأخذها منه ، وأنعم فيها نظره فراعه ما اشتملت عليه من علم غزير وبيان ساحر وعبارات سهلة يلذ وقعها ، ويطيب على الآذان سمعها ، فنقد البائع ثمنها ، ورجع بها إلى منزله فرحا مسرورا وكأنه ظفر بكنز عظيم . وما زال يتقصى أمرها ، ويتقرى خبرها حتى علم أنها قطعة من كتاب المجموع للأمام النووى ومن أوائل (كتاب الزكاة) فوجه عنايته إليها ونسخها بخطه الجميل فجاءت مجلدا عظيما .

ولقد فرح بها رحمه الله فرح الغريب بأوبته من غربته ، وأخذ يعرضها على كبار العلماء وأجلتهم ويحضهم على طبع الكتاب ليعم نفعه بإسماعه لهم بعض عباراته حتى

شرح الله بذلك صدورهم ، واتفقت آراؤهم على أنه كتاب عظيم الشأن وهو خليق أن يطبع لينشر فى الآفاق .

ولقد رؤى لتمام النفع أن يطبع معه كتابان جليلان : هما الشرح الكبير المسمى فتح العزيز شرح الوجيز ، للامام الرافعى ، وتلخيص الحبـــير فى تخريج أحاديث الشرح الكبير .

واتفقت كلمتهم وأجمعوا على طبعه فى أول يونيو سنة ١٩٢٥ حينما رأى حضرات الشيوخ من العلماء أن هذين الكتابين فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه ليس لهما نظير فى الكتب المتداولة فى المذهب خصوصا كتاب المجموع الذى يكاد يكون فذا فى بابه فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه بل وفى بقية المذاهب وصح عزمهم على تأليف لجنة برياسة المغفور له صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ محمود الدينارى شيخ القسم العالى إذ ذاك وكان والدنا رحمه الله عضوا فيها .

ولقد أبلوا بلاء حسنا ، وأظهروا مجهودا جباراً فى طبعه وجمـــع شتاته من مختلف الأقطار والمكتبات .

وقد صادفت اللجنة عناء شديدا فى مراجعة الأصول التى تطبع عليها لاختلاف النسخ وضياع بعض فقراتها ولم تجد من يقوم بهذه المهمة الشاقة لتصحيحها ومراجعتها إلا الشيخ رحمه الله فقد عهدت له بهذه المهمة فلم يأل جهداً فى مراجعة التصحيح على ما هو موجود من الأصول الخطية والرجوع إلى المظان فى الكتب الأخرى من الفقه والحديث واللغة حتى خرج الكتاب كأروع ما يكون بعد أن كان كنزا مدفونا .

٢ ـ إكمال تأليف المجموع

بعد أن تم طبع الأجزاء الموجودة من كتاب المجموع رأى رحمه الله أن هذا الكتاب عظيم الشأن ومنزلته فى الفقه الإسلامى عامة وفقه الإمام الشافعى خاصة لا يدانيه فيها مدان فهو مرجع حافل من مراجع الشريعة وقد توفى الإمام النووى رحمه الله قبل إتمامه فإنه أخرج تسعة أسفار ضخام تعليقا على شرح المهذب وبلغ إلى أوائل باب الربا ووافته منيته .

ولقد شرح الله صدر الإمام العظيم المجتهد الحجة الثبت التقى السبكى والد الإمام عبد الوهاب السبكى صاحب جمع الجوامع الكتاب الأصولى العظيم الشأن لإتمامه فكتب فيه إلى كتاب التفليس من مباحث المعاملات ووافته منيته أيضا رحمه الله.

ونظرا لجلالة قدر الكتاب، وسعة مباحثه، وشموله التام لآراء الأئمة، ومذاهبهم وأدلتهم وحججهم، اهتم الشيخ رحمه الله بإكماله.

فرأى أن يبدأ عمله من أول كتاب النكاح لأهمية مباحث الأحوال الشخصية وحاجة أهل العصر إلى تدوينها، وبيان آراء العلماء فيها ومذاهبهم ومدارك اختياراتهم وترجيحاتهم على أن يرجع إلى ماوقف عنده الامام السبكى فيوصله بالذى كتبه. وقد انجز من هذا العمل العظيم نحوا من مائة كراس من القطع الكبير والكراس الواحد منها يقع فى أربعين صفحة.

وكان رحمه الله يألم ويحزن كلما حالت الشواغل بينه وبين التفرغ لهذا الجهاد العلمى الأكبر وكم كان سروره عظيما حينما اعتزل الخدمة لأجل أن يتفرغ لإتمام مؤلفه العظيم الذى ظل مشغولا به أعواما طوالا وكانت قيود الوظيفة، وشواغلها تمنعه عن التفرغ لإنجازه.

ولكن إرادة الله لابد من نفاذها فقد حم القضاء وعاجلته منيته وهو متحفز لإتمام هذا المشروع الجليل.

أما طريقته فى البحث وسعة الاطلاع وجمعه فأنا نشهد أنه لو تم على ما كان يبغى الشيخ رحمه الله ويريد — لحق لنا أن نفخر بأن أيامنا هذه قد وجد فيها علماء يسامون أوليهم، ويبارونهم، ويقفون منهم موقف الند للند والنظير للنظير والأمل عظيم أن يتاح لنا إخراج ذلك ليتم به النفع والله ولى التوفيق.

تلامذته:

درس رحمه الله فى جميع المراحل التعليمية فى الأزهر وكان معظم سنى تدريسه فى القسم العالى وأقسام التخصص، وكان فى كل مرحلة من هذه المراحل المباركة يتخرج على يديه نخبة صالحة من علماء الأزهر وأساتذته ومدرسيه وناشرى علومه هم اليوم رجال عاملون، وعلماء نابهون من مختلف الأقطار الاسلامية يؤدون رسالتهم، وينفع الله بهم أنحاء العالمين الاسلامى والعربى ومنهم من تقلد مناصب الافتاء، ورياسة المحاكم الشرعية، ومنهم من تسنموا ذروة الوزارة فى أوطانهم.

(حكم ما إذا اتحد الولي والخاطب وتولي طرفي العقد)

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وإن كان ولي المرأة ممن يجوز أن يتزوجها كابن العم والمولى المعتق لم يجز أن يزوجها من نفسه فيكون موجبا وقابلا، لأنه يملك الإيجاب بالإذن فلم يجز أن يتولى طرفي العقد كالوكيل في البيع. فإن أراد أن يتزوجها فإن كان هناك من يشاركه في الولاية زوجها منه، وإن لم يكن من يشاركه في الولاية زوجها الحاكم منه. وإن أراد الإمام أن يتزوج امرأة لا ولي لها غيره ففيه وجهان: أحدهما أنه يزوجها من نفسه لأنه إذا زوجها غيره كان فيه وكيله، والوكيل قائم مقامه فكان إيجابه كإيجابه. والثاني يرفع إلى الحاكم ليزوجها منه لأن الحاكم يزوج بولاية الحكم فيصير كالولي يزوجها من ولي. ويخالف الوكيل لأنه يزوج بالوكالة ولهذا ينعزل بعزله إذا شاء، ولا ينعزل الحاكم من غير سبب. وإذا مات انعزل الوكيل ولا ينعزل الحاكم.

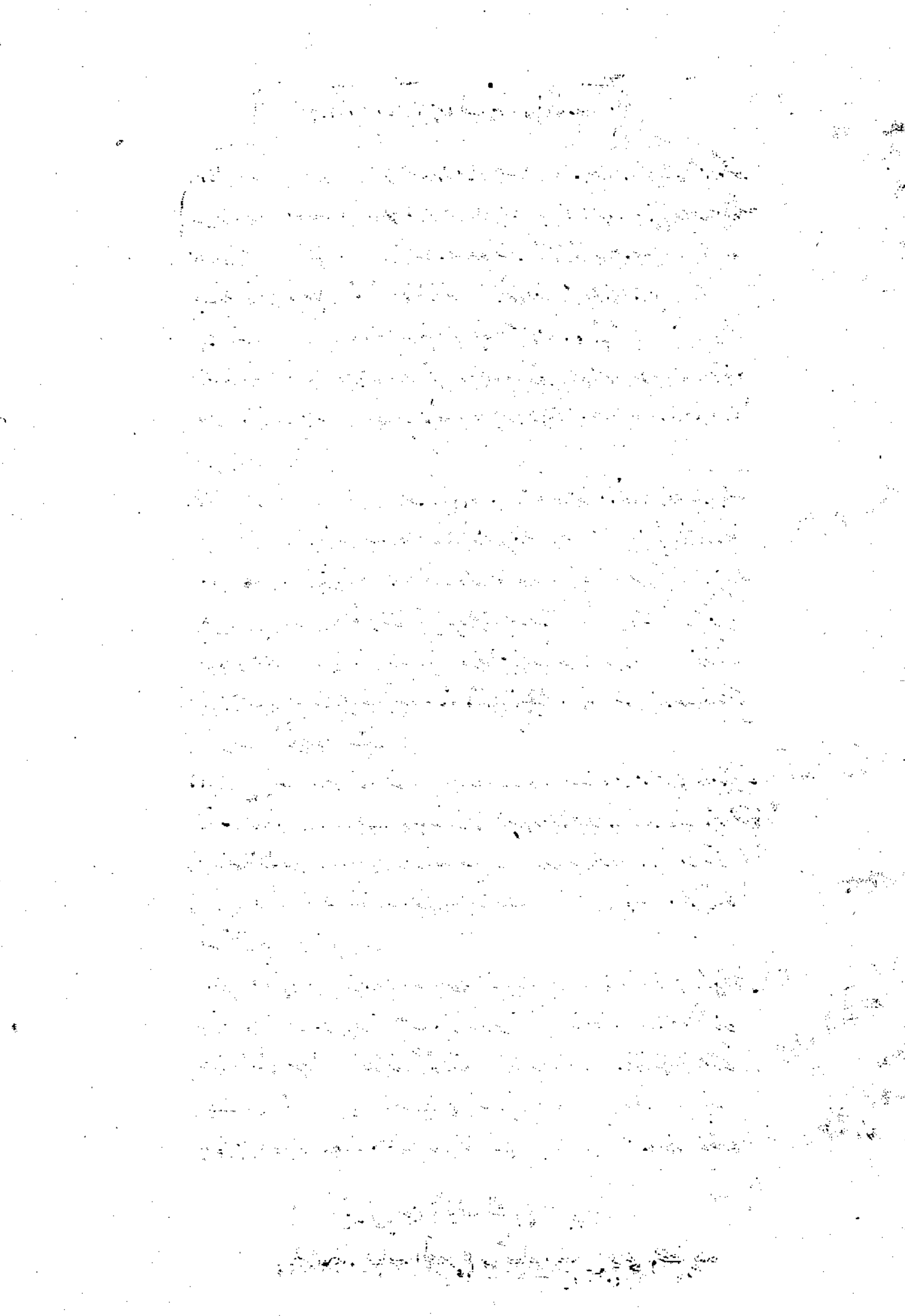
وإن كان لرجل ابن ابن وبنت ابن وهما صغيران فزوج بنت ابنه بابن ابنه ففيه وجهان: أحدهما لا يجوز وهو قول أبي العباس ابن القاص، لما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كل نكاح لم يحضره أربعة فهو سفاح: خاطب وولي وشاهدان. والثاني وهو قول أبي بكر [illegible] أنه يجوز كما يجوز أن يتولى طرفي العقد في بيع ماله من ابنه، فعلى هذا يحتاج أن يقول: زوجت بنت ابني بابن ابني. وهل يحتاج إلى القبول؟ فيه وجهان: أحدهما يحتاج إلى القبول وهو أن يقول بعد الإيجاب: قبلت نكاحها، وهو قول أبي بكر [illegible] لأنه يتولى ذلك بولايتين فقام مقام اثنين. والثاني لا يحتاج إلى القبول وهو قول أبي بكر القفال لأنه قام مقام اثنين فقام لفظه مقام لفظين)

(الشرح) حديث عائشة رضي الله عنها لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث ولا في كتب التخريج. وقال الحافظ في تلخيص الحبير إنه غريب بهذا اللفظ، [illegible] صاحب المحيط شرح الوسيط [illegible] كما ذكر في [illegible] في [illegible] الدارقطني والبيهقي. والذي أخرجه الدارقطني في سننه عن عائشة ليس بهذا اللفظ، وإنما هو بلفظ: لا بد في النكاح من أربعة: الولي والزوج والشاهدان. وفي سنده [illegible] قال الدارقطني مجهول [illegible].

وأخرج البيهقي في الخلافيات عن المغيرة بن موسى عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة مرفوعا: لا نكاح إلا بولي وخاطب وشاهدي عدل. ثم قال: قال ابن عدي: المغيرة بن موسى في نفسه ثقة. وقال [illegible] والمغيرة بن موسى البصري قال البخاري: منكر الحديث. وأخرج البيهقي في الخلافيات موقوفا على ابن عباس [illegible]: لا بد في النكاح من أربعة: الذي يزوج والذي يتزوج وشاهدان. [illegible] الكلام للحافظ [illegible] في الخلافيات، وقد [illegible] ابن [illegible] عن ابن عباس مرفوعا: لا نكاح

نموذج من تأليف الشيخ رحمه الله

في تكملة كتاب المجموع في كتاب النكاح وهي بخط يده



فكانوا مثلا عالياً لما يستطيع الأزهر أن يخرجه من رجال علـم ، وإدارة وسياسة تفخر بهم الأيام ، وتتحدث عنهم صحائف التاريخ الوضاءة ، وأخباره السيارة .

ولا يتسع المقام لذكر أسمائهم فهم بحمد الله كثيرون لايقعون تحت حصر وشهرتهم أجل من أن تخفى . ونحن نذكر منهم على سبيل المثال .

أصحاب الفضيلة والسيادة الشيخ عبد الله المراغى مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف سابقا ومفتش بالمعاهد الدينية ، والشيخ عبد المجيد القمرى شيخ معهد سوهاج . والشيخ عبد الحميد السايح رئيس محكمة الاستئناف بالقدس ؛ والشيخ عبد الله غوشة رئيس جمعية العلماء بالمملكة الأردنية الهاشمية ؛ والدكتور محمود حب الله أستاذ مساعد بكلية أصول الدين، والشيخ يوسف عبدالرزاق أستاذ مساعد بكلية أصول الدين، والشيخ مصطفى مجاهد أستاذ مساعد بكلية الشريعة، والشيخ عبد الحكم عمارة أستاذ مساعد بكلية الشريعة ، والشيخ محمد داود البيهى أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية ، والشيخ محمد مبارك مدير جامعة أم درمان بالسودان ، والشيخ مصطفى عبد الخالق أستاذ مساعد بكلية الشريعة والشيخ دسوقى الملاح مفتش بالمعاهد الدينية، والشيخ محمد شمس الدين مدرس بكلية أصول الدين ؛ والدكتور سليمان دنيا مدرس بكلية أصول الدين ؛ والدكتور محمد بيصار رئيس المكتب الثقافى بنيويورك ؛ والشيخ محمود قنديل مدرس بالمعاهد ، والشيخ عيسوى الشاذلى مدرس بالمعاهد والشيخ محمد رامز مسمار رئيس محكمة الاستئناف بغزة ؛ والشيخ مصطفى السباعى رئيس كلية الشريعة بدمشق ؛ والشيخ أحمـد الماوى مدرس بالأزهر والدكتور إبراهيم جمال الدين أستاذ علم النفس بكلية أصول الدين .

٣ — مؤلفاته :

لقد أخرج الشيخ رحمه الله كثيرا من المؤلفات النفيسة ما بين مطول ومختصر ونحن نشير إلى أهمها إجمالا .

١ — نبراس العقول فى تحقيق القياس عنـد علماء الأصول وهو الكتاب العظيم الذى سار مسير الأمثال وأقبل عليه العلماء والطلاب إقبالا منقطع النظير .

٢ — تكملة المجموع شرح المهذب وهذا الكتاب لو تم لكان من أوسع

المراجع الفقهية العظيمة وكل بحث فيه يصلح أن يكون كتاباً مستقلا . يتناول فيه كل شاردة وواردة ومهما حاولنا وصف هذا الكتاب فإنا نشعر بالعجز عن إيفائه حق الثناء .

٣ — رسالة فى مناسك الحج ، وهى جامعة وافية لجميع ما يطلب فى الحج .

٤ — محاضرات فى التوحيد ، وأصول الفقه وهى متصلة الموضوعات وكل محاضرة يصح أن يكون بحثا مستقلا .

٥ — رسالة قيمة فى الرد على القائلين بجواز ترجمة القرآن .

٦ — رسالة فى الرد على من يدعون الاجتهاد فى هذا الزمان .

٧ — رسالة فى حكم قتل المرتد .

محاضراته :

وكان رحمه الله يشترك مع جماعة كبار العلماء فى إذاعة محاضرات دينية فى شهر رمضان المبارك تذاع على العالم الاسلامى يتناول فيها تفسير بعض أى الذكر الحكيم ويشير إلى كثير من أسرار الشريعة السمحة الغراء ونحن نثبت محاضرة منها هنا وهذا نصها .

بسم الله الرحمن الرحيم

قالَ اللهُ تعالى وهو أصدقُ القائلين :

(والذين تبوَّءوا الدار والإيمانَ من قبلهم يحبونَ من هاجر إليهمْ وَلا يجدُونَ فى صُدُورهمْ حاجةً مما أوتوا ويُؤثرونَ على أنفسهم ولو كان بهمْ خصاصة ، ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك همُ المفلحون . والذينَ جاءوا مِن بعدِهمْ يقولون ربنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ فى قُلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربَّنا إنك رءوف رحيم) الآيتان ٩ و ١٠ من سورة الحشر .

بين الله تعالى فى الآية السابقة(١) فضـــل المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وأموالهم وتحملوا الضيق والتغريب حباً فى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومحافظة على دينهم واستنصاراً له . وبين تعالى فى هذه الآية(٢) فضل الأنصار ، وأثنى عليهم ومدحهم بثلاث خصال حميدة . محبتهم للمهاجرين ، وطيب أنفسهم ، ورضاهم بما خصهم النبي صلى الله عليه وسلم به ، وإيثارهم غيرهم على أنفسهم مع الحاجة .

وقد ذكرهم الله تعالى بصفتين هما مصدر هـــذه الخصال الحميدة ومنبع تلك الفضائل الجليلة ، فقال جل شأنه : (والذين تبوءوا الدار والإيمان مِنْ قبلهمْ)

ومعنى تبوءوا الدار ؛ اتخذوها منزلا واستقروا فيها . وليس القصد الإفادة بأنهم سكنوا « الدار » أى المدينة ؟ بل المعنى المقصود أنهم اتخذوها منزلا إسلامياً بإسلامهم بعد أن كانت دار كفر ، فعصموها وحفظوها بالإسلام من قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، فكأنهم استحدثوا بناءها .

ومعنى تبوءوا الإيمان : أنهم تمكنوا فيه كتمكنهم فى الدار ، مبالغة فى تمكن الإيمان فيهم لقوته فى قلوبهم ، ورسوخه فى نفوسهم ، ولاريب أن من شأن من اتصف بهاتين الصفتين أن يتحلى بتلك الخصال التى أثنى الله تعالى على الأنصار بها .

وقوله تعالى (من قبلهم) أى قبل المهاجرين . أما تبوء الدار قبل المهاجرين فواضح . وأما تبوء الإيمان قبلهم فذلك من ناحية إقامة جميع حقوقه التى من جملتها إظهار شعائره وأحكامه . ولاريب فى تقدم الأنصار على المهاجرين فى ذلك لظهور عجز المهاجرين عن إظهار بعضها . وليس المعنى أنهم تقـــدموا عليهم من جهة الإخلاص القلبي ، والاعتقاد اليقيني ، لما هو معلوم من أن بعض المهاجرين أسبق إيماناً من جميع الأنصار .

ثم قال تعالى : (يُحبونَ مَنْ هاجرَ إليهمْ) . وهى الخصلة الأولى . والحب . هو ميـــل الطبع إلى الشيء الذى تستلذ به النفس وهو تابع للإدراك

---

(١) يشير فضيلته إلى الآية السابقة على الآيتين المذكورتين هنا . وهى تحرم الأنصار من بعض الفىء لاستغنائهم عنه ، وتعطيه (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله .

(٢) يريد الآية الاولى من الآيتين المذكورتين هنا

والمعرفة . ومن أسبابه اتصاف المحبوب بصفات حسنة ، أو صدور أفعال مرضية عنه ، فإن كانت مما يرضاها الله تعالى كان الحب فى الله ، والمتحابون فى الله لهم عند الله مقام كبير ، فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى؟ ، أليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل إلا ظلى » . وأخرج الترمذى عن معاذ رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » .

والمهاجرون هجروا وطنهم وتركوا مافيه من أموال وممتلكات وقصدوا الالتجاء إلى الأنصار حفظاً لدينهم واستنصاراً له . ولاريب أنها حالة تستدعى المحبة ، وتدعو إلى الشفقة والعطف والمواساة . كما أن محبتهم ومايتبعها من إعانتهم وسد عوزهم ومواساتهم خصلة حميدة ، ومنقبة جليلة ، وخلق إنسانى عظيم، لا توجد إلا عن امتلأ قلبه بالإيمان ، وتخلق بأفضل مايتحلى به إنسان ، ذلك لأنها تفريج عن مكروب ، وإغاثة ملهوف ، وإعانة محتاج ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » . الحديث .

والله سبحانه وتعالى أثنى على الأنصار بأنهم يحبون المهاجرين إليهم محبة تتجدد وتستمر آثارها ؛ فإنهم أحسنوا إليهم، وأشركوهم فى أموالهم وأسكنوهم فى مساكنهم ، فتوطدت بينهم الألفة ، وتحققت فيهم الأخوة ، حتى كانوا بهذا الاتحاد الروحى أعظم قوة . ولما شرفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بهجرته كانوا جميعاً يداً واحدة، وكانوا أنصاراً له على أعداء الدين ، فهزموا الأحزاب ، وفتحوا البلاد ، ودك فيها صرح الشرك وشمخ فيها طود الإيمان ، حتى تحقق أنه لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان .

ويستفاد من ذلك بوضوح أن إعانة اللاجئين المهاجرين من بلادهم من العجزة والنساء والصبيان الذين أضطرهم عدو الدين والإنسانية إلى ترك بلادهم وما فيها من أموال وممتلكات والعمل على راحتهم هو من الفضائل العظيمة والأعمال الجليلة

التى يحبها الله ويرضى عنها ، والتى أعد لفاعلها الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة ، على أن تكون تلك الإعانة عن محبة وإخلاص ، وشفقة وحنان ، ومواساة كاملة، كما وقع من الأنصار للمهاجرين الأولين فاستحقوا المدح والثناء من الله تعالى فى كتابه العزيز . ولاشك أن من أثنى عليه تعالى راضياً عنه ويكون لديه من المقربين الذين أعد لهم النعيم المقيم

ثم قال تعالى. (ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) . وهى الخصلة الثانية. أى لايجدون فى نفوسهم شيئا محتاجاً إليه ومايتبع ذلك من حسد أو غيظ أوحزازة. والحزازة مرض فى القلب يعبر به عما يضمر الإنسان من الغيظ والعداوة . وقوله تعالى. (مما أوتوا) . أى مما أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم المهاجرين ،وخصهم به من الفىء الذى غنمه من بنى النضير . وبنوا النضير . قبيلة كبيرة من اليهود نزحوا إلى بلاد العرب واستوطنوا عوالى المدينة من ناحية «قباء» كان بينهم وبين المسلمين حلف يقضى بالتعاون على دفع الدية الواجبة على أحد الفريقين دية قتيلين قتلهما بعضهم خطأ خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه إلى بنى النضير يطلب منهم ما يخصهم فى ديه القتيلين على مايقتضيه الحلف ، فقابلوه بالترحاب ووعدوه بإجابة الطلب . ثم تخلوا عنه وتشاوروا فى أمره وقرروا الغدر به على ما تقتضيه طباعهم ، وما جبلوا عليه من خيانة ونكث للعهود ، وتمالؤا على قتله ، واتفقوا على أن يصعد أحدهم على ظهر بيت ويلقى عليه صخرة . وكان صلى الله عليه وسلم جالساً بجوار بيت من بيوتهم ، فأخبره الله تعالى وحياً بخيانة اليهود ونقضهم العهد وما دبروه له صلى الله عليه وسلم ، فقام عليه الصلاة والسلام مظهراً أنه يقضى حاجة، ورجع إلى المدينة . ولما استبطأه أصحابه تبعوه ،فأخبرهم بغدر اليهود وما دبروه . ثم أرسل إليهم رسولا يقول لهم اخرجوا من بلادى فقد هممتم بما هممتم به وقد أجلتكم عشراً. ولما تهيئوا للخروج بعث إليهم المنافقون وطلبوا منهم ألا يخرجوا ووعدوهم بأن ينصروهم ، فطمعوا فى ذلك وتباطئوا ، فتوجه النبى صلى الله عليه وسلم فى جيش من المسلمين ، فتحصن اليهود فى قلاعهم وحاصرهم المسلمون مدة ،وأخلفهم المنافقون وعدهم وقذف الله فى قلوبهم الرعب فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك إلا السلاح . ثم وكل من يراقب

إجلائهم لخروج الأكثر منهم إلى خيبر . وما عدا ذلك من أموالهم كان فيئاً للمسلمين . ولما استولى عليه النبى صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار ، وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين فى إنزالهم إياهم فى منازلهم ، وإشراكهم فى أموالهم . ثم قال صلى الله عليه وسلم إن أحببتم قسمت ما أفاء الله علىّ من بنى النضير بينكم وبينهم. وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وإشراكهم فى أموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم ، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ سيدا الأنصار بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، ثم خص رسول الله صلى الله عليه وسلم الفىء بالمهاجرين .

هذا ما وقع من الأنصار رضى الله عنهم . وقد أثنى الله تعالى عليهم بأنهم رضوا باختصاص الفىء بالمهاجرين وطابت نفوسهم بذلك من غير حسد ولا غيظ وحاشاهم أن يتصور فيهم الحسد الذى يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب : كما قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والحسد . فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »

ثم قال الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وهى الخصلة الثالثة

والإيثار تقديم الغير على النفس فى حظوظ الدنيا رغبة فى حظوظ الآخرة . والأنصار كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من أسباب المعاش ولو كان بهم خصاصة أى حاجة حتى أن من كانت عنده امرأتان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم . بل كان من خلقهم الإيثار مع غير المهاجرين .

فقد أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال . « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد أصابه شدة الجوع ، فقال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله . فقام رجل من الأنصار فقال أنا يارسول الله . فأتى به منزله فقال لأهله هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدخرى عنه شيئاً ، فقالت ماعندنا إلا قوت الصبيان . فقال قومى فعلليهم عن قوتهم ونوميهم حتى يناموا ولا يطعموا شيئاً ثم أسرجى وأثردى فإذا أخذ الضيف فى الأكل قومى كأنك تصلحين السراج فاطفئيه ، فتعالى نمضغ ألسنتنا ليظن الضيف أننا نأكل فيأكل حتى يشبع ، ففعلت ، فباتا طاويين . فلما أصبح الأنصارى جاء إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر إليه تبسم وقال لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما هذه الليلة .

هذه مثل عليا من إيثار الأنصار وتقديمهم غيرهم على أنفسهم وهو أعلى درجات السماحة والكرم لاينشأ إلا عن قوة اليقين ووكيد المحبة ، ولا يستطيع تحمله إلا من راض نفسه بالصبر على المشقة وتجرد عن ملاذ الدنيا وحظوظها طلباً لحظوظ الآخرة ونعيمها

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن أثنى على الأنصار بهذه الخصال الحميدة التى تعد نهاية فى سماحة النفس وكرمها ، وغاية فى البعد عن شح النفس ولؤمها وبخلها ، أكد مدحهم بقوله تعالى .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون)

والشح غريزة فى النفس تقتضى الحرص على المنع من الإعطاء الذى هو البخل والمنع . ومن يجعل بينه وبين شح نفسه وقاية فأولئك هم المفلحون، أى الفائزون بكل مطلوب والناجون عن كل مكروه .

والشح خلق ذميم . ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار بذمه ، منها ماأخرجه النسائى والحاكم وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « لايجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نار جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولايجتمع الإيمان والشح فى قلب عبد أبداً » ، وماأخرجه الحاكم وغيره عن أنس أنه قال : قال رسول الله عليه وسلم . خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده ثم قال انطقى . فقالت : قد أفلح المؤمنون . فقال الله عز وجل . وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وماأخرجه مسلم وأحمد عن جابر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

ثم بعد أن أثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار ذكر تعالى ماينبغى أن يقول من جاء بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين فإن الشأن فيمن جاء بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء ، كما أن شأن المؤمنين أن يطهروا قلوبهم من الغل والحقد ، وأن يطلبوا الاستعانة بالله تعالى على تطهير قلوبهم من هذا الداء الوبيل :

فقال تعالى . (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) .

وفى ذكرهم بوصف الأخوة وأنهم سبقوا بالإيمان بيان لوجه استحقاقهم لهذا الدعاء واعتراف بعضهم : وقد تضمنت هذه الآية أمرين مهمين ينبغي أن يكون عليهما حال المؤمنين .

الأول . أن يذكروا من سبقهم من المؤمنين بالخير من غير طعن عليهم ولا انتقاص لواحد منهم لاسيما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدرى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سمع رجلا ينال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أمن المهاجرين أنت ؟ قال لا . قال فمن الأنصار أنت ؟ قال لا قال فأنا أشهد أنك لست من التابعين لهم بإحسان .

الأمر الثانى : تطهير قلوبهم من الغل والحقد . فإن من شأن الإيمان أن يزكى نفوس المؤمنين ، ويطهر قلوبهم ويقتلع منها جذور الغل والحقد والحسد وسائر الصفات الذميمة التى هى من أهم أسباب البغضاء والشحناء والتفرق والفشل . وبتطهير قلوبهم من ذلك تتحد كلمتهم ، وتعظم عند الله وبين غيرهم من الأمم ، منزلتهم وتتحقق فيهم الأخوة التى وصفهم الله بها فى قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ويكونون كالجسد الواحد كما قال صلى الله عليه وسلم . « المؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»

وقد أرشدتنا تجارب الأمم الماضية وشواهد التاريخ الصادقة أن من أهم أسباب ضعف الأمم وانحطاطها عدم صفاء قلوب قادتها وتمكن الحقد من نفوسهم ، الأمر الذى يكون من أول آثاره قصر همهم على التناحر والتنازع والتدابر والتقاطع من غير نظر إلى صوالح الأمة وما يعود عليها بالرقى والفلاح حتى تضعف وتفشل وتضمحل . كما أرشدتنا كذلك إلى أن الأمم والشعوب إنما تقوى وتحيا حياة العز والكرامة وتتبوء مكانتها بين الأمم إذا كانت قلوب أبنائها صافية نقية . تسودها الألفة والإخلاص والمحبة ، وتظللها ظلال الوفاء والولاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والسلام عليكم ورحمة الله .

نموذج من بحوثه العلمية

سبق أن وعدنا بنشر محاضرة من محاضراته العلمية التى أتيح لنا الاطلاع عليها فى مكتبته ، وهانحن أولاء نفى بوعدنا وننشر المحاضرة الأولى كنموذج من الأبحاث التى تدل على مقدار تعمقه وسعة اطلاعه ، وسنتبعها بنشر طائفة أخرى من الأبحاث المتصلة بأصول مذهب الأمام الشافعى رضى الله عنه

المحاضرة الأولى

من سلسلة محاضرات فى تاريخ علم التوحيد

وهى تمهيد للمقصود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

قبل البدء ببيان تكون هذا العلم ، ومبدأ تدوينه ، وتشعب الفرق الباحثة فيه وتدرجه ، ونمو مباحثه فى عصور الإسلام المختلفة ، حتى عدَّ فنا مستقلا ، وانتهى إلى ما هو عليه الآن — ينبغى أن نحدده تحديدا تاما ، ونبين مختلف اطلاقاته فى عرف أهل العلم ، ونميزه عما قد يشاركه فى بعض مباحثه ، ليتسنى لنا الوقوف على وجوده بمعانيه وأطواره المختلفة فى الأزمان التى حدثنا التاريخ بتحققه فيها .

عرفه الأئمة الذين عنوا بتحقيق مباحثه بأنه العلم بالعقائد الدينية المكتسب من الأدلة اليقينية . وهو بهذا المعنى ظاهر فى أنه من نوع الأدراك والتصديق اليقينى القائم بالأشخاص . وقد يطلق فى عرفهم باعتباره فنا مدونا على مسائل العقائد المدركة والمثبته بالأدلة اليقينية. وعلى الملكة الحاصلة للأشخاص من مزاولتهم لتلك المسائل وإدراكها بالأدلة بحيث يقتدرون على استحضار تلك المسائل متى شاؤا .

والعقائد الدينية هى الأحكام الشرعية النظرية التى يجب اعتقادها ولا يكون المقصود منها إلا مجرد الاعتقاد دون العمل ، وذلك كوجوب وجوده تعالى ،

واتصافه بصفاته الكمالية ، وتنزهه عما لا يليق به جل وعز وككونه تعالى أرسل رسلا مبشرين ومنذرين ، متصفين بما يجب أن يتصفوا به ، ومبرئين مما لا يليق بمقامهم أن يتصفوا به وأن ينسب إليهم . وغير ذلك كأحوال المعاد ، وأمور الدار الآخرة .

ونسبتها إلى الدين الذى هو دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكونها مأخوذة من أدلته التى هى الخطابات الشرعية الواردة به إما للاعتداد بها بعد الاستدلال عليها بالأدلة العقلية كثبوت وجوده تعالى وغيره مما يتوقف بثبوت الشريعة وإما لأن تلك الخطابات هى الأصل فيها والدليل عليها لأن العقـــل لا مجال له فيها بالإثبات والنفى ما عدا حكمه بجواز وقوعها وعدم امتناعها كالقسم المعروف فى علم التوحيد بالسمعيات مما يتعلق أكثره بتفاصيل أمور الدار الآخرة . وإما لكفاية تلك الخطابات فى الاستدلال عليها وعدم الحاجة إلى الاستدلال بالدليل العقلى مع وجوده كثبوت وحدانيته تعالى .

وإنما نسب إلى دين المصطفى صلى الله عليه وسلم وحده دون باقى الأديان السماوية مع أن العقائد حقائق ثابتة بحسب الواقع ونفس الأمر لا تقبل التغيير والتبديل فلم تختلف فى ملة من الملل السابقة لأن ما يتعلق برسالته صلى الله عليه وسلم وما ألحق بها من مباحث الإمامة . وهذا لم يكن من العقائد فى الملل السابقة .

ولو اعتبرنا أن زيادة المباحث لا تستدعى تغيير الحقيقة لا نحتاج إلى تخصيص النسبة نظير ما قالوه فى القبائل التى تتجدد أفرادها ، وتزيد عما كانت عليه حين وضع أسمائها لها . مع أن ذلك لا يقتضى تغيير حقيقتها ، ولا يقدح فى علية أسمائها التى وضعت لها فى مبدأ تكوينها .

إلا أن الاعتبار الأول وهو تخصيص النسبة هو المشهور بين أئمة هذا العلم .
ولعل السر فى ذلك أن الاصطلاح جرى فيما بينهم على إطلاق علم التوحيد على العلم بعقائد الدين المحمدى . فإن تكون هذه العقائد وجعلها فنا مستقلا بالحالة التى عليها الآن من خواص الملة الاسلامية .

وعلى هذا الاعتبار المشهور تكون تلك العقائد مقصورة على المعتقدات

الإسلامية ، ويكون العلم بها المستند إلى الأدلة اليقينية مقصورا على علم اتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم .

سواء أكان استنادهم فى العلم بها إلى الأدلة اليقينية وأخذهم لها على النحو السابق من الأدلة الشرعية صوابا أم خطأ فيكون شاملا لعلم العقائد الدينية عند أرباب الفرق الإسلامية كلها سواء المخطىء منهم والمصيب .

وهذا المعنى هو الذى تواضع عليه جمهور العلماء وسموه بعلم التوحيد أو علم الكلام أو علم أصول الدين . ومنهم من خصه بما إذا كان الإستناد فيه إلى الأدلة اليقينية والأخذ من الأدلة الشرعية صوابا لا خطأ فيكون مقصورا على علم العقائد لدى الفرقة الناجية التى هى فرقة أهل السنة سلفها وخلفها على ما سنبينه إن شاء الله تعالى .

ومن الجلى بعد هذا التحرير أن مبدأ تحقق هـذا العلم هو مبدأ الإسلام وأنه مستمر من عهد الصحابة إلى الآن ويستمر إن شاء الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

كما أنه من الواضح أيضا أن العلم بالعقائد لم يختلف على الجملة لاقديما ولاحديثا لأن الإيمان لايتحقق إلا به . وإنما الذى اختلف وتطور بتطور الأحداث وتعاقب الأزمان هو كيفية تقرير هذه العقائد ، وتنوع وسائل المحافظة عليها ، وأساليب الذب عنها بتنوع الأدلة عليها وإقامة الحجج المثبتة لها . ورد الشبه الواردة عليها ، وإبطال النظريات التى تعارضها ثم تدوين مسائله وجعـله فنا مستقلا مشتمـلا على مسائل متكثرة تضبطها وحدتان يمتاز بهما عما عداه من الفنون : إحداهما وحدة ذاتية هى الموضوع ، وأخرى عرضية هى الغاية .

ولما كان هذا النوع من التطور لا يقف عند حد وكانت أنظار القائمين بتقرير هذه العقائد مختلفة كاختلافهم فى التأثر بالأحداث التى اقتضت هذا التطور من تقريرها نشأت الفرق الإسلاميـة وتشعبت وخرجت عن الجادة إلا فرقة أهـل الحق التى لم تتأثر بالأحداث التى طرأت ، والأهواء والبدع التى حدثت . بل استمسكت بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العقائد الصحيحة :

وأعظم حدث طرأ على هذا العلم حتى تكيف مادون من مسائله بكيفية أخرى غير ماكان عليه حين التدوين هو شيوع الفلسفة اليونانية التى ترجمت من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية فى أثناء القرن الثانى من الهجرة . فقد كان ذلك سببا فى اعتزاز بعض الفرق المنحرفة بنظرياتها مما دعا أهل الحق الثابتين على المبدأ القويم لأجل المحافظة على العقائد الصحيحة إلى بحث ماله مساس بها من النظريات الفلسفية بالأنظار العقلية سالكين فى ذلك طريق الفلاسفة فى النظر مع الاسترشاد بهدى القرآن الكريم والسنة المطهرة ليضربوهم بمثل سلاحهم بل أمضى من سلاحهم فإن اعتماد الفلاسفة على سلاح العقل الذى يفله الوهم . واعتماد أهل الحق على سلاح العقل المؤيد بالنور الإلهى الذى يحول بينه وبين خرافات الوهم كما سنوضحه قريبا فى الفرق بين العلم الإلهى عند الحكماء وعلم التوحيد .

واستتبع هذا زيادة مسائل هذا العلم عما كانت عليه حين التدوين بضم مباحث فلسفية من العلم الإلهى والعلم الطبيعى باعتبار أنها من وسائل إثبات العقائد الدينية .

وبضم مباحث النظر لأن به إثباتها فتضخم واتسعت دائرته . ودقت مباحثه ، وعسرت الإحاطة بأطرافه . ولأجل ضبطه بعد هذا الاتساع ، اعتبر المحققون موضوعه الذى ترجع إليه جميع مسائله والذى يمتاز به عن غيره من الفنون أعم المفهومات فجعلوه هو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا . وقد عرف هذا بعلم الكلام عند المتأخرين . كما أنه عرف مجردا عن هذه الزيادات بعلم الكلام عند المتقدمين .

هذا علم التوحيد بالنظر إلى الملة الإسلامية ، ونحن إذا جرينا على غير المشهور واعتبرنا علم التوحيد هو العلم بالعقائد المنسوبة إلى أى دين حق كان شاملا لعلم أتباع جميع الرسل المؤمنين بهم حقا والمتبعين لسننهم كما أنزلها الله تعالى بل لو توسعنا وأردنا منه العلم بالعقائد الدينية سواء كان مستندا إلى الأدلة اليقينية أو إلى الوحى والإلهام كان شاملا لعلم جميع الرسل وأتباعهم على الوجه الصحيح من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى الآن .

ثم إن علم التوحيد بنسبة العقائد المثبتة فيه إلى الدين على أى اعتبار مما ذكرنا

يخالف العلم الإلهى عند الحكماء ويمتاز عنه وهو يسمى عندهم بالفلسفة الأولى وبما وراء الطبيعة والعلم الأعلى .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نوضح ما يتميز به العلمان وأن نبين طريقة البحث فيهما فقد يحصل الاشتباه بين العلمين . وقد يقع التفاضل بين الطريقتين بلا هدى عن نظر إلى ظاهر حالها ولم يقف على حقيقة أمرهما فربما فضـل طريقة بحث الفلاسفة باعتباره بحثا بمقتضى العقـل الحر الطليق من كل قيـد على طريقة بحث المتكلمين باعتباره بحثا بالعقل المقيد بحدود الشريعة فلم يكن حرا طليقا .

وقد يستدعى ما قصدناه من تمام التميز بين العلمين أن نبين حقيقة علم الحكمة بجميع أقسامه على سبيل الإجمال كما بينا فيما سبق حقيقـة علم التوحيد . ثم نتبـع ذلك بشرح طريقة البحث فيهما وما اعتمـد عليه الباحثـون فى إثبات النظريات فى كل منهما .

عرفوا علم الحكمة على الإطلاق بأنه العلم الذى يبحث فيه عن أحوال الموجودات بقدر الطاقة البشرية . وقسموه أولا إلى حكمة عملية ، وحكمة نظرية لأن الموجودات إن كانت أعمالا وأفعالا توجـد بقدرتنا واختيارنا . فالعلم الذى يبحث فيـه عن أحوالها يسمى الحكمة العملية . سمى بذلك لأن المقصود منه العمل دون مجرد الإدراك والعلم . وإن كانت غير أعمال وأفعال كذلك فالعلم الذى يبحث فيه عن أحوالها يسمى الحكمة النظرية . سمى بذلك لأن المقصود منه الإدراك والعلم بالحقائق .

والحكمة العملية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : تهـذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، والسياسة المدنية . لأنها إن كانت علما بأحوال شخص بانفراده ليتحلى بالفضائل ، ويتخلى عن الرذائل فهى علم تهذيب الأخلاق . وإن كانت علما بمصالح طائفة من الناس اشتركت فى المنزل كالوالد والمولود ، والمالك والمملوك فهى علم تدبير المنزل ، وإن كانت علماً بمصالح جماعة اشتركت فى المدينة فهى علم السياسة المدنية .

والحكمة النظرية تنقسم أيضا إلى ثلاثة أقسـام : العلم الطبيعى ويسمى العلم الأدنى ، والعلم الرياضى ويسمى العلم الأوسط ، والعلم الإلهى ويسمى العلم الأعلى كما سبق لأنه إن كان البحث فيها عن أحوال ما يفتقر فى وجوده الخارجى والذهنى إلى المادة فهى العلم الطبيعى ، وإن كان البحث فيها عن أحوال ما يفتقر إلى المادة

فى وجوده الخارجى فقط دون الذهنى فهى العلم الرياضى ، ولكل من هذين الطلبين فروع كثيرة . وإن كان البحث فيها عما لا يفتقر إلى المادة لا فى وجوده الخارجى ولا فى وجوده الذهنى فهى العلم الإلهى وهو المقصود تمييزه عن علم التوحيد فأنه يبحث فيه عما يتعلق بالإله وعن العقول والمادة وما أشبهها .

هذا حقيقة علم الحكمة كما ضبط الحكماء الإسلاميون وهو كما ترى شامل لما يحتاج إليه البشر فى تكميل ما أودعه الله تعالى فيه من القوة النظرية والقوة العملية تحصيلا للعادتين الدنيوية والأخروية .

ثم إن هذه العلوم الفلسفية من مبدأ تكوينها إلى الآن يتخبط العقل فى بحث نظرياتها بين الإثبات والنفى ، والتصحيح والنقض . وبمرور الزمان لم تبق فى جملتها على حالها بل طرأ عليها من التغيير والتبديل ما اندرست به آثار بعض فروعها .

فالقسم الطبيعى منه تغير عن مجراه الأصلى بل انقلب رأساً على عقب بجميع فروعه فى الأزمان الأخيرة واستغنى الباحثون المحدثون عن سلوك طريق التدليل بالتحليل وجعلوا جل اعتمادهم فى إثبات نظرياته على التجارب . والحق أن علماء الغرب أبدعوا فيه ، وأتوا بالعجب العجاب . فقد استخدموا ما وضعه الله تعالى فى الكون من خواص ومزايا حتى أبرزوا للعالم مخترعات لا شك أنها جليلة ، نفعت النوع الإنسانى فى كثير من مناحى الحياة على الرغم من أن منها ما كان سببا فى هلاكه .

وكان الأجدر بالعناية بهذه العلوم ، والتوسع فى الاشتغال بها أهل الاسلام الذين حثهم كتابهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض . وفرض عليهم فى شريعتهم إعداد القوى اللازمة للمحافظة على كيانهم ولإعزازهم فى ديارهم . والقيام على سبيل الكفاية بكل صناعة يحتاجون إليها .

وقد وجد من أسلافهم من اشتغل بهذه العلوم حتى قيل إن ما مهدوه من المباحث هو الأساس الذى بنى عليه علماء الغرب أبحاثهم ، والنبراس الذى استضاءوا به فى سيرهم .

أما المتأخرون منهم فقد أهملوا هذه العلوم إهمالا مزرياً ، وقصروا فى شأنها تقصيراً فاحشاً حتى ضعفوا واستكانوا ، وتمزقت وحدتهم ، وامتلكت أعداؤهم بلادهم ، وصاروا عالة على غيرهم فى كل ما يحتاجون إليه . وقد تنبهوا فى الأزمان الأخيرة إلى انحطاطهم فأرادوا تقليد أهل الغرب فى سيرهم لكنهم بدلا من أن يسايروهم

فى إعداد القوى المتنوعة التى ظهرت فى هذا العصر ، والتى تجعلهم أعزة بين الأمم ، وفى التبحر فى هذه العلوم التى ينشأ عنها تنوع الصناعات والتى تجعلهم فى غنية عن غيرهم سايروهم فى التمدين الكاذب ، والخلاعة المنافية للآداب بعد أن قام منهم زعماء ينادون بأن سبب الانحطاط الجمود على القديم وحجز النساء فى البيوت فازدادوا بعداً عن الإسلام ، وما استفادوا شيئا يعزهم فى دنياهم بين الأمم .

ومن العجب أن من الناس من يوقع اللوم فى هذا العصر على علماء الدين كأنهم يرون أن العالم الدينى يجب أن يعرف كل العلوم ، وأن يقوم بجميع مايلزم الأمة من الوظائف ، ومادروا أن ذلك خارج عن طوق القوى البشرية ، بل اللازم توزيع المطالب فتقوم كل طائفة بالقيام بنوع منها .

نعم إن تقصير الكل فى نوع يوقع الإثم على الكل والله الهادى إلى سبيل الرشاد .

ثم إن المشتغل فى هذا القسم أو بفرع من فروعه لا يسمى فى هذا العصر فيلسوفا .

ومن فروع الطبيعى القسم الفلكى ويبحث عن الفلكى من أى قسم من الثلاثة . وهو قد تغيرت نظرياته وتبدلت مرات عدة . ولا يزال فى معرض التغيير والتبديل . وفى ذلك دلالة على عظم قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى أن الإحاطة بسر هذا الكون ، والوقوف على حقيقته مما استأثر الله تعالى به .

والقسم الرياضى لما كان معظم نظرياته قريبة من متناول العقول ، ولا مجال للوهم فيها بقى حافظاً لكيانه ومع ذلك تميزت فى العصور الأخيرة فروعه واتسعت دائرتها ، وتهذبت قوانينها ، وخرجت فى عرف الناس عن أن تكون من علوم الفلسفة . والناس موزعون فى الاشتغال بهذا القسم كل طائفة اشتغلت بفرع منه . ويوجد منا من تبحر فى كثير من فروعه لكن مع الأسف ليس منها ماله صلة بالعلوم الطبيعية وهو يفيد فى إبداع ماينفع الأمة .

والقسم العملى بجميع فروعه قد استغنى عنه فى الملة الإسلامية بعلم الشرائع والأحكام المعروف بعلم الفقه الشامل لعلم الأخلاق . فقد بين فيه بوجه أتم ماينبغى أن يتحلى به الإنسان من الأخلاق الفاضلة وما يجب أن يتخلى عنه من الأخلاق

الذميمة . كما بين فيه ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك من الفرد والجماعة على وجه أوسع وأشمل وأفيد للمجتمع الإنسانى فيما يعود عليه بالسعادة والهناء فى الدارين . وذلك أنه أشتمل على مايجب أن يتصف به الإنسان من الصفات الحسنة ويتجنبه من الصفات القبيحة وعلى مايجب أن يفعله فى حق خالقه من العبادات ، وما يجب أن يتركه من المحرمات وعلى كيفية المعاملة مع غيره من المخلوقات التى يستدعيها نظام المعاش ، وتبادل المنافع وعلى نظام الأسر وتدبير الملك وعلى القوانين الحافظة للأنفس والأعراض والأموال والعقول مع بيان العقوبات الدنيوية الكافية فى ردع من حدثته نفسه بالاعتداء على شىء منها وغير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه . وينفعه فى معاده .

ولا يسمى المشتغل بهذا القسم فى عرف الناس اليوم فيلسوفا سواء كان مشتغلا به على أصول الشريعة الإسلامية أو على غيرها .

والقسم الإلهى وهو الذى صاحب اسم الفلسفة إلى الآن .

تبين بعد بزوغ شمس الشريعة الاسلامية أن معظمه أوهام وخيالات على الرغم مما يتباهى بالانتماء إليه المغرورون ويتمشدق بغرائب نظرياته المتمشدقون .

وهذا القسم هو الذى يوازى فى الملة الاسلامية علم التوحيد . وهو الذى قصدنا تمييزه منه وتوضيح طريقة البحث فى كل منهما فنقول :

أما علم الحكمة فإن الباحث فيه يسير فى بحثه وفى اثبات نظرياته بمقتضى عقله الصرف من غير أن يسترشد بمرشد ولا أن يستهدى بهاد ومن غير أن يراعى فى بحثه قانون الإسلام ولا غيره من الشرائع الإلهية الصحيحة .

ولما كان سير العقل للوقوف على حقيقة هذه المباحث البعيدة عن المادة إنما هو فى طرق شائكة ، ومسالك وعرة ، ومفاوزة مهلكة مع ظلام حالك لم يصحب العقل فى سلوكه فيها نور يضىء له تلك السبل ، ولم يكن بيده كتاب منير يهديه إلى مواطن الصواب لم يأمن العثرة والوقوع فى الذلل ، والحكم بأن الباطل حق وأن الحق باطل .

ذلك لأن الله تعالى لكمال ابتلائه لخلقه أوجد للإنسان عقلا ، وجعل له بجانبه وهما يصارعه ويلبس عليه الحق بالباطل ، والصادق من النظريات بالكاذب .

وللوهم سلطان كبير على النفس الإنسانية لا ينجو من تلبيسه إلا من عصمه الله تعالى وصفت نفسه وقليل ما هم .

من أجل ذلك كان نظر العقل فى المباحث المتعلقة بما وراء المادة البعيدة عن متناول الحس محفوفا بالمخاطر لا يمكن الاطمئنان إلى صحة ما يؤدى إليه لمنازعة الوهم ، ومغالبته ، وتشويه الحقائق ، وتصويرها بغير ما هى عليه . وبذلك يحصل للناظر الاشتباه بين الحقائق الصادقة ، والوهميات الكاذبة : فيختل نظره وفكره فى الواقع مع ظن السلامة فى الظاهر ، ويكون ما أدى إليه فى ظنه صادقا ، وهو فى الواقع كاذب .

ولا يجدى فى منع هذا الاختلال ما وضعه الحكماء والفلاسفة من القوانين المنطقية لتصحيح الفكر ، وتمييز صوابه من خطئه ، وصحيحه من فاسده . فإن أقصى ما تفيده مراعاة هذه القوانين هو الحيلولة دون الخطأ فى كيفية ترتيب وتنظيم المعلومات التى استحضرها العقل لتكون واسطة بينه وبين الوصول إلى الحقائق المجهولة ، وليس لهذه القوانين من شأن فى تعرف صدق هذه المعلومات من كذبها حتى يكون نظر العقل سليما من كل وجه .

يرشدك إلى ماذكرنا تخبطهم فيما هو المقصدالأسمى والمطلب الأعلى من المطالب الإلهية وهو كيفية نشأة الموجودات عن موجدها .

فقد نقل أئمتنا عنهم أنهم بناء على ما وهموه من القواعد أن الواحد الحقيقى من كل جهة لا ينشأ عنه إلا واحد. قالوا إن واجب الوجود (وهو الله تعالى) واحد من كل وجه صدر عنه بطريق الإيجاب العقل الأول ثم إن هذا العقل له ثلاثة اعتبارات فباعتبار وجوده فى نفسه صدر عنه العقل الثانى ، وباعتبار إمكانه لذاته صدر عنه الفلك الأول ، وباعتبار وجوبه بالغير صدر عنه نفس اسنادا للأشرف إلى الجهة الأشرف ، والأخس إلى الأخس فإنه أحرى وأخلق . وهكذا العقل الثانى والثالث إلى العقل العاشر الذى هو فى مرتبة الفلك التاسع أعنى فلك القمر ويسمى هذا العقلُ بالعقل الفعال وهو المدبر للعالم السفلى عالم العناصر فيفيض الصور والنفوس والأعراض على العناصر البسيطة وعلى المركبات منها بسبب ما يحصل لها من الاستعدادات المسببة عن الحركات الفلكية ، والأوضاع الكوكبية

واتصالاتها . ومنهم من اعتبر فى العقل أربع جهات فزادوا عليه بذلك الغير، وجعلوا إمكانه علة لهيولى الفلك ، وعلمه علة لصورته ، ومنهم من اقتصر على جهتين : وجوده وجعلوه علة للعقل ، وإمكانه وجعلوه علة للفلك .

ولا يخفى أن ما ذكروه أوهام وخيالات ، ومبنى على أصل فاسد وهو أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وقد أوضح أئمتنا فساد هذه القاعدة ثم قالوا لهم إن هذه الاعتبارات فى العقول إن كانت وجودية فلا بد لها من مصادر متعددة وإلا بطل قولكم الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد الذى هو أصل معتقدكم وإن كانت اعتبارية . فإن كانت جزء المؤثر لزم أن يكون الأمر الاعتبارى جزء مصدر الأمور الوجودية وهو باطل وإن كانت شرطا للتأثير . والشروط يجوز أن تكون أمورا اعتبارية فقد وجد مثلها من السلوب والاضافات عارضا للمبدأ الأول فى نظرهم وحينئذ يجوز أن تكون بجنسها مصدرا لأمور متعددة وذلك مناف لمذهبهم الذى بنوا عليه كلامهم فى ترتيب الموجودات .

ثم إن حديث إسناد الأشرف إلى الأشرف، والأخس إلى الأخس خطابى لا يلتفت إليه فى المطالب العلمية ، وإسناد الفلك الثامن مع ما فيه من الكواكب المختلفة المقادير المتكثرة كثرة لا تحصى إلى جهة واحدة فى العقل كما زعموه مشكل جدا وكذلك إسناد الصور والأعراض التى فى عالمنا مع كثرتها الزائدة إلى العقل الفعال مشكل أيضا . ومع كل هذا فما وهموه مخالف لما ثبت بالعقل السليم المؤيد بما جاءت به الشرائع الإلهية من أن موجد العالم كله هو الله تعالى القادر المختار .

وأما علم الكلام فإن الباحث فيه يسير بعقله فى إثبات العقائد الدينية وأمامه مصباحان نيران ينيران له السبل ويستضىء بهما إلى مواقع الصواب . أحدهما كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وثانيهما سنة نبيه صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ـ فإذا ماحاد عن الصواب وسلك غير الجادة والتبس عليه الحق بالباطل لمغالبة الوهم وجد من يهديه إلى الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

وليس الباحثون فى هذا العلم سواء فى الاستهداء بهدى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة بل هم متفاوتون فى القرب والبعد تفاوتا نشأ من اختلاف تأثرهم بالعوامل الخارجية التى طرأت ولها صلة بالعقائد الدينية .

ولاشك أن من كان فى بحثه على صراطهما كان أجدر بالوقوف على الحقائق ، وأقرب إلى الصواب ، ومن كان فى بحثه على نهج الفلاسفة مع تكلف تأويل ظاهرهما كان أبعد عن الحقائق ، وأقرب إلى الخطأ . ولا تظن أن العقل فى هذه الحالة يكون مجرد تابع من غير تعرف الحقيقة ، ويكون مقيداً بقيود الشريعة ، لاحراً طليقا فأن وظيفة الشريعة مع العقل فى العقائد التى لا يكفى فى إثباتها بمجرد النقل إذا اشتبه عليه الحق بالباطل هى الدلالة على الحق ليعرفه ويميزه من الباطل فمثله معها كمثل من لم ير الهلال بعينه فهداه آخر إليه حتى رآه ببصره . ولاشك أن هذا الشخص لايعتبر فى حكمه بوجود الهلال بعد رؤيته تابعا ولامقلداً .

وبما حررنا اتضح التميز بين العلمين ، وتبين الفرق بين الطريقتين ، وأن طريقة بحث المتكلمين أسد من طريقة بحث الفلاسفة لأن الأولى تطابقت عليها العقول السليمة والشرائع الإلهية ، والثانية كانت بمحض العقل الذى يصارعه الوهم ويؤيده الشيطان . وهو مع ذلك لايهتدى بهدى الرحمن . هذا هو الواقع لاكما يموه به من نصب نفسه عن الفلسفة مدافعا بعد أن اتشح بوشاحها ، وحلى صدره بوسامها مع أنه لم يقف منها إلا على تاريخ أربابها وسيرهم وحكاية مذاهبهم ومعتقداتهم وتقليد علماء الغرب الذين تلق عنهم مايسمونه بالفلسفة فى استنباط منشأ اختلاف النظريات من البيئات ، واختلاف مناخ الأقطار التى وجدوا فيها فى الحرارة والبرودة والاعتدال . ومادروا أن علم الفلسفة كغيره من الفنون نشأ وترعرع حتى صار عدة فنون كل فن مسائل ونظريات محدودة بموضوع ترجع إليه ، وغاية مقصودة منها . فالعالم بالفلسفة والفيلسوف من أحاط بمسائلها بأدلتها لامن عرف اسم واضعها وتاريخها وتاريخ من اشتهر من علمائها . نعم إن ذلك من الكماليات التى يحسن الوقوف عليها بعد الإحاطة بالمسائل الفلسفية وأدلتها . والله تعالى هو الموفق للصواب .

هذا وقد رأينا بعد أن وضحنا حقيقة العلمين وطريقة البحث فيهما أن ننبه على ما أشار له بعض أفاضل(١) هذا العصر فى كتاب له نشره واشتهر بين العلماء والأدباء بالابداع من أن طريقة بحث الحكماء أسد من طريقة بحث المتكلمين ، وأن موقف الفيلسوف أجل من موقف المتكلم ونص عبارته بعد أن ذكر تمهيدا لم نر حاجة لنقله (فموقف المتكلم موقف «محام» مخلص اعتقد صحة قضية ، وتولى

(١) هو الاستاذ (أحمد أمين) فى كتابه ضحى الاسلام ص ١٨ جـ ٣

الدفاع عنها يصوغ لها من الحجج والأدلة ما يؤيدها ، ويثبت ما يعتقد من صحتها) .

وموقف الفيلسوف موقف قاض عادل تعرض عليه قضية لا يكوّن فيها رأيا حتى يسمع حجج هؤلاء وهؤلاء ، ويزنها بميزان دقيق من غير تحيز ثم يكون فيها رأيه ويصدر فيها حكمه ، ولعل هذا هو ما يقصده ابن خلدون من قوله (إن نظر الفيلسوف فى الإلهيات أنما هو نظر فى الوجود المطلق . وما يقتضيه لذاته ، ونظر المتكلم فى الوجود من حيث أنه يدل على الموجد ، وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية اه) .

هذا لفظه بحروفه ومن الواضح أن تشبيه موقف المتكلم بموقف المحامى المخلص الخ ، وتشبيه موقف القاضى العادل الخ يقتضى أن موقف الفيلسوف أجل من موقف المتكلم ويستتبع ذلك أن طريقته فى البحث أسد من طريقة بحث المتكلم . وربما استتبع هذا أنه عند التعارض بين ما يراه الفيلسوف ويراه المتكلم من النظريات يكون الحق فى جانب الفيلسوف دون المتكلم ، ولا يخفى أن ذلك لا يقصده حضرة المؤلف ولا يرضاه بل لا يرضاه مسلم . فقد ذهب الحكماء أو بعضهم كما قلنا إلى أن الله تعالى لم يخلق العالم بقدرته واختياره وإنما نشأ عنه بطريق الايجاب العقلُ الأول الخ ما ذكرنا . فهل هذا حق وما ذهب إليه المتكلمون باطل . وذهبوا أيضا إلى نظريات أخرى يقطع فى الملة الاسلامية بعدمها كعدم جواز الخرق والالتئام فى الأفلاك ، وعدم جواز نزول الملك من السماء ، وقدم العالم ، وعدم جواز إعادة المعدوم ، ونفى المعاد الجسمانى وغير ذلك . فهل ما ذهبوا إليه هو الحق ؟ وما قطع به فى الملة الاسلامية باطل . لا أظن أن مسلما يقول بذلك .

فمن أجل أن لا يغتر بظاهر كلامه قصير النظر ، وأن لا ينخدع بطلاوة عبارته ضعيف الفكر فيعتقد أن علم الفلسفة أجل من علم الكلام باعتبار أن مسائله ونظرياته محصت التمحيص التام وحكم بها الفيلسوف الشبيه بالقاضى العادل بمقتضى عقله المجرد عن المؤثرات الخارجية بعد أن وزنها بميزان دقيق بخلاف مسائل الكلام فإن المتكلم فرضها صادقه فدافع عنها دفاع المخلص سواء كانت فى الواقع صادقة أم لا .

رأيت أن أنبه على خطأ ما قصده من تشبيه موقف الطرفين ، وأن أشرح الموقفين شرحا يتضح منه أن موقف المتكلم أعظم وأجل ، وأن طريقته فى البحث أسد زيادة عما ذكرنا فى شرح الطريقين وإن لزم التكرار ببعض ما قدمناه فأقول :

من المعلوم أن الإيمان إنما يتحقق عند من لم يكتف بالتقليد بيقين هذه العقائد الدينية المستند إلى الدليل فهو فرض عين على كل بالغ عاقل . ولا نعنى بالعقائد الدينية ما يشمل تفاصيلها الدقيقة كزيادة صفاته تعالى على ذاته أو عدم زيادتها . وإنما نقصد فى هذا المقام اعتقادها على الجملة مثل أن الله تعالى موجود قديم باق مخالف لغيره من المخلوقات واحد لاشريك له منزه عن الصاحبة والولد ، وعن كل مالا يليق به جل وعز حى عالم قادر مريد سميع بصير أوجد العالم بقدرته واختياره ، وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالمعجزات ، خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . مع التصديق بجميع ماجاء به من الشرائع . فهذه العقائد يجب على كل واحد إعتقادها اعتقادا جازما مستندا إلى دليل عقلى فيما لا يكفى فيه الدليل النقلى ، ونقلى فيما عداه .

إلا أن العامة الذين لم يشتغلوا بعلم الكلام يكتفى منهم بالدليل الجلى وهو مالا يستطاع تقريره بمثل الطرق المنطقية . ورد الشبه الواردة عليه

ولاشك أن هذا القدر متحقق فى عامة المؤمنين فأنك إذا سألت أى مؤمن عن أصل هذه العقائد أجابك بأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن الله تعالى موجود وأنه لاشريك له . وإذا استفسرت منه عن مستند هذه العقيدة أجابك بما هو مودع فى فطرته السليمة من أن هذا الكون وما حوى من ترتيب ونظام يدل على وجود إله صانع له . وهكذا فى كل عقيدة من العقائد المطلوبة على وجه الإجمال .

ولما كان الاعتقاد بالحالة التى عليها عامة المؤمنين مرتكزا على أساس لا يستطيع معه صاحبه المحافظة عليه والذب عنه أمام من يريد زلزلته ، وكان من الضرورى المحافظة على هذه العقائد والاستعداد لردعادية المضللين الذين يمكن أن يضلوا العامة ، ويفسدوا عقائدهم الإيمانية كان من الواجب أن تقوم طائفة بالاعتناء بتحقيق أدلة هذه العقائد ومعرفة تقريرها على وجه يمكن المحافظة بها على هذه العقائد ورد الشبه الواردة عليها . فهذه الطائفة هى علماء التوحيد وأئمة الدين

فى كل عصر لاسيما أهل الحق منهم قبل تدوين العلم وبعده فإنه لم يخل منهم زمان من عهد الصحابة إلى الآن غير أنهم مختلفون فى أسلوب تقرير العقائد وكيفية الذب عنها بحسب اختلاف البدع والأهواء التى ظهرت والأحداث التى طرأت ، وبحسب مقتضيات الأزمان التى وجدوا فيها وتنوع أسلحة خصوم الدين فى مختلف الأزمنة وكان يرقبون مايظهر من البدع والأهواء فيحاربونه بكل مايستطيعون من قوة ، ويتتبعون كل نظرية استحدثت وكانت بظاهرها تنافى هذه العقائد فيبحثونها على أصول أربابها بعد تأسيس المبادىء العامة التى تقرها سائر العقول السليمة حتى يبينوا فسادها من طريق العقل الصحيح ولذلك تضخم علم التوحيد كما قلنا فيما سبق وهو قابل للمزيد باعتبار تجدد الوسائل التى لا تزال تنشأ من تطور العلوم المعروفة فى هذا العصر بالعلوم الحديثة

ثم إن هؤلاء الأئمة لهم فى بحثهم فى هذه العقائد ثلاث أحوال: الأولى أنهم يثبتون هذه العقائد بالأدلة التفصيلية مع اقتدارهم على رد أى معتد عليها وبذلك ينقل حالهم من درجة العامة القابلة للزحزحة والإضلال إلى درجة الإيقان التى لايؤثر فيها تضليل المضلل ولاغواية الغاوى . الثانية أنهم يثبتونها لغيرهم عن يريد تعرف الدين الحق الموافق للمعقول . فبهدايتهم يهتدون ، وببيانهم للعقائد بما تقبله العقول الفطرية السليمة يؤمنون عن برهان ويقين . الثالثة رد عادية المعتدين ، وتضليل المضللين بإبطال شبههم التى وهموا أنها تفسد تلك العقائد . وهؤلاء الأئمة فى جميع أحوالهم يثبتون مالا يكفى فى إثباته الدليل النقلى بالبرهان العقلى القطعى المؤلف من المقدمات اليقينية سواء كانت ضرورية لايختلف فى صدقها أرباب العقول السليمة أم مكتسبة ببراهين إلى أن تصل إلى الضرورى . وهم مع ذلك يستضيئون بهدى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ليكونوا بمنجاة من تلبيس الوهم وتشويه الحقائق .

فالمتكلم يثبت العقائد الدينية لنفسه بالحجج القطعية التى وصل إليها بعقله المطمئن لحكمه بعد الاسترشاد بكلام من لاتخفى عليه خافية ، وكلام من لاينطق عن الهوى إن هو إلاوحى يوحى . ثم هو يعلمها لغيره بحججها كما وصل إليها حتى يستوى المعلم والمتعلم فى الوقوف عليها بالاطمئنان التام . وإذا صال عليه صائل أو هاجمه عدو يريد هدم عقيدة من هذه العقائد رده على أعقابه بسلاح لايفل ،

وعزيمة لا تفتر وكان دفاعه فى هذه الحالة كدفاعه عن نفسه وولده وعرضه وماله بل أقوى وأشد من ذلك لأنه دفاع عن دينه الذى هو أحب اليه مما سواه .

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) حديث شريف

هذا هو موقف المتكلم وقد اتضح أنه ليس كموقف المحامى المخلص عن قضية اعتقد صدقها فصاغ لها من الحجج ما يكفى لإثباتها ضد الخصوم ، وكسبها أمام القضاء . لأن ما يدافع عنه باعتبار حالته الثالثة هو قضيته ورأس ماله ، وتتوقف عليها حياته الأولى والثانية وصل إليها أولا بفطرته السليمة التى فطر الله الناس عليها ثم حاطها بدروع من فولاذ صاغها بعقله الخالص من خرافات الوهم وليس هو بالمأجور على الدفاع عن قضية . اطلع على مستنداتها لدى صاحبها فاعتقد حقيتها ، ولا يهمه فى كسبها الا المحافظة على شرف المهنة واستحقاق ما تعهد به موكله من الأجر .

وأما الفيلسوف فإنه لما رأى ما أودع فى الإنسان من قوة نظرية ، وقوة عملية أراد البحث عن حقائق الموجودات بقدر الطاقة البشرية لتكميل الإنسان فى هاتين القوتين . ثم له فى بحثه أيضا ثلاث أحوال : فتارة يثبت ما وصل إليه من النظريات لتكميل نفسه وتارة يعلم غيره ما وصل إليه كذلك ، وتارة يكون موقفه موقف المدافع لمن خالفه فى نظرياته وأفسدها عليه بمثل حججه . وهو فى جميع أحواله يعتمد فى إثبات نظرياته وفى رد ما يرد عليها على مجرد عقله غير مسترشد بمرشد ، ولا مستهد بهاد . فإذا ما كان بحثه فيما وراء المادة أظلمت عليه المسالك ولعب الوهم دورا هاما فى تشويه الحقائق فيكون حكم العقل فيها غير مأمون العاقبة كما ذكرنا الأمثال فيما سبق لخرافاتهم :

هذا موقف الفيلسوف الأصلى الذى مهد أصول الفلسفة واستنبطها ـ وأما الأشخاص الذين اطلعوا على ما دون من نظريات الفلاسفة الأقدمين وعلى حججهم فهؤلاء يختلف حالهم باختلاف اجتهادهم فى هذه العلوم فمنهم من يصل إلى معرفة المذاهب السابقة ولا يصل إلى درجة الترجيح بين النظريات المتعارضة أو اختراع جديد وإبطال قديم فهؤلاء لا يعتبرون من الفلاسفة الذين لهم أهلية الحكم بنظرياتها ومنهم من يصل إلى ذلك وهؤلاء إن سلكوا فى بحثهم طريق الفلاسفة الأقدمين فى

الاعتماد على مجرد العقل تاهوا فى بحار الأوهام كأسلافهم ، وكانت معظم أحكامهم فيما وراء المادة بالخرافات أشبه منها بالحقائق .

هذا هو موقف الفيلسوف بجميع أنواعه وأحواله . وبهذا يتضح أن بينه وبين موقف القاضى العادل الذى يزن حجج هؤلاء وهؤلاء بميزان دقيق ثم يصدر حكمه بونا شاسعا وفرقا واضحا إذ لا يوجد لديه مايشبه الخصمين يتقدمان لجنابه بحجج مختلفة فينظر فيهما من غير تحيز ويزنها بالميزان الدقيق ثم يصدر حكمه . وإن اعتبرنا تعارض الأدلة واختلاف المدارك عند اشتباه الحقائق كتعارض حجتى خصمين فينظر فيها من غير أن يتأثر بعقيدة أودين .

فمن أين له الميزان الدقيق الذى يزن به الحجتين ؟ وليس لديه سوى عقله الذى وقف الوهم له بالمرصاد يلبس عليه الحق بالباطل وهو مع ذلك مستبد متكبر لا يأبه لنصيحة ناصح ولا لإرشاد مرشد .

ولو أجاد التمثيل فأتى بمثال ينطبق على حال الباحثين فى هذين العلمين وهما الفلسفى والمتكلم لقال مثل الفلسفى مثل حاكم مستبد فى حكمه برأيه ، لا يأبه لمشورة مشير ، ولا لنصيحة ناصح ، بل يحكم بمحض رأيه فى أمور ليس من شأنه الإحاطة بها والوقوف على حقائقها . ولا شك أن مثل هذا الحاكم يخبط فى أحكامه خبط عشواء ، ويكون خطؤه أكثر من صوابه - ومثل المتكلم مثل حاكم لا يحكم إلا بعد الاستشارة والاقتناع بنصيحة أهل المعرفة . وغير خاف أن مثل هذا الحاكم لا يكاد يخطىء فيما يصدره من الأحكام ، وإنه لجدير بأن يخصص بأنه إنما أصدر حكمه بعد أن وزن حججه وحجج مايعارضه بميزان دقيق .

وأما قوله ولعل هذا ماقصده ابن خلدون الخ فغير صحيح (١) وعبارة ابن خلدون

---

(١) وجه عدم صحته أنه لا صلة بين ما قاله ذلك الفاضل (احمد أمين) وما قاله ابن خلدون فان كلام ذلك الفاضل بصدد أن مسلك الفيلسوف أقوم وأسد من مسلك المتكلم. وهو رأى له وحده لم ينح نحوه باحث سواه والشيخ رحمه الله ناقشه فى ذلك ، ورد عليه بما فيه الكفاية ، وأما كلام ابن خلدون فبصدد أن نظر الفيلسوف فى العلم الالهى إنما هو فى الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ، ونظر المتكلم فى الوجود من حيث أنه يدل على الموجد وهو الصانع جل وعلا

واختلاف النظرين لا يشعر بأن أحدهما أقوم أو أسد من الآخر فان الفيلسوف يسير فى بحثه وفى إثبات نظرياته ، بمقتضى عقله الصرف ، والعقل غالبا ما يصارعه الوهم ، ومن ههنا

لا تنطبق (١) على الأصول العلمية ، والقواعد المرعية ، فى ضبط موضوعات العلوم إلا بضرب من التأويل . وذلك أنهم اختلفوا فى موضوع علم التوحيد الذى يبحث فيه عن أحواله وأعراضه الذاتية فقيل هو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيداً وهو أصح الأقوال ، وقيل هو الموجود (٢).

* * *

بعد هذا التحرير الممهد للمقصود يجدر بالباحث فى تاريخ هذا العلم ليتعرف أطواره أن يوزع أبحاثه على العصور ليقف على حالة كل عصر : لذلك رأينا أن تكون هذه المحاضرات على التقسيم الآتى :

١ — العلم بالعقائد الدينية لدى الأمم السابقة قبل الاسلام وكيفية تقريرها مع الإشارة على وجه الإجمال إلى ما كان يوازيه من العلم الإلهى عند الحكماء . ومع التعرض إجمالا إلى عقائد الخلق الباطلة فى تلك العصور .

ومن العلوم أنه لا سبيل إلى الإحاطة بهذه الأبحاث من أجل ذلك سنكتفى بما

ظهر للناظرين بعد بزوغ شمس الشريعة الاسلامية أن معظم مباحث ما وراء الطبيعة أوهام وخيالات على الرغم مما يتباهى بالانتهاء اليه المتباهون ، ويتشدق بغرائب نظرياته المتشدقون

وأما المتكلم فإنه يسير فى بحثه وإثبات نظرياته بعقله وأمامه مصباحان ينيران له السبيل ، ويستضىء بهما إلى مواقع الصواب .

أحدهما — كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانيهما — سنة نبيه صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق الهوى إن هو إلا وحى يوحى فاذا ما غالب العقل الوهم وجد من يهديه إلى الصراط المستقيم والطريق القويم ، وهذا ما لا يتيسر مثله للفيلسوف . فكان مسلك المتكلم أسد وأقوم من مسلكه .

(١) وجه عدم انطباق عبارة ابن خلدون على القواعد المرعية فى ضبط موضوعات العلوم أن عبارة ابن خلدون مصرحة بأن موضوع علم الكلام العقائد الإيمانية ولا يخفى أن العقائد هى مسائل علم الكلام لا موضوعه وأما موضوعه فقد اختلفوا فيه على أقوال أصحها — أنه المعلوم من حيث يتعلق به اثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا .

وثانيها — أنه ذات الله تعالى ، وثالثها أنه الموجود بما هو موجود والثانى والثالث ضعفهما صاحب المواقف وغيره .

نعم يمكن تصحيح عبارة ابن خلدون بضرب من التأويل كما قال الشيخ رحمه الله بأن يراد من العقائد متعلقها وهو المعلوم والخطب فى ذلك يسير .

(٢) ضعفه صاحب المواقف فارجع اليه

يمكن أن يؤخذ من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وبما تنقله العلماء الأثبات .

٢ — العلم بالعقائد الدينية فى عهد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلى عهد تدوين هذا العلم فى أواخر القرن الأول فنبين فيه ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم من حسن العقيدة ، وما كانوا يعتمدون عليه فى ذلك. ونذكر ماثبت عن بعضهم من الكلام فى العقائد ، وماطرأ فى زمنهم من بدع وأهواء وخلافات وكان لها مساس بالعقائد وأثر فى تكوين الفرق الإسلامية ليحصل الربط فى البحث بين عصرهم وعصر من يليهم :

٣ — العلم بالعقائد الدينية من مبدأ تدوينه إلى أن جاء إماماهذا الفن من أهل الحق أبو الحسن الأشعرى ، وأبو منصور الماتريدى . فنذكر مبدأ تدوينه وأنموذجا مما وقفنا عليه من المؤلفات فى ذلك العصر ، وحال الفرق التى نشأت فى عهد الصحابة وترعرعت فى هذا العصر ، ومن اشتهر من الأئمة الذب عما كان عليه سلفهم .

٤ — العلم بالعقائد الدينية من مبدأ زمن الإمامين الجليلين إلى عهد الإمام الغزالى فنبين فيه ما كان لهذين الإمامين وأتباعهما من حسن الأثر فى الذب عن العقائد الدينية الصحيحة وأنموذجا مما نقف عليه من تآليفهم وحال الفرق الإسلامية التى استمرت لذلك العهد والتى نشأت .

٥ — العلم بالعقائد الدينية من مبدأ عهد الغزالى إلى الآن .



وهذه طائفة أخرى من بحوثه رحمه الله العلمية وهى تتناول ما يأتى :

١ - بيان القديم والجديد من مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه وما يتصل بذلك

٢ - بيان الأقوال والأوجه والطرق التى تذكر فى كتب المذهب

٣ - بيان منشأ اختلاف القولين فى المذهب

٤ - بيان كيفية العمل بالأقوال والأوجه المتعارضة .

١ — بيان القديم والجديد

من مذهب الإمام الشافعى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين لإمامنا الشافعى رضى الله عنه مذهبان : قديم وجديد وقد يظن الأخرق أن تعدد المذهب قد يشتم منه رائحة النقص فى علو منزلته ، ورفيع مرتبته . ولو تأمل قليلا وأزاح عن وجه بصيرته ستار الغفلة لعلم أن ذلك يزيد فى شرفه ، وعلو مقامه ، ورفعة درجته فى الدارين إذ لا ينشأ مثله إلا عن شدة الورع والاحتياط فى الدين، ونبذ التعصب للرأى ، والذهاب فى الأحكام الشرعية إلى ما يقتضيه الدليل . وتلك وظيفة المجتهد المطلق فإنه يسير فى استنباط الأحكام مع الدليل أينما سار .

وهو رضى الله عنه من زيادة احتياطه فى دينه لم يكتف بما انتهى إليه أمره فى استنباط الأحكام وتدوين مذهبه بل أوصى وصيته المشهورة وهى (إذا صح الحديث على خلاف قولى فاعملوا به فإنه مذهبى) . وقد رويت هذه الوصية بألفاظ مختلفة والمعنى واحد . وقد عمل بها أصحابه فى بعض المسائل كما يعلم من الاطلاع على كتبهم : «وسيأتى بعض الأمثلة للعمل بها» .

أما القديم فقيل هو ما قاله قبل دخوله مصر ولم يستقر رأيه عليه ، والجديد ما استقر رأيه عليه فى مصر وإن كان قد قاله فى العراق

والمشهور أن القديم ما قاله بالعراق إفتاء وتصنيفا وسمى كتابه الحجة ورواه عنه جم غفير اشتهر من بينهم الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ . والإمام الزعفرانى المتوفى سنة ٢٦٠ والإمام الكرابيسى المتوفى سنة ٢٤٥ والإمام أبو ثور

المتوفى سنة ٢٤٠ . والجديد ماقاله بمصر إفتاء وتصنيفا فإنه لما قدم مصر سنة ١٩٩ وقيل سنة ٢٠٠ وأقام بها ، ظهرت له أدلة فى الفقه لم تكن حاصله له من قبل ، وبلغته أحاديث لم تبلغه حين تدوينه المذهب القديم . دون فى مصر مذهبه الجديد وقد خالف فيه بعض مسائل من مذهبه القديم بما ظهر له من الأدلة التى لم تكن ظاهرة له عند تدوينه المذهب القديم .

فالمذهب الجديد ليس إبطالا للمذهب القديم بالكلية بل معظمه متفق مع المذهب القديم لاخلاف بينهما فى كثير من الأحكام . وإذا نص فى القديم ولم ينص فى الجديد على خلافه فهو معمول به فى الجديد . وما اشتهر من أن الشافعى رجع عن المذهب القديم وقال لاأجعل فى حل من رواه عنى فمحله فى قديم نص فى الجديد على خلافه . أما قديم لم يخالفه فى الجديد أو لم يتعرض له فيه فإنه مذهبه واعتقاده .

قال الإمام النووى فى مقدمة المجموع . (واعلم أن قولهم القديم ليس مذهبا للشافعى أومرجوعا عنه أو لا فتوى عليه المراد به قديم نص فى الجديد على خلافه . أما قديم لم يخالفه فى الجديد أو لم يتعرض لتلك المسألة فى الجديد فهو مذهب للشافعى واعتقاده ويعمل به ويفتى عليه فإنه قاله ولم يرجع عنه . وهذا النوع وقع منه مسائل كثيرة ستأتى فى مواضعها إن شاء الله .وإنما أطلقوا أن القديم مرجوع عنه ولا عمل عليه لكون غالبه كذلك اه) عبارة النووى رضى الله عنه ولعل مراده غالب المسائل الاجتهادية الخلافية . والا فالمعقول أننا لو نسبنا جميع المسائل الفقهية المدونة على المذهب القديم إلى جميع المسائل الفقهية المدونة على المذهب الجديد لوجدناهما متفقين فى معظم المسائل والله أعلم .

الذين تلقوا عنه المذهب الجديد فى مصر :

ثم إن الذى تلقى عنه فى مصر المذهب الجديد عدد لايحصى اشتهر من بينهم ثمانية : الإمام أبو يعقوب البويطى المتوفى سنة ٢٣١ ، والإمام أبو ابراهيم المزنى المتوفى سنة ٢٦٤ ، والإمام الربيع بن سليمان المرادى المتوفى سنة ٢٧٠ والإمام حرملة المتوفى سنة ٢٤٤ ، والربيع الجيزى المتوفى سنة ٢٥٦ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٠ ، وعبد الله بن الزبير المكى المتوفى سنة ٢١٩ ، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ ،

والذى رجع أخيرا إلى مذهب أبيه وهو مذهب مالك . والأربعة الأول هم الذين تصدوا لذلك ، ودونوا نصوصه ، والباقون نقلت عنهم أشياء محصورة : فالبويطى روى عنه المختصر المعروف باسمه وهو موجود لم يطبع ، والربيع المرادى روى عنه الأم وغيره وهو أكثرهم رواية عنه ولذلك قال الشافعى رضى الله عنه الربيع راويتى . وقد عاش بعد وفاة الإمام رضى الله عنه ستا وستين سنة والرواحل تحط على باب داره من جميع الأقطار تنقل علم الشافعى رضى الله عنه ، والمزنى روى عنه مختصره المشهور وجامعيه الكبير والصغير ، وحرملة روى عنه كتابا يعرف باسمه :

قال الإمام النووى فى مقدمة المجموع وفى تهذيب الأسماء واللغات (ومن ذلك مصنفات الشافعى رحمه الله فى الأصول والفروع التى لم يسبق إليها كثرة وحسنا وهى كثيرة مشهورة كالأم فى نحو خمسة عشر مجلدا وهو مشهور ، وجامعى المزنى الكبير والصغير ، ومختصريه ومختصر الربيع والبويطى وكتاب حرملة وكتاب الحجة وهو القديم والرسالة الجديدة والرسالة القديمة والأمالى والإملاء وغير ذلك وقد جمعها البيهقى فى باب من كتابه فى مناقب الشافعى قال القاضى الإمام أبو محمد الحسن بن محمد المروزى فى خطبة تعليقه قيل إن الشافعى رحمه الله صنف مائة وثلاثة عشر كتابا فى التفسير والفقه والأدب وغير ذلك .

وأما حسنها فأمر يدرك بمطالعتها فلا يتمارى فيه موافق ولا مخالف . وأما كتب أصحابه التى هى شروح لنصوصه ومخرجة على أصوله ومفهومة من قواعده فلا يحصرها إلى الله تعالى . مع عظم فوائدها وكثرة عوائدها وكبر حجمها وحسن ترتيبها ونظمها كتعليق الشيخ أبى حامد الإسفراينى ، وصاحبيه القاضى أبى الطيب الطبرى والماوردى صاحب الحاوى ونهاية المطلب لإمام الحرمين وغيرها مما هو معروف . وكل هذا مصرح بغزارة علمه وجزالة كلامه وبلاغته وبراعة فهمه وصحة نيته وحسن طويته اه المقصود من عبارة النووى . أقول ومما يقضى منه العجب ويعد من غرائب الأمور وبدائع الدهور أن تدوين الإمام الشافعى رضى الله عنه لمذهبه الجديد ، وتصنيفه لمعظم المصنفات التى ذكرناها وذكرها النووى إنما حصل كله فى مدة لا تتجاوز أربع سنوات فإنه رضى الله عنه ونفعنا بعلومه دخل

مصر كما بينا سابقا سنة ٢٠٠ وتوفى رحمه الله سنة ٢٠٤ . ومثل هذه المدة كانت مقررة فى أنظمة الجامع الأزهر لتدريس كتاب شرح المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى . ومع ذلك لم يكن المدرس يستطيع إتمام قراءته فيها. فسبحان واهب العقول ومانح البركات لا إله إلا هو العليم الخبير القوى العزيز .

ومما ينبغى أن يعلم أن الذى اشتهر من بين كتب الشافعى واعتنى به الأولون ويصح أن يعتبر أساسا لمذهبه هو مختصر المزنى فإنك لا تكاد تجد كتابا من كتب المتقدمين من الفقهاء الشافعية إلا وهو شرح عليه . ومن أشهرها تعليق أبى حامد الاسفرايني وليس موجودا الآن فيما نعلم وشرح القاضى أبى الطيب ، والحاوى الكبير للماوردى وهما من أنفس الكتب وموجودان فى دار الكتب المصرية ونهاية إمام الحرمين ويوجد منها بعض أجزاء .

ثم إن أصحاب الشافعى الذين نقلوا عنه المذهب الجديد قد يجتهد الواحد منهم فى بعض الفروع ويخالف إمامه فى أصوله وقواعده ويكون ذلك مذهبا له دون إمامه أما إذا كان اجتهاده تخريجا واستنباطا من قواعد الإمام فهو ملتحق بالمذهب بل يكون أولى من تخريج من جاء بعده .

قال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات : (صنف المزنى كتابا مفرداً على مذهبه لا على مذهب الشافعى ذكره أبو على البندنيجى فى كتابه الجامع فى آخر باب الصلاة بالنجاسة قال إمام الحرمين فى باب ماينقض الوضوء من النهاية وذهب المزنى إلى إلى أن النوم فى عينه حدث ناقض الوضوء كيف فرض وطرد مذهبه فى القاعد المتمكن وألحقه بجهات الغلبة على العقل. وخرج ذلك قولا للشافعى. قال وإذا انفرد المزنى برأى فهو صاحب مذهب، وإذا خرج للشافعى قولا فتخريجه أولى من تخريج غيره ، وهو ملتحق بالمذهب لامحالة . وقال الرافعى فى باب الخلع فى مسألة خلع الوكيل وفيما علق عن إمام الحرمين أنه قال أرى كل اختيار للمزنى تخريجا فإنه لايخالف أقوال الشافعى لا كأبى يوسف ومحمد فإنهما يخالفان أصول صاحبهما اه) عبارة النووى فى التهذيب ولايخفى أن بين عبارة الرافعى المنقولة عن إمام الحرمين وبين ما نقله عن النووى فى صدر العبارة شبه تناف. قال ابن السبكى فى الطبقات بعد أن نقل عن الرافعى وإمام الحرمين كلاما متنافيا كالسابق ما نصه . وينبغى أن يكون الفضل فى المزنى أن تخرجاته معدودة من المذهب لأنها على قاعدة الإمام الأعظم ، وأما اختياراته الخارجة عن المذهب فلاوجه بعدها منه ألبته اه المقصود منه .

هذا حال أصحاب الشافعي الذين جالسوه ونقلوا عنه المذهب مباشرة . وجاء بعدهم فقهاء الشافعية طبقة بعد طبقة قد خرجوا أقوالا واستنبطوا أوجها . ويعرف هؤلاء بأصحاب الوجوه، وهم مجتهدوا المذهب كأبي القاسم الأنماطي المتوفى سنة ٢٨٨ وهو صاحب المزني والربيع ، والذي اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد ، وأبي العباس ابن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ تفقه على الأنماطي ، وأبي الطيب بن سلمة المتوفى سنة ٣٥٨ وأبي سعيد الاصطخري المتوفى سنة ٣٢٨ ، وأبي العباس ابن القاص صاحب التلخيص المتوفى سنة ٣٣٥ وأبي اسحق المروزي المتوفى سنة ٣٤٠ وله شرح على المختصر وأبي على ابن أبي هريرة المتوفى سنة ٣٤٥ وله شرح على المختصر أيضا . وغيرهم أكثر من أن يحصر .

ثم إن الذي يفهم من كلام النووي فى مقدمة المجموع وابن حجر فى الفتاوى أن هذه المرتبة وهي مرتبة أصحاب الوجوه والاجتهاد فى المذهب ، إنما هى للفقهاء الشافعية إلى المائة الرابعة : وأما من جاء بعدهم فلا يعدون من أصحاب الوجوه ولا من مجتهدي المذهب بل هم مجتهدون فى الفتوى فقط، وذلك كإمام الحرمين والغزالي والقاضي أبي الطيب وأبي اسحق الشيرازي وسيأتي الفرق بين المرتبتين .

وفى المائة الرابعة جاء الشيخ أبو حامد الإسفراييني شيخ العراقيين فإنه توفى سنة ٤٠٦ وكان أثبت وأنظر فقيه وعلق على المختصر المزني تعليقا فى نحو خمسين مجلدا جمع فيه كما قال النووي فى التهذيب من النفائس مالم يشارك فى مجموعه من كثرة المسائل والفروع ، وذكر مذاهب العلماء وبسط أدلتها والجواب عنها .

وأخذ عنه الفقه جماعة لايحصون حتى قيل إنه كان يحضر درسه ستمائة متفقه ، وتبعه فى تدوين الفقه جماعة كثيرة أخصهم أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ وهو صاحب الحاوي الكبير شرح المختصر كما أسلفنا ، والقاضي أبو الطيب الطبري المتوفى سنة ٤٥٠ والقاضي أبو على البندنيجي المتوفى سنة ٤٢٥ والمحاملي صاحب المجموع والمقنع والتجريد المتوفى سنة ٤١٥ وسليم الرازي . وهؤلاء قد سلكوا طريقته فى تدوين الفقه سميت طريقة العراقيين .

وجاء أيضا فى تلك السنة القفال الصغير المروزي شيخ الخراسانيين ، واشتهر بالتدوين فى الفقه وتبعه جماعة لايحصون أيضا أخصهم أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٣٨ والفوراني صاحب الإبانة المتوفى سنة ٤٦١ والقاضي حسين المتوفى

سنة ٤٦٠ وسلكوا طريقة فى تدوين الفقه سميت طريقة الخراسانيين :

قال فى المجموع واعلم أن نقل أصحابنا العراقيين لنصوص الشافعى وقواعد مذهبه ووجوه متقدمى أصحابنا أتقن وأثبت من نقل الخراسانيين غالبا والخراسانيون أحسن تصرفا وبحثا وتفريعا وترتيبا غالبا اه .

وقد انتهى فقه الشافعى إلى هاتين الطريقتين كما أن كتب التدوين المعتبرة انتهت إليهما وكان مثلهما فى فقه الشافعية كمثل الكوفيين والبصرين فى علم النحو واستمرت هاتان الطريقتان حتى جاء مثل الرويانى صاحب البحر المتوفى سنة ٤٥٢ وابن الصباغ صاحب الشامل المتوفى سنة٤٧٧ ، والشاشى صاحب الحلية المتوفى سنة٥٠٥ والمتولى صاحب التتمة وإمام الحرمين صاحب النهاية المتوفى سنة٤٤٨ والغزالى صاحب البسيط والوسيط الوجيز المتوفى سنة٥٠٥ فدونوا الفقه وجمعوا بين الطريقتين مع أن الثلاثة الأول عراقيون والباقى خراسانيون . وربما يعتمد كل غير طريقة فى الفروع .

ثم جاء بعض المتأخرين فاستمدوا الأحكام تارة مما اجتهد فيه أصحاب الشافعى وخالفوه وتارة من أوجه للأصحاب شاذة مخالفة لما عليه معظمهم فكانت الحالة بعد ذلك داعية لمن يحرر المذهب ، ويميز أقوال المجتهد من أوجه أصحابه ويرجح مايراه راجحا بقوة الدليل من أقوال المجتهد المختلفة وأوجه أصحابه المتعددة ويبين الشاذ منها والضعيف .

فقيض الله سبحانه وتعالى له الحمد والمنة لهذا المذهب الشيخين الجليلين الإمام الرافعى والإمام النووى رضى الله عنهما فحررا المذهب تمام التحرير ورجحا من الأقوال والأوجه والطرق ماظهر لهما رجحانه بقوة الدليل .

فجاء الإمام الرافعى فى القرن السادس فإنه ولد سنه ٥٥٨ وتوفى سنه٦٢٤ وشرح كتاب الوجيز للغزالى بشرحين الصغير والكبير : وشرحه الكبير هذا من أنفس الكتب وكان إذا أطلق الكتاب فى فقه الشافعية انصرف إليه وحرر كتابه المحرر من الوجيز

ثم جاء الإمام النووى فى القرن السابع فإنه ولد سنة٦٣١ وتوفى سنة٦٧٦ وحرر كتابه الروضة من الشرح الكبير للرافعى وبين اعتمادا لم يذكره الإمام الرافعى، وحرر كتابه المنهاج من المحرر ، وشرح المهذب لأبى اسحق الشيرازى سماه المجموع ولم

يكمل وصل فيه إلى أثناء الربا ولو كمل لأغنى عن جل كتب المذهب . وله كتب أخرى فى الفقه لم تكمل كالتحقيق .

فرتبة الشيخين فى المذهب هى الترجيح والاعتماد ، وفيما سبق بينا مرتبة أصحاب الوجوه والاجتهاد فى المذهب ، ومرتبة الاجتهاد فى الفتوى .

وجاء مَن بعدهما وعوَّل أكثرهم على متن المنهاج فشرحه الجم الغفير ، اشتهر منها فى هذا الزمن تحفة المحتاج للإمام ابن حجر المتوفى سنة ٩٧٤ ، ونهاية المحتاج للإمام شمس الدين الرملى المتوفى سنة ١٠٠٤ ومغنى المحتاج للعلامة الخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٥ وشرح المحقق جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ ، واختصر المنهاج شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى كتاب سماه المنهج حذف منه الخلاف واقتصر فيه على المعتمد ثم شرحه ويكاد يكون هو المعول عليه فى هذا الزمن .

ومن هؤلاء المتأخرين من شرح كتبا لمن قبل الشيخين كابن الرفعة المتوفى سنة ٧٣٥ شرح كتاب الوسيط للغزالى وسماه المطلب العالى ، وهو كتاب كبير الحجم نفيس وموجود بدار الكتب المصرية ، وشرح التنبيه لأبى اسحق الشيرازى وسماه الكفاية ، والقمولى شرح الوسيط أيضا وسماه البحر المحيط وابن قاسم الغزى وابن قاسم العبادى المتوفى سنة ٩٩٤ ، والخطيب الشربينى المتوفى سنة ٩٧٥ شرحوا متن الغاية والتقريب للقاضى أبى شجاع وهو قبل الشيخين .

ثم إن المتأخرين منهم من اعترض على اعتماد الشيخين وترجيحهما كالأسنوى المتوفى سنه ٧٧٧ فإنه ألف كتابا فى الاعتراض عليهما وسماه المهمات على الرافعى والروضة وسماه أيضا التناقض الكبير . ولكن المحققون منهم على أن المفتى به فى المذهب مارجحاه واعتمداه فإن اختلفا فما يرجحه النووى رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الإيعاب شرح العباب عند قول المصنف (جازما بما رجحه الشيخان الرافعى والنووى ثم مارجحه النووى فى الأغلب منبها غالبًا على ما خالفا فيه الأصوب) مانصه : أى بحسب ماظهر له تقليدا محضا لبعض المتأخرين ولو حقق ونظر فى المدارك والمآخذ لما قلدهم فى ذلك كأكثر المتأخرين . والرأى أن الأصوب ماعليه الشيخان أو النووى ، وأن كلا منهما أدرى بمدارك المذهب ممن جاء بعده وأنه الحقيق بقول الشاعر :

إذا قالت حزام فصدقوها فإن القول ما قالت حزام

وقد أجمع المحققون على أن المفتى به ماذكراه فالنووى ـ وأنه لايغتر بمن يعترض عليها بنص الأم أو كلام الأكثرين أو نحو ذلك لأنهما أعلم بالنصوص وكلام الأصحاب من المعترض عليهما فلا يخالفاه إلا لموجب علمه من علمه وجهله من جهله انتهت عبارة شرح العباب . وقد أجاب العلامة ابن حجر فى فتاويه الكبرى عن السؤال عما إذا اختلف ترجيح المتأخرين والشيخين ما المعتمد عليه فى ذلك بما لايخرج عما ذكره فى شرح العباب . ومما قاله فى فتواه هذه « فوجب اتباع ترجيحهما لأنهما اللذان أجمع من جاء بعدهما على أنهما بلغا فى التحرى والاحتياط والحفظ والتحقيق والولاية والمعرفة والتحرير والتنقير مبلغا لم يبلغه أحد ممن جاء بعدهما فكان اعتمادقولهما هو الأحرى والأحق . والاعراض عن مخالفيه هو الأولى بكل شافعى لم يصل لرتبة من مراتب الاجتهاد . ثم قال . والحاصل أن المعتمد عليهما إن اتفقا ، وإلا فعلى النووى رحمهما الله . مالم يجمع المتأخرون على أنهما وقعا فى سهو أوغلط فحينئذ يعرض عما قالاه . وأين نجد موضعا اتفق المتأخرون على ذلك اه المقصود منه » .

فإذا كان حال المتأخرين عن الشيخين على ماذكره العلامة ابن حجر فرتبتهم هى التقليد المحض والنقل المجرد من غير أن يكون لهم ترجيح ولااعتماد وحينئذ تكون مزية بعضهم على بعض والتفاوت فيما بينهم بإحكام التلخيص لكلام من قبلهما وتبيينه على وجهه . والجمع بين ما قد يكون ظاهره التنافى وحفظ أحكام المذهب على ماحرره الشيخان . وتكون مرتبتهم فى المذهب هى المرتبة الرابعة. وأظن أن مثل الأسنوى من المتأخرين عن الشيخين لا يرضى لنفسه هذه المرتبة من الوجهة العلمية . وإن رضيها من الوجه الدينية . وعدم تحمل التبعة فقد نقل عنه أنه كان يعترض على الشيخين ويفتى برأيهما .

ثم إنه من ذلك الزمن الذى جاء فيه المتأخرون عن الشيخين إلى زماننا هنا وقف الفقه عندهذا الحد فلم يوجد لفقهاء الشافعية المتأخرين عمن ذكرنا إلا حواش وتقريرات على الشروح التى بيناها . فشرح المنهج عليه حواش لاتعد ، اشتهر منها حاشية البجيرمى والجمل، وشرح الرملى على المنهاج عليه حاشيتان للشبراملسى والرشيدى وتحفة ابن حجر عليها حواش لابن قاسم والشروانى والبصرى، وشرح ابن قاسم الغزى على أبى شجاع عليه حاشيتان للبرماوى والباجورى وعلى الأول تقرير

للشمس الأنبابى. وشرح الخطيب على متن الغاية عليه حواش للدابغى والبجيرمى والنبراوى والشيخ عوض، وشرح المحلى على المنهاج عليه حاشيتان للقليوبى وعميرة . ثم إن هذه الحواشى إذا استثنيت منها ما كان متعلقا بفهم عبارات الشروح التى كتبت عليها لا تجد فيها من الوجيهة الفقهية إلا نقل بعضهم عبارة بعض أو نقل عبارة شرح آخر غير ما كتب عليه كحاشية العلامة ابن قاسم على شرح التحفة لابن حجر .

فتحرر لنا مما تقدم أن مراتب فقهاء الشافعية الذين جاءوا بعد أصحابه أربعة: فإذا ضم اليها مرتبتان لأصحاب الشافعى الذين جالسوه، ونقلوا عنه المذهب مباشرة كانت المراتب ستة ونحن نوردها لك مفصلة ملخصة كما ذكرها الامام النووى فى مقدمة المجموع مع التلخيص لبعض عباراته والاقتصار على المهم المقصود فى هذا المقام فأقول :

المفتى قسمان مستقل وغير مستقل : فالمستقل وهو المجتهد المطلق الذى يتأدى به فرض الكفاية شرطه أن يكون عارفا معرفة تامة بأدلة الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس وما التحق بها على التفصيل وأن يكون عالما بوجوه دلالتها على ما قرر فى علم أصول الفقه ، وأن يكون عالما بعلوم القرآن والحديث والناسخ والمنسوخ والنحو واللغة والتصريف واختلاف العلماء واتفاقهم بالقدر الذى يتمكن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس منها وأن يكون ذا دربة وارتياض فى استعمال ذلك ، ضابطا لأمهات مسائل الفقه وتفاريعه حافظا لمعظم الأحكام بحيث يتمكن من إدراك باقيه عن قرب . وهذا شرط فى المفتى المستقل دون المجتهد والصحيح اشتراط معرفة الحساب .

وغير المستقل وهو المنتسب إلى أحد المذاهب المتبوعة له أحوال أربعة :

الحالة الأولى : أن لا يكون مقلدا لا فى المذهب ولا فى دليله لاتصافه بصفة المستقل وإنما ينسب إليه لسلوكه طريقه فى الاجتهاد .

وفتوى المفتى فى هذه الحالة كفتوى المستقل فى العمل والاعتداد بها فى الاجماع والخلاف .

الحالة الثانية . أن يكون مجتهدا مقيدا فى مذهب إمامه مستقلا بتقرير أصوله بالدليل ، غير أنه لا يتجاوز فى الدليل أصول إمامه وقواعده . وشرطه كونه عارفا بالفقه وأصوله وأدلة الأحكام تفصيلا بصيرا بمسالك الأقيسة والمعانى تام الارتياض فى التخريج والاستنباط قيما بما ليس منصوصا عليه لإمامه بأصوله ولا يعرى

عن شوب تقليد لإخلاله ببعض أدوات المستقل ثم يتخذ نصوص إمامه أصولا يستنبط منها كفعل المستقل بنصوص الشرع . وربما اكتفى فى الحكم بدليل إمامه ولا يبحث عن معارض كفعل المستقل فى النصوص .قال وهذه صفة أصحابنا أصحاب الوجوه وعليها كان أئمة أصحابنا أو أكثرهم . والعامل بفتوى هـذا مقلد لإمامه لاله . والظاهر تأدى الفرض به .

الحالة الثالثة : أن لا يبلغ رتبة أصحاب الوجوه لكنه فقيه النفس حافظ لمذهب إمامه عارف بأدلته قائم بتقريرها يصور ويحرر ويقرر ويمهد ويزيف ويرجح لكنه قصر عن أولئك لقصوره عنهم فى حفظ المذهب أو الارتياض فى الاستنباط أو معرفة الأصول ونحوها من أدواتهم .

قال النووى وهذه صفة كثير من المتأخرين إلى أواخر المائة الرابعة المصنفين الذين رتبوا المذهب وحرروه وصنفوا فيه تصانيف فيها معظم اشتغال النـاس اليوم . ولم يلحقوا الذين قبلهم فى التخريج ، وأما فتاويهم فكانوا يتبسطون فيها تبسط أولئك أو قريبا منه ، ويقيسون غير المنقول عليه ، غـير مقتصرين على القياس الجلى . ومنهم من جمعت فتاويه ولا تبلغ فى التحاقها بالمذهب مبلغ فتاوى أصحاب الوجوه .

الحالة الرابعة : أن يقوم بحفظ المذهب ونقله وفهمه فى الواضحات والمشكلات ولكنه عنده ضعف فى تقرير أدلته أو تحرير أقيسته . والمراد حفظ المعظم بحيث يتمكن من إدراك الباقى على قرب . فهذا يعتمد نقله وفتواه فيما يحكيه من مسطورات مذهبه من نصوص إمامه وتفريع المجتهدين فى مذهبه، وما لم يجده منقولا إن وجد فى المنقول معناه بحيث يدرك بغير كبير فكر أنه لا فرق بينهما جاز إلحاقه به والفتوى به . وكذا ما يعلم اندراجه تحت ضابط ممهد فى المذهب ، وما ليس كذلك يجب إمساكه عن الفتوى فيه، ومثل هذا يقع نادرا فى حق المذكور إذ يبعد كما قال إمام الحرمين أن يقع مسألة لم ينص عليها فى المذهب ، ولا هى فى معنى المنصوص ولا مندرجة تحت ضابط .

ثم قال : هذه أصناف المفتين وهى خمسة . وكل صنف منها يشترط فيه حفظ المذهب ، وفقه النفس . فمن تصدى للفتيا وليس بهذه الصفة فقد باء بأمر عظيم . ولقد قطع إمام الحرمين بأن الأصولى الماهر المتصرف فى الفقه لا يحل له الفتوى

بمجرد ذلك ولو وقعت له واقعة لزمه أن يسأل عنها ؛ ويلتحق به المتصرف النظار البحاث من أئمة الخلاف وفحول المناظرين لأنه ليس أهلا لإدراك حكم الواقعة استقلالا لقصور آلته ، ولا من مذهب إمام لعدم حفظه له على الوجه المعتبر .

ثم قرر رضي الله عنه أن من حفظ كتابا أو أكثر فى المذهب وهو قاصر لم يتصف بصفة أحد ممن سبق ، ولم يجد العامى فى بلده غيره لا يجوز له الرجوع إلى قوله بل إن كان فى غير بلده مفت يجد السبيل إليه وجب التوصل إليه بحسب إمكانه . فإن تعذر عليه ذلك ذكر مسألته للقاصر فإن وجدها بعينها فى كتاب موثوق بصحته وهو ممن يقبل خبره نقل له حكمها بنصه وكان العامى فيها مقلدا صاحب المذهب وإن لم يجدها مسطورة لم يقسها على مسطور عنده ، وإن اعتقده من قياس لافارق فإنه قد يتوهم ذلك فى غير موضعه .

فإن قيل هل لمقلد أن يفتى بما هو مقلد فيه . قلنا قطع أبو عبدالله الحليمى ، وأبو محمد الجوينى ، وأبو المحاسن الرويانى وغيرهم بتحريمه . وقال القفال المروزى يجوز . قال أبو عمرو . قول من منعه معناه لايذكره على صورة من يقوله من عند نفسه بل يضيفه إلى إمامه الذى قلده ـ فعلى هـــذا من عددناه من المفتين المقلدين ليسوا مفتين حقيقة لكن لما قاموا مقامهم وأدوا عنهم عدوا معهم . وسبيلهم أن يقولوا مثلا : مذهب الشافعى كذا أو نحو هذا ، ومن ترك منهم الإضافة فهو اكتفاء بالمعلوم من الحال عن التصريح به ، ولا بأس بذلك . وذكر الحاوى فى العامى اذا عرف حكم حادثة بناء على دليلها ثلاثة أوجه : أحدها يجوز أن يفتى به ويجوز تقليده لأنه وصل الى علمه كوصول العالم . والثانى يجوز إن كان دليلها كتابا أوسنة ، ولايجوز إن كان غيرهما . والثالث لايجوز مطلقا وهو الأصح والله أعلم اهـ .

* * *

٢ ـ الأقوال والأوجه ، والطرق

من يطلع على كتب الفقهاء الشافعية خصوصا كتب المتقدمين منهم التى تحكى خلافات المذهب يعلم أنها اشتملت على كثير من الأقوال القديمة المخالفة لما فى الجديد ، ويعلم أيضا أنه ، قد يكون للإمام فى المسألة الواحدة قولان فى الجديد أو القديم . وأن الأصحاب قد خرّجوا أقوالا ، واستنبطوا أوجها ، وقد تكون

مخالفة لأقوال الإمام كما أنها قد تكون متعددة فى المسألة الواحدة لقائل واحد أوأكثر وكذلك يعلم أنها اشتملت على طرق مختلفة فى نقل المذهب .

فينبغى أن نوضح حقيقه القول سواء كان قديما أو جديدا ، وسواء كان منصوصا أو مخرجا وكيفية التخريج ، وحقيقه الوجه ، والفرق بينه وبين القول المخرج ، وحقيقة الطريق . ثم نتكلم على وجه نسبة الأقوال المخرجة وأوجه الأصحاب إلى الشافعى ، أو إلى مذهبه ثم نبين منشأ اختلاف الأقوال ، وتنوع التخريج والأوجه والطرق . ثم نبين ما يجب الإفتاء والقضاء والعمل به من هذه الأقوال والأوجه والطرق إذا تعارضت فى المسألة الواحدة وبالله التوفيق .

(القول المنوص والمخرج وكيفية التخريج)

أما القول : فالمنصوص منه هوما قاله الإمام الشافعى رضى الله عنه ونص عليه فى كتبه أوروى عنه وهو قديم وجديد . فالقديم كما سبق هو ماقاله بالعراق أفتاء وتصنيفا ، والجديد ماقاله بمصر كذلك . والمخرج هوما خرجه أصحابه المجتهدون فى المذهب . وكيفية التخريج كما قاله الرافعى فى باب التيمم أن يجيب الشافعى بحكمين مختلفين فى صورتين متشابهتين ولم يظهر مايصلح للفرق بينهما ، فينقل الأصحاب جوابه من كل صورة إلى الأخرى فيحصل فى كل صورة منهما قولان : منصوص ومخرج . المنصوص فى هذه هو المخرج فى تلك والمنصوص فى تلك هو المخرج فى هذه وحينئذ فيقولون قولان بالنقل والتخريج أى أن فى كل صورة قولا منصوصا وآخر مخرجا .

وكذلك قال الإمام النووى رضى الله عنه فى مقدمة المجموع وعبارته فإن نص إمامه على شيء ونص فى مسألة تشبهها على خلافه فخرج من أحدهما إلى الآخر سمى قولا مخرجا وشرط هذا التخريج أن لا يوجد بين نصيه فرق . فإن وجد وجب تقريرهما على ظاهرهما . ويختلفون كثيرا فى القول بالتخريج لاختلافهم فى إمكان الفرق . قلت وأكثر ذلك يمكن فيه الفرق وقد ذكروه اه .

يعنى أن الغالب فى مثل هـــذه الحالة عدم إطباق الأصحاب على التخريج بل ينقسمون إلى فريقين فريق يخرج وفريق يمتنع ويستخرج فارقا بين الصورتين ليستند إليه .

وعبارة الرافعى فى الشرح الكبير : المسألة الثالثة أن تكون بين المرتبتين وتزيد

المسافة على التى يتردد المسافر إليها لحاجاته ولا ينتهى إلى حد خروج الوقت فهل يلزمه السعى إليه أم يجوز له التيمم ؟ نص الشافعى على أنه إذا كان على يمين المنزل أو يساره يلزمه السعى إليه ولا يجوز له التيمم . وفيما إذا كان على صوب مقصده أنه لا يجب السعى إليه وله التيمم ـ فاختلف الأصحاب فيه على طريقتين : إحداهما تقرير النصين والثانية جعل المسألة على قولين نقلاً وتخريجا .

ولنبين أولا معنى قول المذهبيين فى المسألة قولان بالنقل والتخريج فنقول : إذا ورد نصان عن صاحب المذهب مختلفان فى صورتين متشابهتين ولم يظهر بينهما ما يصلح فارقا فالأصحاب يخرجون نصه فى كل واحدة من الصورتين فى الصورة الأخرى لاشتراكهما فى المعنى فيحصل فى كل واحدة من الصورتين قولان منصوص ومخرج . المنصوص فى هذه هو المخرج فى تلك ، والمنصوص فى تلك هو المخرج فى هذه فيقولون فيهما قولان بالنقل والتخريج . أى نقل المنصوصُ إلى تلك وخرج فيها وكذلك بالعكس .

هذا معنى القول المخرج وكيفية التخريج على ما قاله الشيخان ومقتضاه أن التخريج خاص بمسألتين متشابهتين قد نص الشافعى فى كل منهما على خلاف ما نص عليه فى الأخرى وأنه لا يكون فى مسألة لم ينص على حكمها ولكنه نص على حكم نظيرها .

ومقتضى عبارة ابن السبكى فى جمع الجوامع وشرحه للمحقق المحلى وكذا الزركشى فى البحر المحيط أن التخريج هو إلحاق هذه المسألة التى لم ينص على حكمها بنظيرها المنصوص عليه . وعبارة جمع الجوامع مع شرحه وإن لم يعرف للمجتهد قول فى مسألة لكن يعرف له قول فى نظيرها فهو أى قوله فى نظيرها قوله المخرج فيها على الأصح . أى خرجه الأصحاب فيها إلحاقا لها بنظيرها . وقيل ليس قولا له فيها لاحتمال أن يذكر فرقا بين المسألتين لو روجع فى ذلك اه المقصود منه .

وعبارة الزركشى فى البحر إذا لم يعرف للمجتهد قول فى المسألة لكن له قول فى نظيرها ولم يعلم بينهما فرق فهو القول المخرج كما قاله ابن كج والماوردى وغيرهما اه المقصود منه .

ثم لا يمكن قصر التخريج على ما ذكراه فقط من غير أن يكون صادقا على ما ذكره الشيخان لأن التخريج فى مسألتين متشابهتين قد نص الشافعى عليهما بحكمين مختلفين موجود فى المذهب قطعا . فإن صح ما ذكره ابن السبكى

والزركشى فلابد أن يضم إلى ماذكره الشيخان فى معنى التخريج وتكون خلاصته حينئذ قياس إحدى المسألتين المتشابهتين على الأخرى سواء أكان مع العكس بأن يقاس المقيس عليه على المقيس أيضا. وذلك إذا كان كل من المسألتين المتشابهتين منصوصا عليها بحكم مخالف لحكم الأخرى فيكون فى كل منهما قولان : منصوص ومخرج . أو يكون ذلك من غير عكس . وذلك إذا كان المنصوص عليه إحدى المسألتين فقط فيكون فى إحداهما قول منصوص فقط ، وفى الأخرى وهى التى لم ينص عليها قول مخرج فقط .

« الأوجه »

أما الأوجه فهى الأحكام التى استنبطها الأصحاب . ثم تارة تستنبط من نص معين للإمام كأن يقيس ما سكت عنه على ما نص عليه لوجود معنى ما نص عليه فيما سكت عنه سواء نص إمامه على ذلك المعنى ، أو استنبط من كلامه . وتارة يستنبط أى يستخرج حكم المسكوت عنه من دخوله تحت عموم ذكره الإمام ، أو قاعدة قررها . وتارة تستنبط من نصوص الشارع مباشرة لكن يتقيد المستنبط بالجرى على طريقة الإمام فى الاستدلال ومراعاة قواعده وشروطه ، وتارة تستنبط من نصوص الشارع مباشرة من غير مراعاة أصول الإمام وقواعده كذا يؤخذ من المجموع وشروح المنهاج ، والآيات البينات على جمع الجوامع .

والمفهوم من كلام الزركشى فى البحر أن الوجه هو المستخرج من القواعد العامة فقط دون القول المخرج فإنه على النحو الذى سيق عنه . وعبارته (فرع الأوجه المحكية عن الأصحاب هل تنسب إلى الشافعى ؟ لم أر لهم فيها كلاما ويشبه تخريجها على التى قبلها (يعنى فى القول المخرج) ويكون على طريق الترتيب وأولى بالمنع لأنهم يخرجونها على قواعد عامة . والقول المخرج إنما يكون فى صورة خاصة اه) .

(الفرق بين القول المخرج والوجه)

أما الفرق بين القول المخرج على ظاهر ما قاله الشيخان من اختصاصه بالمسألتين المتشابهتين المنصوص عليهما بحكمين مختلفين وبين الوجه فواضح لأنهما متباينان . وبضم ما فهم من جمع الجوامع والبحر إلى ما قالاه يكون بينهما العموم والخصوص الوجهى يجتمعان فى الصورة الأولى من صور الوجه وهو قياس المسكوت عنه على

المنصوص عليه ، وينفرد الوجه فى باقى الصور وينفرد القول المخرج فى الصورتين المتشابهتين المنصوص عليهما بحكمين مختلفين .

هذا إذا قصرنا الصورة الأولى من صور الوجه على استنباط ما سكت عنه الإمام من نص معين كما هو ظاهر قولهم فى التمثيل كأن يقيس الخ . فإن عممنا فى الاستنباط من نص معين وجعلناه شاملا لاستنباط حكم المسكوت عنه ولاستنباط حكم المنصوص عليه بحكم آخر خلاف ما يراد استنباطه ، ويكون قولهم كأن يقيس الخ لمجرد التمثيل فالوجه أعم مطلقا .

وعلى كلام الزركشى فى معنى الوجه يكون بينهما التباين ، وتكون الصورة الأولى من صور الوجه من قبيل التخريج فقط والمشهور هو الأول .

ثم لا يترتب على هذا الخلاف ثمرة غير التسمية فقط فإن حقائقها مقررة فى المذهب ، وإنما الخلاف فى أن هذا يسمى وجها أو قولا مخرجا والله أعلم .

فإن قلت بل يترتب عليه ثمرة فإنهم قالوا إذا تعارض القول المنصوص والمخرج قدم المنصوص إلا إذا كان المخرج من مسألة يتعذر فيها الفرق فيحتمل تقديم المخرج على المنصوص ولم يقولوا هذا فى الوجه مع القول المنصوص . قلت التعارض إنما يتصور فى المسألتين المتشابهتين المنصوص عليهما بحكمين مختلفين . وهى من قبيل التخريج قطعا كما سبق .

والخلاصة أن الاحكام الشرعية المدونة فى مذهب السادة الشافعية تنحصر فى ستة أنواع .

النوع الاول : أحكام استنبطها الإمام الشافعى رضى الله عنه ونص عليها وهى المعبر عنها بالأقوال المنصوصة .

النوع الثانى : أحكام استنبطها الأصحاب فى مسألتين متشابهتين قد نص الشافعى فيهما على حكمين مختلفين ، وهذا يعبر عنها بالأقوال المخرجة .

النوع الثالث : أحكام استنبطها الأصحاب فى مسألة مسكوت عنها من نص معين للإمام وهذه قيل من قبيل الأقوال المخرجة ومن قبيل الأوجه أيضا وقيل من قبيل واحد منهما فقط .

النوع : الرابع : أحكام استنبطها الأصحاب من دخولها تحت عموم ذكره الإمام ، أو قاعدة قررها .

النوع الخامس : أحكام استنبطها الأصحاب من الأدلة الشرعية مباشرة مع الجرى على طريقة الإمام فى الاستدلال ، ومراعاة قواعده وأصوله .

النوع السادس : أحكام استنبطها الأصحاب من الأدلة الشرعية من غير مراعاة أصوله وقواعده ، وهذه الأنواع الأخيرة الثلاثة من قبيل الأوجه قطعا والله أعلم .

« الطريق »

وأما الطريق فهى حكاية نقل المذهب وقد تختلف كأن يحكى بعضهم فى المسألة قولين . أو وجهين ، والبعض الآخر قولا واحدا أو وجها واحدا . وقد يعبرون قليلا عن الطريقين بالوجهين وبالعكس والله أعلم .

هذا ما يتعلق ببيان حقيقة القول والوجه والطريق وكيفية التخريج والفرق بين الوجه والقول المخرج . وسنشرع فى وجه نسبة الأقوال المخرجة والأوجه إلى الشافعى أو إلى مذهبه .

« نسبة الأقوال المخرجة والأوجه إلى الشافعى أو إلى مذهبه »

أما النوع الأخير وهو ما استنبطه الأصحاب من الأدلة الشرعية من غير مراعاة أصول الإمام وقواعده فلا ينسب إليه ولا إلى مذهبه قطعا إذ لا وجه للنسبة بحال من الأحوال . وإنما تنسب إلى مستنبطها ويكون مجتهدا مطلقا بالنسبة إليها . وأما باقى صور الوجه والأقوال المخرجة فالذى يقتضيه النظر الصائب والفكر الدقيق أننا إذا أردنا بنسبتها إليه أنه قالها ونص عليها أو ذهب إليها واعتقدها بخصوصها ، فذلك لايصح لأنه كذب محض ، فإنه لم ينص عليها ولم يستنبطها ، وإن أردنا بنسبتها إليه أنه قال ما يفيدها سواء بالنص على نظيرها أو بقواعد وأصول قررها سواء كانت تلك الأصول والقواعد أفادتها مباشرة أو نفعت فى إفادة الأدلة الشرعية لها . فذلك صحيح لا ينبغى أن يختلف فيه إثنان . نعم إن إفادة ماقاله رضى الله عنه لهذه الأمور إنما هى بحسب رأى المستنبط واجتهاده فتارة يكون صوابا وتارة يكون خطأ على نحو اجتهاد المجتهدين المطلقين من نصوص الشارع فإن الكل يرى أن ما استنبطه مستفاد من نصوص الشارع ، وقد يكون صوابا وقد يكون خطأ . وذلك لا يقدح فى النسبة بهذا المعنى .

وهذا الذى قررنا يستوى فيه ما يسمى قولا مخرجا ، وما يسمى وجها . عدا الصورة الأخيرة منه لأنهما يستويان فى عدم النص عليهما بخصوصهما وفى أنهما يستفادان مما نص عليه ، نعم طرق الاستفادة متفاوتة ، فالمستفاد من نص معين للإمام رضى الله عنه أقرب من المستخرج من عموم ذكره ، وهو أقرب من المستنبط من قاعدة قررها ، وهو أقرب من المستنبط من الدليل الشرعى مباشرة مع مراعاة أصول الإمام وقواعده .

فإذا تمهد هذا فاعلم أنهم (علماء السادة الشافعية) يذكرون فى الكتب الاصولية والفقهية خلافا فى النسبة ، ثم إن منهم من يخص الخلاف بالمخرج دون الوجه . فيقولون هل المخرج يعتبر قولا للإمام أولا يعتبر لاحتمال أن يذكر فرقا بين المسألتين لو روجع فى ذلك . والأصح أنه يعتبر قولا له . وعلى هذا الأصح هل ينسب إليه مطلقا ، أو مقيدا بكونه مخرجا . والأصح الثانى لئلا يلتبس بالنصوص. ومنهم من يجعل الخلاف شاملا للوجه أيضا وقد علمت فيما سبق أنهما مستويان فى عدم نص الإمام رضى الله عنه عليهما بخصوصهما وفى أنهما مستفادان مما نص عليه. ولعل السر فى تخصيص بعضهم الخلاف بالقول المخرج أنه أقرب إلى نص الإمام من الوجه . وعلى أى حال فالخلاف إنما هو بالنظر الى الإطلاق اللفظى والنسبة فى اللفظ . بأن يقال هذا مذهب الإمام الشافعى أو قول الشافعى مع الاتفاق على المعنى الذى قررناه. فمن لم يجوز النسبة معترف بأنه مخرج من أصوله ، ومستفاد من قواعده ، ولكنه لم يجوز النسبة لدفع توهم أنه نص عليه واستنبطه بخصوصه ومن أجازها معترف بأنه لم ينص عليه ولم يستنبطه بخصوصه ولكنه أجازها لأنه لما كان مستفادا من نصوصه فكأنه نص عليه وذهب اليه .

نعم يبعد أن يقال فى الوجه إنه قول الشافعى إلا على ضرب من التأويل بأن يراد مقتضى قوله وأقرب منه أن يقال فيه إنه مذهب الشافعى وإن كان لابد من التأويل أيضا .

والخلاصة أنه لا يبعد أن تعد الأقوال المخرجة وأوجه الأصحاب المستنبطة من أصول الإمام من مذهبه ويكون مذهبه منتظما من عدة أمور من منصوصاته وما استنبط من منصوصاته . إلا أن المنصوص له يعتبر مذهبا له من كل وجه، والمخرج من منصوصه يعتبر مذهبا له بالنسبة إلى أصله وأساسه . والأقرب إلى الحقيقة أن يعتبر الجميع مذهب الشافعية الشامل للإمام وأتباعه لأن لأصحابه

دخلا فى استنباط البعض والله أعلم .

هذا أقصى ما يمكن فى توضيح هذا المقام ، وسأذكر نصوص الأصوليين والفقهاء فيه مع التعليق على ما يحتاج إليه من عباراتهم فأقول :

(١) قال الإمام النووى فى مقدمة شرح المهذب : وله أيضا أن يفتى فيما لا نص فيه لإمامه بما يخرجه على أصوله . هذا هو الصحيح الذى عليه العمل وإليه مفزع المفتين من مدد طويلة . ثم إذا أفتى بتخريجه فالمستفتى مقلد لإمامه لاله : هكذا قطع به إمام الحرمين فى كتابه الغياثى وما أكثر فوائده . قال الشيخ أبو عمرو : وينبغى أن يخرج هذا على خلاف حكاه الشيخ أبو اسحق الشيرازى وغيره أن ما يخرجه أصحابنا هل يجوز نسبته إلى الشافعى ؟ والأصح أنه لا ينسب إليه . ثم تارة يخرج من نص معين لإمامه وتارة لا يجده فيخرجه على أصوله بأن يجد دليلا على شرط ما يحتج به إمامه فيفتى بموجبه اه المقصود منه هنا .

ثم قال فى موضع آخر الأقوال للشافعى والأوجه لأصحابه المنتسبين إلى مذهبه يخرجونها على أصوله ويستنبطونها من قواعده ويجتهدون فى بعضها وإنلم يأخذوه من أصله . وقد سبق بيان اختلافهم فى أن المخرج هل ينسب إلى الشافعى؟ والأصح أنه لاينسب اه .

ولا يخفى أن عبارته رضى الله عنه تقضى أن الخلاف فى النسبة إلى الشافعى جار فى القول المخرج والوجه . بل عبارته توهم أن الوجه المستنبط بالاجتهاد من غير أصله يشمله الخلاف . ولذلك نظَّر فيه الأزرعى بالنسبة لهذا الوجه فيما كتبه بهامش نسخته من المجموع . وكذلك ابن السبكى نص على هـذا الإيهام فى ترجمة المزنى من طبقاته ويمكن أن يجاب عن النووى بأن هذا الوجه لايصدق عليه أنه مخرج فلا يشمله قوله : وقد سبق بيان اختلافهم فى أن المخرج الخ .

ثم إن الظاهر أن جريان الخلاف فى النسبة لاينافى ماقطع به إمامالحرمين منأن المستفتى مقلد لإمام المخرج لأنك علمت أن صاحب الوجه على كل حال غير مستقل فى استنباطه، بللإمامه الفضل كل الفضل فى التأسيس له والله أعلم .

(٢)وقال الزركشى فى البحر المحيط ثم لايجوز أن ينسب للشافعى مايتخرج على قوله فيجعل قولا له على الأصح بناء علىأن لازمالمذهب ليس بمذهب ولاحتمال أن يكون بينهما فرق فلا يضاف اليه مع قيام الاحتمال اه المقصود منه .

ثم قال فى موضع آخر الأوجه المحكية عن الأصحاب هل تنسب إلى الشافعى ؟ لم أر لهم فيها كلاما ويشبه تخريجها على التى قبلها ، ويكون على طريق الترتيب وأولى بالمنع لأنهم يخرجونها على قواعد عامة فى المذهب ، والقول المخرج إنما يكون فى صورة خاصة اه .

وقوله بناء على أن لازم المذهب ليس بمذهب هذا البناء، ذكره غيره وفيه نظر. لأن قاعدة لازم المذهب ليس بمذهب لا ينبغى أن تؤخذ على أطلاقها بل فى اللوازم التى من شأنها أن لا تكون مقصودة بأى وجه من الوجوه . وما نحن فيه ليس كذلك ، فإن الحكم المستنبط من نص معين له أو من عموم ذكره أو قاعدة قررها مقصود من حيث اندراجه تحت ذلك وإلا لم يكن العموم والقاعدة وجهة استنباط النص المعين مقصودا له فتأمل ،

ثم إن قوله لم أر لهم فيها أى الأوجه كلاما مما يتعجب له لأن النووى قد نص عليه فى المجموع كما سبق فلعله لم يطلع عليه مع اشتهاره .

(٣) وقال العلامة ابن حجر فى الفتاوى (فى جواب السؤال عما يفتى به المفتون هل يقال إنه مذهب الشافعى رضى الله عنه سواء أعلم كونه منصوصا له أم لا ؟ . أو لا يقال ذلك إلا فيما علم نصه عليه ، وغيره يقال إنه مقتضى مذهبه) ما نصه: لا يجوز أن يقال فى حكم هذا مذهب الشافعى إلا إن علم كونه نص على ذلك بخصوصه ، أو كونه مخرجا من نصوصه على الخلاف فى نسبة المخرج إليه. قال التقى السبكى فى جواب المسألة التاسعة والثلاثين من المسائل الحلبية .

وأما من سئل عن مذهب الشافعى رضى الله عنه ويجيب مصرحا بإضافته إلى مذهب الشافعى رضى الله عنه ولم يعلم ذلك منصوصا للشافعى رضى الله عنه ولا مخرجا من منصوصاته ، فلا يجوز ذلك لأحد بل اختلفوا فيما هو مخرج هل يجوز نسبته إليه ؟ واختار الشيخ أبو اسحق لا يجوز هذا فى القول المخرج .

وأما الوجه فلا يجوز نسبته إليه بلا خلاف . نعم هو مقتضى منهبه أو من مذهبه بمعنى قول أهل مذهبه . والمفتى يفتى به إذا ترجح عنده ، لأنه من قواعد الشافعى رضى الله عنه. ولا ينبغى أن يقال . قال الشافعى رضى الله عنه إلا فى منصوص له . قال به أصحابه أو أكثرهم ، بخلاف ما خرجوا عنه بتأويل أو غيره لأن تجنبهم له يدل على ريبة فى نسبته إليه . وما اتفقوا عليه وقالوا ليس بمنصوص يسوغ

تقليدهم فيه . ولكن لا يطلق أنه مذهب الشافعى رضى الله عنه بل مذهب الشافعية. فإن لم يعلم هل هو منصوص أولا سهلت نسبته إليه . لأن الظاهر من اتفاقهم أنه قال به اه . ملخصا والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهت عبارة الفتاوى . وقوله وأما الوجه فلا يجوز نسبته إليه بلا خلاف . قد علمت ما يتعلق بذلك وأن النووى أجرى الخلاف فى الجميع . وقوله نعم هو مقتضى مذهبه لا ينافى النسبة بل هو وجهها . وقوله أو من مذهبه بمعنى قول أهل مذهبه فيه نظر . لأن قول أهل المذهب أعم من الوجه المراد هنا . فالأولى الاقتصار على الأول . وقوله ولا ينبغى أن يقال الخ يظهر أن ذلك خاص بصيغة الماضى. أما إطلاق القول على غير المنصوص كأن يقال فى المخرج هذا قول الشافعى ففيه خلاف كما علمت والأصح أنه يقال مقيدا بكونه مخرجا والله أعلم .

وقوله وما اتفقوا عليه الخ فيه نظر فإن غير المنصوص المستنبط من أصوله والمخرج على قواعده ينسب إليه على الخلاف .

(٤) وقال الرملى فى شرح المنهاج : والأصح أن القول المخرج لا ينسب إليه إلا مقيدا لأنه ربما ذكر فرقا لو روجع فيه اه .

وقال فى موضع آخر الأوجه لأصحابه يستخرجونها من قواعده وقد يجتهدون فى بعضها وإن لم يأخذوه من أصله اه . وكتب عليها الشبراملسى ما نصه: ولا بد فى نسبة ذلك لمذهب الشافعى من كونه موافقا لأصوله وإلا فينسب إليهم ولا يعد من مذهبه رضى الله عنه وقوله ولا بد فى نسبة ذلك الخ ، صريح فى جريان الخلاف فى الأوجه أيضا ، وصريح أيضا فيما وضحناه سابقا فى الخلاصة الأخيرة من اعتبار الجميع من مذهب الشافعى رضى الله عنه .

(٥) وقال ابن السبكى فى جمع الجوامع مع المحلى فى شرحه ، والأصح على الأول لا ينسب القول فيها إليه مطلقا ، بل ينسب إليه مقيدا بأنه مخرج حتى لا يلتبس بالمنصوص . وقيل لا حاجة إلى تقييده لأنه قد جعل قوله اه . وقوله على الأول أى على أن المخرج قوله . وفيه خلاف قيل يعتبر قولا له ، وقيل لا يعتبر قولا .

ثم إن ابن السبكى جار على أن الخلاف فى النسبة خاص بالقول المخرج دون الوجه ولذلك لم يتعرض للخلاف عند بيانه للوجه . وقد علمت وجهه والله أعلم .

هذا ما يتعلق بنسبة الأقوال المخرجة ، وأوجه الأصحاب إلى الشافعى وإلى مذهبه وسنشرع فى بيان منشأ اختلاف الأقوال وتنوع التخريج والأوجه والطرق .

٣ — أ — أقسام القولين
ب — الإجابة عن الانتقاد على ذكر القولين
ﺟ — منشأ اختلاف القولين

القولان المنقولان عن الإمام الشافعى رضى الله عنه لها حالتان :

الحالة الأولى : أن يقولها فى وقت واحد . بأن يقول فى المسألة قولان أحدهما كذا والثانى كذا ، ثم إنه تارة يرجح أحدهما . وتارة لا يرجح وذكره للقولين رضى الله عنه فى وقت واحد من غير ترجيح وقع منه فى مسائل قليلة اختلفوا فى عددها فقيل سبع عشرة مسألة وقيل ست عشرة وقيل عشر مسائل .

وأول مسألة ذكر فيها القولين فى الأم كما قاله النووى فى المجموع « مسألة وقوع مالا نفس له سائلة فى الإناء » . قال فى المجموع (إذا ثبت ما ذكرناه فإذا مات مالا نفس لها سائلة فى دون القلتين من الماء فهل ينجس ؟ فيه قولان مشهوران فى كتب المذهب ونص عليهما الشافعى فى الأم والمختصر وهذه أول مسألة ذكر فى الأم فيها قولين) اﻫ . ونص عبارته فى الأم : « فأما ما كان مما لا نفس له سائلة مثل الذباب والخنافس وما أشبهها ففيه قولان . أحدهما أن ما مات من هذا فى ماء قليل أو كثير لم ينجسه ثم قال بعد كلام متعلق بالقول الأول ، والقول الثانى أنه إذا مات فيما ينجس نجس لأنه محرم اﻫ المقصود منه » .

وأول مسألة ذكر فيها القولين فى المختصر وجوب أفاضة الماء فى الوضوء على ماسقط من اللحية عن الوجه . ونص عبارة المختصر (وأحب أن يمر الماء على ماسقط من اللحية على الوجه وإن لم يفعل ففيها قولان : قال يجزيه فى أحدهما ولايجزيه فى الآخر) .

قال النووى فى المجموع . (أما حكم المسألة فقال أصحابنا إذا خرجت اللحية عن حد الوجه طولا أو عرضا أو خرج شعر العذار أو العارض أو السبال فهل يجب أفاضة الماء على الخارج فيه قولان مشهوران وهذه المسألة أول مسألة نقل المزنى فى المختصر فيها قولين : الصحيح منهما عند الأصحاب الوجوب وقطع به جماعات من أصحاب المختصرات والثانى لايجب لكن يستحب ، والقولان جاريان فى الخارج

عن حد الوجه طولا أو عرضا كما ذكرناه صرح به أبوعلى البندنيجى فى كتابه الجامع وآخرون) .

الحالة الثانية أن يقولهما فى وقتين . قبل بيان منشأ اختلاف قوليه رضى الله عنه رأيت أن أشير إلى رد الاعتراضات الواردة على الإمام فى ذكره للقولين فى مسألة واحدة فإن بعض المخالفين قد انتقد عليه رضى الله عنه فى ذلك وألفت كتب مخصوصة وتصدى الأصحاب للرد على هؤلاء المخالفين والإجابة عن الإمام رضى الله عنه . وممن ألف فى نصرة القولين ابن القاص صاحب التلخيص والإمام الغزالى وألكيا الهراسى والرويانى رضى الله عنهم .

أما الحالة الأولى وهى ذكره للقولين فى وقت واحد فإن كان مع ترجيح أحدهما ينحصر وجه الاعتراض عليها فى عدم الفائدة فى ذكره القول المرجوح لأن قوله ومعتقده هو مارجحه وهذا الاعتراض من السهولة بمكان . وجوابه واضح فإن الفائدة فى ذلك لاتخفى على قصير النظر إذ فى ذكر المرجوح تنبيه على ضعفه لئلا يغتر بأمارته أمثال المعترض .

ثم فى ذلك تعليم لأصحابه كيفية البحث والنظر والتخلص من تعارض الأشباه.

وإن كان ذكره للقولين من غير ترجيح أحدهما وذلك نادر كما سبق ينحصر وجه الاعتراض عليه فى أمرين . الأول أن هذه الطريقة قد انفرد بها الإمام وخرق بها الإجماع إذ المعروف من الأئمة السابقين ومثلهم اللاحقون أنهم إذا عرفوا مرجحا لأحد القولين ذكروه وأفتوا به وإلا أمسكوا بالمرة .

الأمر الثانى أن ذكره للقولين بهذه الكيفية إما أن يكون مع اعتقاده لهما ، وإما أن يكون مع التردد. فإن كان الأول لزم اعتقاد المتناقضين فيما إذا كان الحكمان متنافيين كالحل والحرمة . وإن كان الثانى دل ذلك على ضعف فى النظر ، ونقص فى آلة الاجتهاد . ثم لايكون لذكره للقولين فائدة . ولايكون له فى المسألة قول فكيف يقال له قولان، والجواب عن الأمر الأول أنا لانسلم الإجماع الذى ادعاه المعترض ، وانفراد الإمام بهذه الطريقة بل ماجرى عليه الإمام هودأب الصحابة والسلف . فقد نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال فى الجمع بين الأختين فى ملك اليمين أحلتهما آية وحرمتهما آية يريد بالآيتين : أما آية التحريم فقوله تعالى « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » أما آية التحليل فقوله تعالى فى سورة النساء

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم . وقوله تعالى فى سورة المعارج إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) .

وكذلك فعل عمر رضى الله عنه حينما أراد أن يعهد بالخلافة فقد حصرها فى ستة وهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف . وقال قد صرفها عن كل الناس إلا هؤلاء الستة لا يخرج الحق فيها عن أن يجعل فى واحد . وقال لا أعلم أحدا أحق بها من هؤلاء الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . فيؤمّر المسلمون أحدهم رضى الله عنهم . فوكل رضى الله عنه الأمر إلى اجتهاد المجتهدين فى تعيين ذلك الواحد .

وكذلك روى عنه رضى الله عنه أنه قال تعتد الأمة بحيضتين فإن لم تحض فبشهرين أو شهر ونصف . قال الإمام وغيره من العلماء فنهم من قال هو شك من الراوى ، ومنهم من قال هو ترديد قولٍ من عمر رضى الله عنه . قالوا وهو ظاهر الرواية .

والجواب عن الأمر الثانى أنا نختار أن ذكره للقولين إنما كان مع التردد كما سيأتى تحقيقه فى وجه إضافة القولين له رضى الله عنه . وقول المعترض إن ذلك يدل على ضعف فى النظر ونقص فى آلة الاجتهاد غير صحيح . فإن التردد إنما كان لتكافؤ النظرين وتعادل الأمارتين وذلك يدل على صحة قريحته، وتبحره فى الشريعة، وسعة علمه ، وشدة احتياطه فى الدين ، وعلى أنه بلغ الغاية فى الورع . أما الأول أى (سعة العلم) فلأن التردد من غير ترجيح ينشأ من إمعان النظر الدقيق حتى لا يقف على حالة ولأنه لا يكون إلا ممن أحاط بطرق الأشباه . وأما الثانى أى (الورع) فلأنه لم يبال بذكر ما يتردد فيه وإن كان قد يعاب فى ذلك عادة لا فى الواقع بقصور النظر .

وقال الإمام الرازى فى المحصول : «على أنه عند التحقيق يؤخذ حكم ما تردد فيه مما مهده من الأصول والقواعد ومما قطع فيه من المسائل . فقد حكى بعض الأصحاب أن المسائل المنقولة عن الشافعى رضى الله عنه تقرب من ستين ألف مسألة ولا يتجاوز ما تردد فيه سبع عشرة مسألة كما سبق ، فيؤخذ حكم ما تردد فيه مما نص عليه . فإن قلت : إن تعين الحكم فيما تردد فيه الإمام إنما يكون بترجيح من بعده من الأصحاب لأحد القولين وذلك لا ينفى التردد عنه رضى الله عنه .

قلت نعم . ولكن لما كان الترجيح بما مهده من الأصول ، وبما قطع فى نظير ماتردد فيه من المسائل كان التعيين منسوباً إليـــه فى الحقيقة . وسيأتى لذلك مزيد توضيح .

وقول المعترض لا يكون لذكر القولين فائدة باطل . فقد بينوا لذكرهما عدة فوائد منها . ماذكره القاضى أبو بكر الباقلانى فى مختصر التقريب ، من أن الشافعى ذكر القولين ليعلم أصحابه طرق استخراج العلل والاجتهاد ، وبيان ما يصحح العلل ومايفسدها ، لأن الحاجة إلى بيان المدارك كالحاجة إلى بيان الأحكام . ولأنه يفيد أن ماعداهما باطل، وأن الحق فى أحدهما . ومنها ماذكره الغزالى فإنه قال ماخلاصته: إن الناظر فى المسألة يحتاج إلى وظائف خمسة : تصورها وطلب الاحتمالات فيها ، وحصر ماينقدح من تلك الاحتمالات، وطلب أدلتها ، وطلب الترجيح. والشافعى قام بالوظائف الأربع ولم يترك إلا الخامسة فكيف ينكر فائدة القولين ؟ اهـ.

قلت إنه لم يترك الخامسة من كل وجه فإن ترجيح الأصحاب كما علمت إنما يكون بمامهده من الأصول والقواعد . ولذلك لم يختلفوا فيما علمت فى أن من رجح أحدهما من مجتهدى المذهب لايعد خارجا عنه. وأما قول المعترض لا يكون له فى المسألة قول فكيف يقال له قولان ؟ . فالجواب عنه أن المراد بالقولين احتمالان لاقولان بحكمين شرعيين . ولا يمتنع أن يقال لفلان رأيان متردد فيهما ، وهذا على الصحيح فى وجه إضافة القولين إلى الشافعى رضى الله عنه . وذلك أنهم اختلفوا فى وجه إضافتهما إليه على ثلاثة مذاهب ، أصحها ماذكرناه وهو أنه لا ينسب إليه قول فى المسألة بل هو متوقف لعدم ترجح دليل أحد الحكمين فى نظره . وقوله فيه قولان أى احتمالان لوجود دليلين متساويين لا أنهما لمجتهدين . قال القاضى أبو الطيب لايعرف مذهبه فيهما لأنه لايجوز أن يكونا مذهبين ، وهذا ماجزم به فى المحصول. الثانى وجوب اعتقاد نسبة أحدهما إليه ورجوعه عن الآخر من غير تعيين ، ومن غير أن ينسبا إليه معاً . ثم يمتنع العمل بهما حتى يتبين الحال كالنصين . إذا علمنا نسخ أحدهما من غير تعين ، وكالراوى إذا اشتبه عليه ماروواه من شيئين ـ وهذا قول الآمدى .

الثالث نسبة القولين والحكمين إليه على التخيير قاله القاضى فى التقريب . قال إمام الحرمين : هـــذا بناه القاضى على اعتقاده أن مذهب الشافعى تصويب المجتهدين، لكن الصحيح من مذهبه أن المصيب واحد ، ثم لا يمكن التخيير فيما إذا

كان أحد القولين تحريماً والآخر تحليلاً . إذ يستحيل التخيير بين حرام ومباح . قال الإمام : وعندى أنه حيث نص على قولين فى موضع واحد فليس له فيه مذهب، وإنما ذكر القولين لتردده فيهما ، وعدم اختياره لأحدهما . ولا يكون ذلك خطأ منه بل يدل على علو مرتبته ، وتوسعه فى العلم ، وعلمه بطرق الأشباه . فإن قيل فلا معنى لقولكم للشافعى قولان . إذ ليس له على هذا فى هـــذه المسائل قول ولا قولان ـــ قلنا هكذا نقول ولا نتحاشا منه ، وإنما وجه الإضافة إلى الشافعى هو ذكره لهما واستقصاؤه وجوه الأشباه فيهما . هذا أسد الطرق وأوضحها اهـ إمام الحرمين كذا فى البحر المحيط للزركشى .

قلت وما نسبه للآمدى مخالف لما نص عليه فى أحكامه . فأنه قرر فى أحكامه أن القولين المنصوص عليهما فى وقت واحد : إما أن يكون ذكره لهما بطريق الحكاية لأقوال من تقدم ؛ وإما أن يكون أراد بقوله فى المسألة قولان أنه قد وجد فيه دليلان متعارضان ولا موجود سواهما ، أو أصلان مختلفان والمسألة مشابهة لكل واحد منهما على السوية . ويمكن أن يقول لكل منهما قائل . فقوله بوجود هذا الاحتمال وهذا الاحتمال قولان لكنه ليس قولا بحكم شرعى اهـ .

نعم ذكر الآمدى ما نسبه إليه الزركشى فى القولين المنصوص عليهما فى وقتين وجهل التاريخ ؛ فاشتبه الحال على الزركشى والله أعلم .

وقوله (وهذا ما جزم به فى المحصول) الذى فى المحصول أن القولين المنقولين عن الشافعى فى وقت واحد من غير ترجيح أحدهما فيهما احتمالان : أحدهما أن قصده حكاية قولين لغيره لا له ؛ وثانيهما أن المراد بهما احتمالان لقوة أمارتيهما دون غيرهما من الاحتمالات . وقوله الثالث نسبة القولين إليه على التخيير . وهذا القول جرى عليه الماوردى وقواه الغزالى مخالفاً شيخه إمام الحرمين .

وهو معقول بناء على جواز تعارض الأمارتين فى الواقع ونفس الأمر وهو مذهب الجمهور .

واختلفوا فى حكمه عند وقوعه فذهب القاضى أبو بكر وأبو على وابنه أبو هاشم إلى أن المجتهد يتخير بينهما والذى يتلخص من ذلك فى وجه الإضافة إذا لم تقم قرينة على أن الإمام أراد حكاية القولين عن غيره ثلاثة آراء : أحدها وهو الصحيح أن المراد بالقولين

احتمالان لاقولان بحكم شرعى إذ هو متردد ، ولا يصح نسبة واحد منهما له لاعلى التعيين ولاعلى التخيير إلا إذا رجح بمرجح على مقتضى قواعده وأصوله .

الثانى نسبة واحد منهما لاعلى التعيين — ولا يعمل به إلا إذا بين — وهذا الرأى لم تثبت نسبته لأحد ونسبة الزركشى لهذا القول إلى الآمدى غلط كما سبق التنبيه عليه . وإن كان يمكن توجيهه بأنه بمقتضى قواعده وأصوله لابد أن يكون واحد منهما قائلا به ومنسوبا إليه فبالترجيح بمقتضى قواعده يتبين .

والثالث التخيير بين القولين وهو رأى القاضى كما سبق .

هذا مايتعلق ببيان الانتقادات التى وجهت إلى الإمام رضى الله عنه فى شأن القولين والإجابة عنها ـ ولنشرع فى المقصود وهو بيان منشأ اختلافهما .

أما القولان بالحالة الأولى فلا منشأ لها سوى تعارض الدليلين وتعادل الأمارتين ثم تارة يزول التعارض بظهور مرجح لأحدهما ، وتارة لا يظهر .

وأما القولان بالحالة الثانية وهى أن يقولها فى وقتين كأن ينص فى موضع على إباحة شىء وفى موضع آخر على تحريمه فمنشأ اختلافهما أحد أمور :

الأول تغير الاجتهاد بأن يؤديه اجتهاده إلى أحدهما فيقول به ، ثم يؤديه اجتهاده إلى الآخر فيعدل إليه ، كالقديم والجديد . وفى هذه الحالة لا يرسل القولان بل لابد من التقيد .

الثانى أن يكون اختلاف قوليه لاختلاف حالين كصداق السر فإنه قال فى موضع باعتباره وفى موضع آخر بعدم اعتباره بل باعتبار صداق العلانية وليس هذا فى الحقيقة عند الأكثرين . وقيل بتقرر القولين وهناك طرق متعددة فى المسألة ذكرها الرافعى فى الشرح أصحها ماذكر هنا من تنزيل القولين على حالين باختلاف قولين ، بل كل قول محمول على حالة خاصة . فإن اقترن العقد بصداق السر فهو المستحق ويكون صداق العلانية تجملا ، وإن اقترن بصداق العلانية فهو المستحق ويكون صداق السر وعداً . ومثل ذلك قوله رضى الله عنه فيمن نكح امرأة بشرط الخيار إن النكاح فاسد وفى موضع آخر إن النكاح صحيح والصداق فاسد . وليس هذا أيضا باختلاف قولين بل كل قول محمول على حالة خاصة : فالأول محمول على حالة ما إذا شرط الخيار فى عقد النكاح ، والثانى على ما إذا شرط فى الصداق .

قال الماوردى : فإن قلت أفتستعمل هذا فى كل مايمكن من اختلاف القولين ؟

قلنا يعتبر ذلك بأصول المذهب . وذلك على ثلاثة أضرب :

الأول أن لاتمنع أصول مذهبه حمل الحكمين على اختلاف حالين فتحملهما على ذلك ولاتحملهما على اختلاف قولين .

الثانى أن تمنع أصول مذهبه من ذلك فيحملا على اختلاف قولين .

الثالث أن تتقابل أصول مذهبه وتحمل كلا الأمرين السابقين . وفى هذه الحالة خلاف للأصحاب فمنهم من يغلب الحمل على اختلاف حالين ومنهم من يغلب الحمل على اختلاف قولين . والأول أولى . لأن التوفيق بين الكلامين المتنافيين مقدم على إبقائهما على الخلاف .

الثالث أن يكون اختلاف القولين لاختلاف القراءة أوالرواية : فالأول مثل اختلاف قوليه فى نقض وضوء الملموس فقد نص فى حرملة على عدم الانتقاض ونص فى باقى كتبه على الانتقاض .

وذكر الماوردى والقاضى حسين والمتولى وغيرهم أن القولين مبنيان على اختلاف القراءة (لمستم أو لامستم) فعلى القراءة الأولى لا يُنقض وعلى الثانية ينقض .

قال النووى فى شرح المهذب . وهذا البناء غير واضح . ولم يبين وجهه . واستدل صاحب المهذب للقول بعدم الانتقاض بحديث ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

والثانى مثل اختلاف قوليه فى آخر وقت الاختيار للعشاء فقد نص فى الجديد فى معظم كتبه على أنه يمتد إلى ثلث الليل ، ونص فى القديم والإملاء من الجديد على أنه يمتد إلى نصف الليل والسبب ورود حديثين صحيحين فى ذلك الخ .

الرابع أن يكون قد عمل فى أحدهما بظاهر القرآن ثم بلغته سنة نقلته إلى الثانى كصيام المستمتع أيام التشريق فإنه فى الأم أولا نقل صيامها عن عائشة وابن عمر ثم قال وبهذا نقول وهو معنى ماقلنا والله أعلم .

ويشبه القرآن يريد رضى الله عنه والله أعلم أن صيامها هو ظاهر قوله تعالى « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج الآية » .

ثم قال بعد ذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم أيام منى ولانجد السبيل إلى أن يكون النهى خاصا إذا لم يكن عن النبى صلى الله عليه وسلم دلالة بأن نهيه إنما هو على مالا يلزم من الصوم . وقد يجوز أن يكون من قال بصوم المستمتع

أيام منى ذهب عليه نهى (١) النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلا أرى أن يصوم أيام منى وقد أراه . وأسأل الله التوفيق اه .

والخلاصة : أنه رضى الله عنه نظر لظاهر قوله تعالى فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يستطيع فصيام ثلاثة فى الحج وسبعة إذا رجعتم . فأجاز صيامها أيام منى .

ولما بلغه نهيه صلى الله عليه وسلم عن صيامها قال بعدم الجواز . هذا والمذكور فى المجموع أن القول بالجواز جديد ، والقول بعدمه قديم . والقولان مذكوران فى الأم فالظاهر أن الثانى جديد أيضا كما أنه قديم والله أعلم .

وكالصلاة الوسطى فإنه نص على أنها الصبح ، وثبتت الأحاديث الصحيحة على أنها العصر فعلى مقتضى قاعدته يكون مذهبه أنها العصر . قال صاحب الحاوى نص الشافعى رحمه الله أنها الصبح ، وصحت الأحاديث أنها العصر ومذهبه اتباع الحديث فصار مذهبه أنها العصر . ولا يكون فى المسألة قولان كما وهم بعض أصحابنا اه . واختار فى المجموع أنها العصر .

وفى هذا المثال للقولين نظر لأنا إذا نظرنا نصه فقط فليس له إلا القول الأول ، وإن نظرنا على حمل مذهبه على مقتضى القاعدة المشهورة فليس له إلا القول الثانى ، لكن نظراً إلى أن الحمل قد لا يتفق عليه يحكى قولين والله أعلم .

الخامس . أن يكون قد عمل فى أحدهما بالقياس ثم بلغته سنة لم تثبت عنده لجعل مذهبه موقوفا على ثبوت السنة كالصيام عن الميت والغسل من غسله . أما الصيام عن الميت فقد نص فى الجديد أنه لا يصام عن الميت قياسا على الصلاة وصححه معظم الأصحاب ، ونقل عنه فى القديم أنه يصح عنه الصيام . قال فى المجموع وهذا القديم هو الصحيح عند جماعة من محققى أصحابنا لثبوت الأحاديث الصحيحة فى ذلك ،

---

(١) عن كعب بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأوس بن الحدثان أيام التشريق فناديا أنه لا يدخل الجنة الا مؤمن ، وأيام منى أيام أكل وشرب » رواه أحمد ومسلم .

وعن سعد بن أبي وقاص قال « أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن أنادى أيام منى إنها أيام أكل وشرب ، ولا صوم فيها » يعنى أيام التشريق » رواه أحمد .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم « نهى عن صوم خمسة أيام فى السنة : يوم الفطر ويوم النحر وثلاثة أيام التشريق » رواه الدارقطنى اهـ من كتاب نيل الاوطار جـ ٤ ص ٣٥٢ الطبعة المنيرية .

وقد أوردها فى المجموع ، ونقل عن البيهقى أن الشافعى لو وقف عليها أى (على طرقها وتظاهرها) لم يخالفها إن شاء الله .

وبعضهم اعترض على ذلك بأن الشافعى وقف على بعض هذه الأحاديث وتكلم عليها .

وأما الغسل من غسل الميت . قال فى الشرح الكبير . (واختلفوا فى شيئين آخرين : أحدهما غسل الميت . قال فى القديم يجب به الغسل على الغاسل وإليه ذهب أحمد لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال . (من غسل ميتا فاليغتسل ومن مسه فاليتوضأ) والجديد أنه ليس من موجبات الغسل . والحديث إن ثبت فمحول على الاستحباب اه

هذا وقد يكون اختلاف القولين بالإطلاق والتقييد كقوله فى موضع أقل الحيض يوم وليلة ، وفى موضع آخر أقله يوم . وفى هذه الحالة يحمل المطلق على المقيد فيكون المراد فى الموضع الثانى أن أقل الحيض يوم يعنى مع ليلته فيرجع إلى الأول وحينئذ لا يكون له فى هذه الحالة قولان بل قول واحد .

وقد يكون حكاية القولين عنه فى المسألة لاختلاف ألفاظه فى الموضعين مع اتفاق معانيها من وجه واختلافها من وجه . فيغلب بعض الأصحاب جهة الاختلاف فيجعلهما قولين . كقوله فى الجديد فى شأن المظاهر (أحب أن يمتنع عن القبلة . وفى القديم رأيت ذلك فيحتمل حمله على الإيجاب أو الاستحباب ، وهو أولى .

وقد يكون منشأ تعدد الأقوال بتخريج الأصحاب كما إذا نص فى مسألتين متشابهتين بحكمين مختلفين فيخرج الأصحاب فى كل منهما نظير ما أثبت فى الأخرى كما تقدم والله أعلم .

٤ — كيفية العمل بالاقوال والأوجه المتعارضة

« تمهيد »

أولا : القولان قد يكونان قديمين ، وقد يكونان جديدين ، وقد يكون أحدهما قديما والآخر جديدا ، وقد يقولها فى وقت واحد ، وقد يقولها فى وقتين ، وقد يعلم المتأخر منهما ، وقد لايعلم ، وقد يرجح الإمام أحدهما وقد لايرجح ، ثم تارة يكونان منصوصين ، وتارة يكون أحدهما منصوصا والآخر مخرجا

والوجهان قد يكونان لشخص واحد من الأصحاب ، وقد يكونان لشخصين . ثم إذا كانا لشخص واحد فهما كالقولين فى الاحتمالات السابقة .

ثانيا : اختلف الأصحاب فى القولين المتعاقبين . هل يكون الثانى رجوعا عن الأول أولا ؟ على وجهين حكاهما الرافعى فى باب صفة الصلاة عن الصيدلانى . أحدهما : لايكون رجوعا لأنه قد ينص فى موضع واحد على قولين فيجوز أن يذكرهما متعاقبين . والثانى يكون رجوعا . ولم يرجح الرافعى واحدا منهما . وذكر الزركشى فى البحر المحيط أن محل الوجهين إذا لم يصرح بالرجوع عن الأول . أما إذا صرح بالرجوع عنه فليس مذهبا له قطعاً .

قال الزركشى : وقد صح رجوعه عن القديم فليس مذهبا له البته . لكن مقتضى عبارة الإمام النووى فى شرح المهذب أن الوجهين جاريان فى القديم والجديد أيضا وأن الصواب أنه يكون رجوعا .

وعبارته : ثم إن أصحابنا أفتوا بهذه المسائل من القديم مع أن الشافعى رجع عنه فلم يبق مذهبا له . هذا هو الصواب الذى قاله المحققون ، وجزم به المفتون من أصحابنا وغيرهم . وقد قال بعض أصحابنا إذا نص المجتهد على خلاف قوله لايكون رجوعا عن الأول ، بل يكون له قولان . قال الجمهور : هذا غلط لأنهما كنصين للشارع تعارضا وتعذر الجمع بينهما ، يعمل بالثانى ويترك الأول .

قال إمام الحرمين فى باب الآنية من النهاية معتقدى أن الاقوال القديمة ليست من مذهب الشافعى حيث كانت ، لانه جزم فى الجديد على خلافها ، والمرجوع عنه ليس مذهبا للراجع اه .

وذكر السيد السمهودى ، فى رسالة العقد الفريدى أن العز بن عبد السلام سئل

هل يجوز الأخذ بالقول الأول الذى رجع عنه الإمام أولا ؟ فقال ذلك جائز . ووجهه السمهودى بقوله إن الرجوع عنه إنما هو لأرجحية الثانى عليه وكون الأول مرجوحا لا يمنع من جواز تقليده ، والرجوع لا يرفع الخلاف السابق كما فى أوائل الخادم ، وكذا لو حكم القاضى باجتهاد ثم تغير اجتهاده فإنه لا ينقض الأول . وحكى الأصوليون فى إجماع أهل العصر بعد اختلافهم قولين فى ارتفاع الخلاف فما لم يقع فيه إجماع أولى اه . ثم ذكر السمهودى بعد هذا أن المعتمد خلافه .

ثالثا : يؤخذ مما سيأتى أن تقليد المرجوح فى الإفتاء والقضاء لا يجوز قطعا بلا خلاف وأما تقليده فى عمل الشخص لنفسه ففيه خلاف . وقد أجازه السبكى ، وسيأتى تحقيق القول فيه .

فإذا تمهد هذا فإن كان فى المسألة قولان قديم وجديد : فالجديد هو المعمول به إلا فى مسائل مخصوصة أوصلها بعضهم إلى نيف وثلاثين مسألة ، ذكر الإمام النووى منها فى مقدمة المجموع تسع عشرة مسألة ، وهذه المسائل اعتمد الأصحاب فيها المذهب القديم ، وليس كلها متفقا عليها كما قال النووى بل بعضها اعتمد فيه الجديد .

ثم إن جرينا على الوجه الضعيف من الوجهين السابقين على طريقة النووى خلاف ما قطع به الزركشى من أن المذهب المرجوع عنه يعد مذهبا للراجع ـ وعلى ما جرى عليه العز بن عبد السلام من جواز تقليد القول المرجوع عنه ، وعلى جواز تقليد المرجوح فى العمل لا فى الإفتاء والقضاء جاز تقليد القديم المخالف للجديد فى العمل لا فى الإفتاء والقضاء ، سواء فى ذلك هذه المسائل وغيرها . أما فى الإفتاء والقضاء فلا يجوز لمن ليس أهلا للتخريج وهو مقلد للشافعى إلا تقليد المذهب الجديد ، سواء فى ذلك هذه المسائل وغيرها . أما من كان أهلا للتخريج فيتبع ما اقتضاه الدليل .

وإن جرينا على الوجه الصحيح من أن القديم الذى خالفه فى الجديد لا يعد مذهبا للشافعى وعلى غير ما جرى عليه ابن عبد السلام . فلا يجوز تقليد المذهب القديم لمن ليس أهلا للتخريج والاجتهاد مطلقا ، فى العمل والإفتاء والقضاء لأنه على هذا ليس مذهبا للشافعى . وعلى ذلك يكون إفتاء الأصحاب بهذه المسائل على القديم محمولا على أنه قد أداهم اجتهادهم إلى القديم لظهور دليله وهم مجتهدون فأفتوا به . ولا يلزم من ذلك نسبته إلى الشافعى ، فالمقلد للشافعى إذا لم يكن من أهل التخريج يتعين عليه العمل والإفتاء بالمذهب الجديد من غير استثناء ولا يتبع شيئا من اختياراتهم وإن كان من أهل التخريج

والاجتهاد فى المذهب يلزمه اتباع مااقتضاه الدليل فى العمل والفتيا مبينا فى فتواه أن هذا رأيه وأن مذهب الشافعى كذا . وهو ما نص عليه فى الجديد . (فإن قلت) هل يجوز لمن ليس أهلا للتخريج أن يقلد الأصحاب فى هذه المسائل من غير أن يكون مقلدا للشافعى فيها؟ «قلت» لا مانع من ذلك فإنهم مجتهدون .

قال الرملى فى شرح المنهاج . قال بعضهم: وقد تتبع ما أفتى فيه بالقديم فوُجد منصوصا عليه فى الجديد اه . وعلى هذا تكون هذه المسائل من مذهبه الجديد فيجوز العمل والإفتاء بها للمقلد للشافعى وإن لم يكن من أهل التخريج كما هو ظاهر . والله أعلم .

ثم اعلم أن ماذكرناه فى القول القديم إنما هو فى قديم لم يعضده حديث صحيح لامعارض له . فإن كان كذلك فهو مذهب الشافعى ومنسوب إليه إذا وجد الشرط فيما صح الحديث على خلاف نصه فى الجديد .

وخلاصة ذلك الشرط أن يكون ذلك الشخص الذى يريد حمل مذهب الشافعى على ذلك الحديث قد بلغ رتبة الاجتهاد فى المذهب ، وأن يغلب على ظنه أن الشافعى لم يقف على هذا الحديث ، أو لم يعلم صحته . وهذا إنما يكون بعد مطالعة كتب الشافعى كلها وكتب أصحابه الآخذين عنه . وذلك من الصعوبة بمكان . فليس العمل بما قاله الشافعى بالهين .

وليس كل فقيه يسوغ له أن يستقل بالعمل بما يراه حجة من الحديث . وممن حمل مذهب الشافعى على الحديث الصحيح مع عدم مراعاة هذا الشرط أبو الوليد موسى بن أبى الجارود وهو ممن صحب الشافعى . فإنه قال : صح حديث أفطر الحاجم والمحجوم . فأقول قال الشافعى : أفطر الحاجم والمحجوم فردوا ذلك عليه لأن الشافعى تركه مع علمه بصحته لكونه منسوخا عنده ، وقد بين نسخه واستدل عليه . وإن أردت تفصيل ماذكره الشافعى فى هذا الحديث فعليك بشرح المهذب فى كتاب الصيام والله أعلم .

هــــذا ما يتعلق بالقول القديم مع الجديد . ومثل ما قررناه فيهما يقال فى القولين الجديدين اللذين يرجح الشافعى أحدهما ، ويرجح الأصحاب خلافه وفى القولين المنصوص والمخرج وفى قول للإمام ووجه للأصحاب يخالفه . وسيأتى احتمال تقديم المخرج على المنصوص إذا لم يظهر فرق والله أعلم .

وأما سوى ماذكرناه من القولين من القديم والجديد وما شاكلهما من باقى صور

الأقوال والأوجه فقد رأيت أن أذكر فى بيان كيفية العمل بها مانص عليه الإمام النووى فى مقدمة شرح المهذب وفى زيادة الروضة . ثم أتبعه ببيان ماخالف غيره فيه ثم تحقيق الحق فى ذلك إن شاء الله تعالى . قال رضى الله عنه ما خلاصة: ليس للمفتى ولا للعامل المنتسب إلى مذهب الشافعى أن يعمل بما شاء من القولين أو الوجهين بغير نظر ، بل عليه فى القولين العمل بآخرهما إن علمه ، وإلا فبا الذى رجحه الشافعى وإلا بأن قالها فى وقت واحد ولم يرجح واحـــدا منهما ، او لم يعلم أقالها فى وقت أو وقتين ؟ وجب عليه البحث عن أرجحهما فيعمل به . فإن كان من أهل التخريج أو الترجيـح استقل بالبحث متعرفا ذلك من نصوص الشافعى ومآخذه وقواعده . وإن لم يكن أهـلا فلينقله عن أصحابنا الموصوفين بهذه الصفة فإن كتبهم موضحة لذلك فإن لم يحصل له ترجيح بطريق توقف حتى يحصل . وأما الوجهان فيعرف الراجح منهما بما سبق، إلا أنه لا أعتبار بالتقدم والتأخر إلا إذا كانا لشخص واحد . ويقدم القول المنصوص على المخرج إلا إذا كان المخرج من مسألة يتعـذر فيها الفرق ، فقيل لا يترجح عليه المنصوص وفيه احتمال , وقل أن يتعذر الفرق .

ثم إذا وجـد من ليس أهلا للتخريج اختلافا بين الأصحاب فى الراجح من قولين أو وجهـين فليعتمد ماصححه الأكثر والأعلم والأورع فإن تعارض الأعـلم والأورع قدم الأعلم ، فإن لم يجد مرجحا عن أحدا عتبر صفات الناقلين للقولين ، والقائلين للوجهين ، فارواه البويطى والمزنى والربيع المرادى مقدم عند أصحابنا على ماروا ه الربيع الجيزى وحرملة .

قال الشيخ أبو عمرو : ويترجح أيضا ما وافق أكثر أئمة المذاهب . وحـكى القاضى حسين فيما إذا كان للشافعى قولان . أحدهما كقول أبى حنيفة . وجهين - قال أبو حامد : المخالف أرجح لأنه لو لم يطلع الشافعى على موجب المخالفة لما خالفه . والصحيح أن الموافق أولى وبه قال القفال. وهذا إذا لم يجد مرجحا مما سبق . ثم قال : وإذا رأينا المصنفين مختلفين لجزم أحدهما بخلاف ما جزم به الآخر فهما كالوجهين المتقدمين على ماذكرناه من الرجوع إلى البحث على ماسبق . ويرجح أيضا بالـكثرة كما فى الوجهين .

ويحتاج حينئذ إلى بيان مراتب الأصحاب ، ومعرفة طبقاتهم وأحوالهم وجلالتهم. ثم قال : واعلم أن نقل أصحابنا العراقيين لنصوص الشافعى وقواعد مذهبه ووجوه

متقدمى أصحابنا أتقن وأثبت من نقل الخراسانيين غالبا . والخراسانيون أحسن تصرفا وبحثا وتفريعا وترتيبا غالبا. ومما ينبغى أن يرجح به أحد القولين ـ وقد أشار الأصحاب إلى الترجيح به ـ أن يكون الشافعى ذكره فى بابه ومظنته وذكر الآخر فى غير بابه بأن جرى بحث وكلام جر إلى ذكره. فالذى ذكره فى بابه أقوى لأنه أتى به مقصودا ، وقرره فى موضعه بعد فكر طويل بخلاف ما ذكره فى غير بابه استطرادا فلا يعتنى به اعتناءه بالأول اه المقصود منه ».

وقال رضى الله عنه فى زيادة الروضة . واعلم أن هذا الكتاب (يعنى الروضة) الذى اختصرته وهذبته يحصل لك جميع ما ذكرته . ولا أقول هذا تبجحا بل نصيحة للمسلمين ومنا صحة للدين وهما واجبان علىّ وعلى جميع المكلفين اه .

وقال فى المجموع فى موضع آخر . وأرجو إن تم هذا الكتاب (يعنى المجموع) أنه يستغنى به عن كل مصنف ، ويعلم به مذهب الشافعى علما قطعيا إن شاء الله تعالى اه .

هذا ما ذكره الإمام النووى فى هذا المقام . وقوله ليس للعامل والمفتى الخ زاد فى زيادة الروضة قوله وهذا لاخلاف فيه اه .

وقد تبع فى حكاية الإجماع ابن الصلاح فإنه قال فى كتاب أدب المفتى والمستفتى ما نصه : اعلم أن من يكتفى بأن يكون فتياه أو عمله موافقا لقول أو وجه فى المسألة، ليس له أن يعمل بما شاء من الأقوال والوجوه من غير نظر فى الترجيح ـ وإلا فقد جهل وخرق الإجماع اه المقصود منه . ثم إن حكاية الإجماع للمفتى ومثله القاضى ظاهرة إن كان المراد إجماع أهل المذهب ، وإلا فقد ذكر القرافى فى أول كتاب الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام، أن للحاكم أن يحكم بأحد القولين المستويين من غير ترجيح ولا معرفة بأدلة القولين إجماعا اه .

ثم إن كلام القرافى محمول على المقلد فلا يناقضه ما نص عليه فى موضع آخر من كتابه المذكور من أنه لا يجوز للحاكم إن كان مجتهدا أن يحكم أو يفتى إلا بالراجح عنده إلا إذا تعارضت الأدلة عنده وتساوت وعجز عن الترجيح فقيل تتساقط ، وقيل يختار واحدا منها يفتى به . ولا بد أن يحمل الإجماع الذى حكاه على إجماع أهل مذهبه ، وإلا كان غير صحيح لما سبق عن النووى كما نص عليه السبكى فى فتاويه . ونص عبارته (فإن قلت فإذا استوى عنده القولان فهل يجوز أن يفتى

او يحكم بأحدهما من غير ترجيح كما اذا استوى عند المجتهد أمارتان يتخير على قول . قلت : الفرق بينهما أن تعارض الأمارتين قد يحصل حكم التخيير من الله تعالى .

وأما قولا الإمام كالشافعي مثلا إذا تعارضا ولم يحصل بينهما ترجيح ولا تاريخ يمتنع أن يقال مذهبه كل واحد منهما أو أحدهما لا بعينه حتى يتخير فليس إلا التوقف إلى ظهور الترجيح اه .

وأما العامل لحكاية الإجماع بالنسبة إليه فى مذهبنا فغير مسلم لأمور .

الأول : ذكر السبكى فى فتاويه أنه يجوز تقليد المرجوح للعمل فى حق نفسه . ونص عبارته (فإن قلت) هذا فى المجتهد أما المقلد فتى قلد وجها ضعيفا كان فى نفس الأمر أو قويا ، قلت : ذلك فى التقليد للعمل فى حق نفسه ، أما الفتوى والحكم فقد نقل ابن الصلاح الإجماع على أنه لا يجوز اه .

ثانيا : أفتى السراج البلقينى بجواز تقليد ابن سريج فى الدور ، وأن من قلد فى ذلك لا يؤاخذه الله تعالى . لأن الفروع الاجتهادية لا يعاقب عليها أى مع التقليد وهو صريح فى جواز تقليد المرجوح ونفعه .

ثالثا : نقل السيد السمهودى عن العز بن عبدالسلام فى ضمن فتوى طويلة أنه قال . (ومن كان لإمامه فى المسألة قولان فله أن يقلده فى أيهما أحب . ونقل عنه كما سبق أنه سئل هل يجوز الأخذ بالقول الأول الذى رجع عنه الإمام المقلد أم لا ؟ . فقال ذلك جائز اه) وتقدم توجيهه .

رابعا : قال النووى فى أصل الروضة وإذا اختلف متبحران فى مذهب لاختلافهما فى قياس أصل إمامهما ــ ومن هذا يتولد وجوه الأصحاب ــ فبقول أيهما يأخذ العامى؟ فيه ما فى اختلاف المجتهدين اه . أى فيكون الأصح التخيير ومقتضاه أنه يجوز تقليد الوجه الضعيف فى العمل . وهو مخالف لما ذكره فى المجموع ، وفى زيادة الروضة .

وقد أجاب العلامة ابن حجر فى فتاويه وفى تحفته عن الأمر الأول والثانى فقال فى الفتاوى . وقد يؤخذ من قول الروضة بغير نظر أن محل ما ذكر بالنسبة إلى العامل إن كان من أهل النظر بخلاف غيره فإنه يجوز له مطلقا وهو متجه ويدل عليه ما صححه فيها من أن العامى لا يلزمه أن يتمذهب بمذهب معين بل تقليد من شاء اه .

وقال فى التحفة : فالوجه حمله على عامل متأهل للنظر فى الدليل وعلم الراجح من غيره فلا ينافى مامر عن الهروى ومايأتى عن فتاوى السبكى لأنه فى عامى لايتأهل لذلك اه . ومراده بما مر عن الهروي ماتقدم عن الروضة من أن العامى لامذهب له معين .

وعن الرابع بأن كلام المجموع وزوائد الروضة محمول بالنسبة للعامل على وجهين لقائل واحد ، أو شك فى كونهما لقائل أو قائلين كما فى قولى الإمام لأن المذهب منهما لم يتحرر للمقلد بطريق يعتمده . أما إذا تحقق كونهما من اثنين خرّج كل واحد منهما من هو أهل للتخريج . فيجوز تقليد أحدهما كما يصرح قول أصل الروضة السابق . إذ لايمكن حمله إلا على ذلك اه .

وعن كلام ابن عبدالسلام السابق فقال: ثم رأيت بعضهم حمل كلام ابن عبدالسلام السابق على ما إذا كان أصحاب المذهب اختار كل واحد منهم قولا ، ثم قال : يعنى العامة فإن ما كان كذلك التخيير فيه ظاهر، لتضمن اختيار كل قول من بعض المذهب ترجيحه فهو كالوجهين لقائلين اه .

ومراده بالبعض السيد السمهودى . والذى دعاه إلى هذا الحمل هو صيغة السؤال الذى أجاب عنه العز بن عبدالسلام بهذا الجواب فإنها مفروضة فى ذلك . ولما كان هذا الحمل غير صحيح بدليل أنه نقل عن ابن عبدالسلام جواز تقليد القول المرجوع عنـــه كما نقلناه سابقا عنه أعقبه ابن حجر بذلك وذكر كلام السمهودى .

وعبارة ابن حجر فى الفتاوى فى موضع آخر (هذا كله فى مفت لمريد العمل بالراجح فى مذهب الشافعى . أما من سأل عن قول الشافعى رحمه الله فى مسألة كذا ليعرف أن له صوراً فيعمل به عنـــد من جوز العمل بالقول الضعيف أو الوجه الضعيف فللمسئول أن يفيد أن للشافعى رحمه الله فى مسألة كذا قولا ، وأن جمعاً منهم ابن عبد السلام جوز العمل بالضعيف ، وأثبت رجوع قائله عنه بناء على أن الرجوع لايرجح الخلاف السابق اه).

ثم قال : وحاصل مامر الجواز عن ابن عبدالسلام فى مسألة القولين مطلقاً ، وهو وإن كان له وجه إذ القول الذى قلده إما أن يكون فى مسألة غير موزّرة فذلك

مسبوق به فيجوز تقليده وإما فى مولدة ، فالرجوع لايرفع الخلاف كما تقرر لكن المعتمد عند التخير وغيرهما مامر الخ ـ

هذا وفى جوابه الأول بحث لأن الظاهر من عبارة النووى رضى الله عنه فى المجموع والزوائد أن مراده بالنظر مايشمل نظر العامى وهومايتوصل به إلى معرفة الراجح سواء كان بنفسه إن كان من الترجيح أو بواسطة النقل عن غيره وذلك يتيسر لكل أحد .

ومقصوده أنه لايجوز الأقدام على العمل بقول أو وجه حتى يعلم أنه راجح من غير معرفة وجه رجحانه ولا دليله . فإذا لم يتيسر له ذلك توقف حتى يحصل .

وأما قوله ويدل أن العامى الخ فغير صحيح فإن مرادهم بالعامى الذى لا مذهب له غير المجتهد كما صرحوا به . وليس المراد به العامى الذى ليس من أهل النظر على فهمه . والظاهر أن النووى رضى الله عنه فى هــذه العبارة يمنع من جواز تقليد المرجوح .

وفى جوابه عن الرابع نظر أيضاً فإن عبارة النووى ليست قاصرة على الوجه لقائل واحد بل تشمل ما إذا كان لقائلين . فإنه قال: وأما الوجهان الخ فالأولى حمل ما قاله النووى فى أصل الروضة على ما إذا حصل تعارض بين وجهين لقائلين ، ولم يوجد مرجح لأحدهما فان هذه الصورة لم تشملها عبارته فى المجموع وفى زوائد الروضة فتدبر .

فالخلاصة أن النووى لايجوز تقليد القول أو الوجه المرجوح أصلا . والسبكى يجوزه فى العمل لنفسه دون الإفتاء والقضاء وأن العز بن عبد السلام يجوز تقليد أى قول للإمام ولو مرجوعا عنه وكذا تقليد الوجه المرجوح والله أعلم بالصواب .

رده على الأقلام المغرضة

كان رحمه الله بالرغم من كثرة مشاغله وأعماله لايقرأ فى الصحف أو المجلات مقالا يمس العقيدة ، أوأحكام الشريعة الغراء ، إلا سارع إلى الرد على هذه الأقلام المضللة ، والدفاع عن حدود الشريعة ، والوقوف أمام هذه الأكاذيب والمفتريات التى لايقصد بها الصالح العام بل بلبلة الأفكار وتضليل الناس فى عقائدهم . مبينا وجه الحق ومايجب أن يعرفه الناس حرصا منه على حفظ عقائد المسلمين أن تتسرب إليهم الشبه ، أوينخدعوا بزخرف القول .

وقد كتب عدة مقالات فى ذلك ، منها مقال قيم فى موضوع حرية الرأى ، وحدودها فى المقطوع به من الشريعة ، ولمن له حق الاجتهاد والفتوى وهو بحث نفيس تمس الحاجة إليه خصوصا فى هذا الزمان الذى يلتبس فيه على الناس الخطأ بالصواب .

ومنها مقال فى حكم المرتد فى الشريعة الإسلامية وهو لايقل أهمية عن سابقه .

ولو أردنا استقصاء ما كتب لما وسعنا هذا الكتاب ولكننا نذكر من ذلك نماذج فإن مالا يدرك جله لايترك كله والله الموفق .

* * *

حرية الرأى

وحدودها فى المقطوع به من الشريعة

لمن حق الاجتهاد والفتوى ؟

نشر الشيخ عبد الحميد بخيت فى جريدة الأخبار يوم الإثنين ١٦ رمضان سنة ١٣٧٥هـ كلمة عنوانها إباحة الفطر فى رمضان وشروطه . ولوقوعه بإبداء هذا الرأى فى الخطأ الفاحش والزلل الجسيم بادرت مشيخة الأزهر بالإنكار عليه ونبهت المسلمين إلى خطئه ، وقررت التحقيق معه ثم أحالته إلى مجلس التأديب الأعلى كما هو حقها شرعا وقانونا .

وقد ناصره فريق من الكتاب منهم الحقوقيون وحملة القانون ومدرسوه وأنكروا على مشيخة الأزهر محاكمته : منهم من احتج على ذلك بأنه لا كهنوتية في الإسلام ، ومنهم من احتج بأن فى محاكمته حجراً على حرية الفكر ومنهم من قال : إن الدين صلة بين العبد وربه ، ويعنى أنه لا شأن لأحد فيمن يتدين ويتصل بربه كما يشاء ويقول فى الدين ما يشاء .

ولما كانت حملة هؤلاء الكتاب لا تخص مسألة الشيخ بخيت ، بل يمكن أن تظهر فى الدفاع عن كل من يتهجم على الدين والوقوف فى وجه من تصدى للدفاع عنه والتهويش عليه — ولو أثمرت وانتصرت وتقرر ما يقولونه فى نفوس العامة لانحلت عرى الدين - لا قدر الله - ولم يتمكن حراسه من الدفاع عنه - رأيت من واجبى أن أبين للسلمين حقيقة الواقع فى مثل هذه المسائل كما اتفق عليه سلف الأمة وخلفها ، ليكونوا على بينة من أمر دينهم ويميزوا الحق من الباطل فيما يقال ويكتب فى شأنه .

بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الناس كافة فى وقت انتشر فيه الفساد ، وساد فيه القلق والفوضى والاضطراب ، وزاد الهرج والمرج بين الناس يموج بعضهم فى بعض على غير هدى ، فكان إرساله رحمة للعالمين كما قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وشرع سبحانه وتعالى على لسانه صلى الله عليه وسلم شريعة تكفلت بصوالح الخلق فى الدنيا والآخرة ، وبانتظام معاشهم ومعادهم ، وهذه الشريعة قسمان : أحكام اعتقادية أصلية المقصود منها اعتقادها والتصديق بها حسبما دل عليه البرهان العقلى القطعى وأيده ما جاء فى كتاب الله الكريم وسنة نبيه المطهرة ، والثانى أحكام عملية المقصود منها العمل من المكلفين ، وكل مكلف لا تخلو أفعاله التى تصدر عنه باختياره عن حكم لله تعالى من الوجوب أو الحرمة أو غيرهما من باقى الأحكام الشرعية . فالواجب الشرعى ما يثاب على فعله ويستحق العقاب على تركه ، والمحرم شرعا ما يستحق العقاب على فعله ويثاب على تركه إن توجهت نفسه إليه ثم كفها عنه .

وقد شرع سبحانه وتعالى عقوبات فى الدنيا للمخالفين للأحكام الشرعية الحتمية : شرع فى بعضها — وهو المهم منها — حدوداً معينة يقيمها على المخالف ولى الأمر من المسلمين ، وشرع فى الباقى تعازير كما يراه ولى الأمر . وأوعد

سبحانه وتعالى المخالفين بالعذاب الشديد فى الدار الآخرة .

وقد نصب الشارع على هذه الأحكام أدلة منها الواضح الجلى ، ومنها الدقيق الخفى ، لذلك تنوعت هذه الأحكام إلى ثلاثة أنواع :

الأول أحكام يقينية قطعية نقلت الينا بالتواتر القطعى بنقل الخلف عن السلف جيلا بعد جيل من عهد النبوة إلى الآن ، فلم يختص بعلمها الخاصة بل اشترك فى العلم بها العامة والخاصة ، فكان العلم بأنها من دين الإسلام علماً ضرورياً لا يختلف فيه اثنان ، وذلك كفرض الصلوات الخمس وصوم رمضان والزكاة وحج بيت الله الحرام وحرمة قتل النفس بغير حق والزنا وشرب الخمر والربا وغير ذلك مما هو معلوم .

وهذا النوع من الأحكام يختص بأمرين :

الأول : أن من أنكر وجحد من المسلمين حكما من هذه الأحكام المعلومة من دين الاسلام بالضرورة يكفر ويرتد عن دين الإسلام ، لأنه بجحده هذا الحكم المعلوم قطعا أنه جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كذب الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن كذب الرسول كفر لأن الإيمان هو التصديق بما علم ضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم .

وأحكام المرتد عن الإسلام فى الشريعة الإسلامية معلومة : منها القتل إن أصر على ردته يتولاه ولى الأمر من المسلمين .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل قتل امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » وقال صلى الله عليه وسلم « من بدل دينه فاقتلوه » .

ومنها التفريق بينه وبين زوجته ، وغير ذلك مما هو مقرر فى الفقه .

الأمر الثانى . أن هذا النوع من الأحكام لا مجال للاجتهاد فيه ولا يتصور ، لأن الاجتهاد استفراغ الوسع فى استنباط حكم شرعى غير معلوم . وهذا الحكم معلوم للخاصة والعامة .

النوع الثانى . أحكام شرعية أجمع عليها أئمة المسلمين لم يخالف فيها أحد ، ولكن اختص بالعلم بها الخاصة دون العامة . ومن أمثلتها استحقاق بنت الإبن السدس مع البنت وهذا النوع من الأحكام كالنوع الأول لا يجوز لمجتهد يأتى بعد الإجماع أن يخالفه .

لأن خرق الإجماع حرام ، إلا أن الأئمة لم يتفقوا على تكفير منكره . والصحيح أنه لا يكفر ، وإنما يأثم ويفسق إن علم به ، ولايجوز العمل بخلافه .

النوع الثالث . أحكام شرعية دقت أدلتها وخفيت . ولذلك اختلفت أنظار الأئمة المجتهدين فى استنباطها وتنوعت المذاهب . وليس فى هذا الاختلاف فى هذا النوع من الأحكام من حرج . كما أنه ليس من الاختلاف المذموم المنهى عنه .

أولا . لأنه وقع مثله فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بين الصحابة وأقرهم عليه .

ثانياً . لأنه ضرورى لايمكن التفصى عنه . لأن المجتهد إذا أفرغ وسعه واستنبط الحكم من الأدلة واطمأنت نفسه إليه لايجوز له مخالفته اتباعاً لغيره .

ثالثاً . لاضرر فيه وإنما فيه فسحة وتيسير على العباد . وقد اتفق الأئمة المعتبرون على أن كل مكلف غير مجتهد عمل بما تحقق أنه استنبطه أحد الأئمة المجتهدين يخرج عن عهدة التكليف ، سواء قلنا إن كل مجتهد مصيب وإن حكم الله فى الحادثة الواحدة يتعدد ، أو إن المصيب فيها واحد والباقى مخطىء . وإن حكم الله لا يتعدد ، وإن له فى كل حادثة حكما واحداً ، لأنه لا يترتب على هذا الخلاف إلا أنه على الرأى الثانى يكون للمصيب أجران وللمخطىء أجر واحد . والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم المصيب فى الواقع من المخطىء . وهو الذى يمنح بفضله الأجرين للمصيب والأجر للمخطىء .

من له حق الاجتهاد ؟ :

ومن عرف دقة الأدلة ظهر له بوضوح تام أنه لا يستطيع استنباط هذه الأحكام أى واحد ، وإنما الذى يستطيعه هو المجتهد . وله شروط ضرورية مبينة فى أصول الفقه : منها أن يكون فقيه النفس ، عالما بعلوم اللغة العربية وأصول الفقه وبمتعلق الأحكام من الكتاب والسنة ، محيطاً بمعظم قواعد الشرع ممارساً لها ، حتى يكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع ، خبيراً بمواقع الإجماع كى لا يخرقه ، واقفاً على الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وغير ذلك مما تنوء بحمله الجبال .

وهل يمكن وجود هذا المجتهد الآن أو لا يمكن ؟ وعندى أنه لو وجد لا تظهر له فائدة فى الأحكام التى استنبطها فعلا الأئمة المجتهدون إلا ترجيح بعض المذاهب ، لأنه لا بد أن يوافق أحد المجتهدين ، ولا يجوز له مخالفة الجميع فيما اتفقوا عليه

وإلا عد خارقا للإجماع وهو لا يجوز . نعم تظهر له فائدة فى استنباط الأحكام فى الأمور المستحدثة التى لم ينظرها المجتهدون السابقون ولا أتباعهم ، لأنها لم تكن فى زمانهم ، وهذا من ضروريات الشريعة ، وفى ظنى أن هذا ليس بعسير . لأن ما تمهده الأئمة السالفون من الضوابط والقواعد يمكن العالم باللغة العربية المتبحر فى علم الفقه وأصوله المطلع على طريقة استنباط الأئمة السابقين أن يدرج هذه الأمور المستحدثة تحت ضابط أو قاعدة شرعية تشملها ، أو إلحاقها بنظائرها ، والشريعة لا تخلو عن ذلك .

من له حق الإفتاء ؟ :

ثم من مارس الفقه وأصوله اتضح له أن بيان الأحكام الشرعية التى دونت به وإفتاء الناس بها ، ليس من حق كل أحد ، لأنه لا يستطيعه على وجهه الصحيح إلا من تلقى علوم الشريعة أصولا وفروعا ووسائلها باستيعاب ، وراجعها المرة بعد المرة بتدريس أونحوه ، حتى أحاط بدقائقها وألم بظاهرها وخفيها ، ووقف على مداركها وأدلتها ، وإلا لم يأمن من الوقوع فى الزلل والإفتاء بالخطأ فيضل ويضل غيره ، وقد قال الله تعالى ـ وهو يذكر الشيطان ـ . «إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون» ، أى يأمركم الشيطان أن تقولوا هذا حلال وهذا حرام من غير علم ، وذكر سبحانه وتعالى «أن تقولوا على الله مالا تعلمون» بعد ذكر الفحشاء مع أنه من جملتها لأنه أعظم أنواعها ؛ فالتهجم على الفتوى أمر عظيم الخطورة .

وكان الواجب أن يصون القانون العام للدولة الشريعة الإسلامية ويحميها من عبث العابثين ، ويحدد من له حق بيان أحكامها . كما صان صناعة الطب ، فإن الخطر على دين الأمة كالخطر على أبدانها .

إذا علمت ما بيناه من أنواع الأحكام الشرعية وخصائص كل نوع علمت أن كل من أبدى حكما خلاف ما علم أنه من النوعين الأولين ـ وبخاصة النوع الأول وبالأخص إذا نشره ودعا الناس إليه ـ وجب على المسلمين على الأقل زجره وردعه حتى يتوب إلى الله ويرجع عن رأيه وتزول آثاره السيئة ويحصل الاطمئنان بأن لا يعود هو أو أمثاله إلى مثل هذا الرأى . ولا يجوز لمسلم أن يدافع عنه ويؤيده .

أما النوع الثالث فقد وسع الله فيه على عباده . فكل مكلف لم يصل إلى درجة الاجتهاد وجب عليه أن يتبع فى تلك الأحكام المختلف فيها من تطمئن إليه نفسه من الأئمة المجتهدين وليس لأحد الإنكار عليه فى هذا الاتباع .

الرد على المناصرين للشيخ بخيت :

هذا ـ ويتعين علينا تفنيد حجج من ناصر الشيخ بخيت فى رأيه المعروف . أما قولهم : « لا كهنوتيه فى الإسلام » فإن أرادوا بالكهنوتية وجود رؤساء دين يحللون ويحرمون ويؤثمون ويعاقبون أو يعفون ويغفرون بآرائهم وأهوائهم من غير استناد إلى الشريعة ، فهؤلاء لا يوجدون فى الإسلام قطعا . وإن أرادوا وجود علماء يعرفون الأحكام التى شرعها الله وهم مكلفون ببيانها للناس على الوجه الصحيح ورؤساء ـ هم أولياء أمور المسلمين ـ يحرسون الإسلام من عبث العابثين ويقيمون الحدود على المخالفين ويؤدبون المعتدين على الإسلام وأحكامه ، فهذا موجود ومشروع فى الإسلام ، وفقدهم وانقراضهم إيذان بقرب قيام الساعة .

أما حرية الرأى والحجر على الأفكار فليس مما نحن فيه ، لأنى لا أظن أن أحدا يعقل أن تعدى الحدود المقررة شرعا أو قانونا يدخل فى نطاق حرية الرأى ، وأن زجر المعتدى وتبيين خطئه داخل فى نطاق الحجر على الأفكار ؛ وإلا لجاز أن يقول كل واحد ماشاء فيما شاء ، ولاشك أن هذه هى الفوضى بعينها .

وأما القول بأن الدين صلة بين العبد وربه فهو كلمة حق إلا أن هذه الصلة يجب أن تكون كما حددها الرب سبحانه وتعالى وبينها على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أما الصلة بغير ذلك فليست صلة ، وإنما هى انقطاع وبعد عن الله تعالى وتمرد عليه وعصيان ؛ لأنه لم يمتثل أمره ونهيه فى تحديد تلك الصلة ، وذلك واضح . والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

حكم المرتد

فى الشريعة الإسلامية

كنت كتبت مقالا بعنوان : متى يجوز الاجتهاد ومتى لايجوز ؟ ، بمناسبة مانشره الشيخ عبد الحميد بخيت فى إباحة الفطر وشروطه ، وقد نشر هذا المقال فى مجلة الأزهر(١) وجريدة الجمهورية . ثم اطلعت على كتيب مطبوع بعنوان اجتهاد جديد للشيخ عبدالمتعال الصعيدى الأستاذ فى كلية اللغة العربية . وقد ذكر فيه مقالى المشار إليه ، وعقب عليه بأمور خمسة ، مهد لها بتمهيد رمانى فيه وأمثالى من غالب علماء الأزهر بالجمود ، وأننا سبب ضعف المسلمين ، وقال : إن خطأ الشيخ بخيت يهون فى جانب خطئهم وجمودهم .

ولما كان مسلكه فى هذا التعقيب لايجوز غض النظر عنه رأيت من الواجب علىّ تنبيه المسلمين إلى مافيه من الخطورة على أحكام الشريعة ؛ فإنه لو اتخذ مثل هذا المسلك فى أى حكم شرعى متفق عليه بين المسلمين لأمكن إنكاره والقول بخلافه ، ذلك أنه لم يبال باجماع الأئمة ، ولم يراع ماتقرر فى العلوم الشرعية والعربية حتى البديهى منها الذى لايجهله صبيان المكاتب . وقد تشبث بشبه لاتخلو الأدلة عن مثلها .

وإنى أبدأ بالتعقيب الثانى لأنه أهمها وأخطرها ، قال مانصه بالحرف .

«وهو ثانيا يرى أن حكم المرتد القتل لأنه هو المشهور عنده وعند أمثاله من علماء الأزهر ، وهو المقروء فى كتب الفقه الأزهرية ، وهو الذى قال به الأئمة الأربعة ولاقيمة لقول غيرهم فى ذلك عندهم وإن كان هو المناسب لروح الشريعة الإسلامية ، فيجمدون على هذا ولايرون شيئا خلافه ؛ لأنهم لم يدرسوه فى كتبهم ؛ مع أن المرتد فيه أقوال كثيرة : منها أنه يستتاب أبدا ولايقتل ، وقد استدل من ذهب إليه بماروى عن أنس بن مالك أن أباموسى الأشعرى قتل جحينة الكذاب وأصحابه . قال أنس : فقدمت على عمر بن الخطاب فقال : مافعل جحينة وأصحابه ؟ قال : فتغافلت عنه ثلاث مرات ، فقلت ياأمير المؤمنين وهل كان سبيل إلا القتل ؟ فقال عمر : لو أتيت بهم لعرضت عليهم الإسلام . فإن تابوا

---

(١) شوال ١٣٧٤ ص١١٤٣ .

وإلا استودعتهم السجن . وكذلك استدل بما رواه ابن مسعود فى الرجل القائل : إن رسول الله لم يعدل . ولا أراد وجه الله فيما عمل . فإن هذا كفر وردة، مع هذا لم يمكن من أراد قتله من أصحابه من قتله . وقد رويت أخبار فى مثل هذا من الكفر والردة ولم يرد فى شىء منها أن من ارتد تاب من ردته ولا أنه قتل ولا أنه سجن ولا أنه استتيب . ولنا أن نأخذ من هذا أنه لا يستتاب أيضا . . وقد ذهب الحنفية إلى أن المرأة المرتدة لا تقتل ، واستدلوا بما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من النهى عن قتل النساء لما رأى امرأة مقتولة قال : ما كانت هذه لتقاتل . ويمكننا أن نأخذ من هذا أن من ورد فى الأحاديث قتله من المرتدين كان مقاتلا ، فيكون قتله لأنه مقاتل ، لا لأنه مرتد . ويمكن أيضا حمل ما ورد من قتل المرتد على من يرتد من العرب لأنهم خاصة لا يقبل منهم إلا الإسلام ، وكان هذا لسبب سياسى لا لسبب دينى ، لأنه أريد جعل جزيرة العرب وطنا خالصا للمسلمين حتى يقضى على كل أسباب الفتن فيها ، وتكون ملجأ للمسلمين إذا أصيبوا فى غيرها . ولا شك أن عدم قتل المرتد هو المناسب لما جاء به الإسلام من الحرية الدينية ، لأن الدعوة فيه إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة لا بقتال أو غيره من وسائل الإكراه ، وقد نفى القرآن الإكراه فى الدين نفيا صريحا بقوله فى الآية ٢٥٦ من سورة البقرة : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وقوله فى الآية ٢٩ من سورة الكهف : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . ولكن علماء الأزهر لا يزالون يصرون ـ إلا النادر ـ على أن هذا منسوخ بآيات القتال الخ ما قال مما لا فائدة فى نقله .

هذا ما قاله الأستاذ بالحرف ، وإنى سأذكر ما قيل فى شأن المرتد من مواطن الخلاف وموطن الوفاق بين جميع الأئمة ، لا الأئمة الأربعة فقط ، مقتصرا فى مواطن الخلاف على مجرد الحكاية من غير تعرض لمدارك الأئمة فيها . وأما موطن الوفاق فسأذكر فى شأنه كلام الأئمة فى حكاية الإجماع ، وأبين الشبه التى يشتم منها رائحة الخلاف فى هذا الحكم المجمع عليه والتى تشبث بها هذا المجتهد الجديد ثم أبطلها ، ثم أذكر الأدلة الشرعية التى استند إليها جميع الأئمة مع الإشارة إلى إدحاض ما حاوله من تحويلها عن مجراها الطبيعى ، ثم أذكر الشبه التى تشبث بها والتى يشتم منها رائحة المعارضة لهذه الأدلة ، ثم أكر كرا عنيفا على ما تخيله من الأدلة على ما ادعاه من الحكم المخالف للإجماع

ما قيل فى شأن المرتد :

أجمع أئمة المسلمين ـ من صحابة وغيرهم ـ على أن الرجل المرتد عن دين الإسلام يقتل بردته ، واختلفوا فى المرتدة . فذهب الجمهور إلى أنها تقتل كالمرتد ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثورى وابن شبرمة وابن علية إلى أنها لا تقتل . وروى ذلك عن ابن عباس ، واختلفوا أيضا : فقيل يقتل المرتد مطلقا حالا من غير استتابة ، وقيل لا يقتل مطلقا إلا بعد الاستتابة ، وقيل إن كان زنديقا يقتل من غير استتابة وإن كان غيره لا يقتل إلا بعد الاستتابة واختلف القائلون بالاستتابة : فقيل يستتاب مرة ، وقيل ثلاث مرات : قيل فى مجلس واحد أو فى يوم واحد أو فى ثلاثة أيام ، وعن على أنه يستتاب إلى شهر وقيل أكثر ، وعن إبراهيم النخعى يستتاب أبدا ، وسنذكر ما فيه .

حكاية الإجماع على قتل الرجل المرتد

أولا : قال ابن عبد البر فى التمهيد فى الكلام على حديث « من بدل دينه فاقتلوه » : وفقه هذا الحديث أن من ارتد عن دينه حل دمه وضربت عنقه ، والأمة مجمعة على ذلك . وإنما اختلفوا فى استتابته ، وبعد أن ذكر الخلاف فى الاستتابة وفى المرتدة قال : وروى عثمان ابن عفان وسهل بن حنيف وعبدالله بن مسعود وطلحة بن عبدالله وعائشة وجماعة من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس » فالقتل بالردة على ما ذكرنا لا اختلاف بين المسلمين فيه ، ولا اختلفت الرواية والسنة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه ، وإنما الاختلاف فى الاستتابة وفيما ذكرنا من المرتدة اه

ثانيا . قال صاحب المغنى من فقهاء الحنابلة: وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد ، وروى ذلك عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاذ وأبى موسى وخالد وغيرهم ، فلم ينكر ذلك ، فكان إجماعا اه .

ثالثا : قال ابن دقيق العيد فى شرح العمدة : فراق الرجل بالردة عن دينه سبب لإباحة دمه بالإجماع . واختلف الفقهاء فى المرتدة اه . هذا بعض ما قيل من حكاية إجماع أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة فقط على وجوب قتل المرتد .

ما يشتم منه رائحة الخلاف فى قتل المرتد :

أولا : نقل عن إبراهيم النخعى أنه قال : يستتاب المرتد أبدا ، فيفهم من ظاهر كلامه أنه يرى أن الرجل المرتد لا يقتل . وقد اغتر بهذا الظاهر صاحب المغنى ـ فقال بعد أن حكى الإجماع كما سبق ـ : وقال النخعى يستتاب أبدا ، وهذا يفضى إلى أنه لا يقتل أبدا ، وهو مخالف للسنة والإجماع اه . وكذلك اغتر به ابن حزم فقال فى المحلى : وقالت طائفة يستتاب أبدا ولا يقتل ، ورد عليه بقوله : ولو صح هذا لبطل الجهاد جملة ، لأن الدعاء كان يلزم أبدا مكررا بلا نهاية ، وهذا قول لا يقوله مسلم أصلا ، وليس دعاء المرتد ـ وهو أحد الكفار ـ بأوجب من دعاء غيره من الكفار الحربيين ، فسقط هذا القول اه . ويظهر أن المجتهد الجديد اغتر بكلام ابن حزم فحكى ما حكاه من الخلاف .

والتحقيق أن هذا الظاهر من كلام النخعى غير مراد لأنه لا معنى للاستتابة الدائمة إذا لم يترتب على عدم الإجابة شىء ، فيتعين حمله على أنه يستتاب أبدا كلما رجع إلى الردة ، ولذلك قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : وعن النخعى يستتاب أبدا ، كذا نقل عنه ، والتحقيق أنه فيمن تكررت منه الردة اه . يعنى أنه إذا ارتد يستتاب فأن لم يتب قتل ، وإن تاب ترك . فإن رجع وارتد ثانيا يستتاب ، فأن لم يتب قتل ، وإن تاب ترك ، وهكذا . هذا هو المعنى المعقول من كلام النخعى . وقد روى البيهقى فى السنن الكبرى بسنده هذا المعنى عن النخعى أى أنه قال . المرتد يستتاب كلما رجع . والدليل الصحيح الواضح على مراد النخعى ما ذكره البخارى فى صحيحه تعليقا بصيغة الجزم فقال : وقال ابن عمر والزهرى وإبراهيم اى النخعى : تقتل المرتدة اه .

فإذا كان النخعى يقول بقتل المرتدة التى فيها خلاف ، فهو يقول بقتل المرتد من باب أولى . على أن الحافظ ابن حجر حينما بين أئمة الحديث الذين وصلوا هذا التعليق ظهر منه أن بعض الروايات عن النخعى بهذا النص : إذا ارتد الرجل أو المرأة عن الإسلام استتيبا ، فإن تابا تركا ، وإن أبيا قتلا اه . فلا حاجة بنا إلى القياس الأولوى على المرتدة . فيتعين مما ذكرناه أن النخعى كغيره يقول بوجوب قتل المرتد إن لم يتب ، وأن معنى ما نقل عنه من قوله : « يستتاب أبدا » أنه يستتاب كلما رجع . والله أعلم .

ثانيا : ما رواه البيهقى فى السنن الكبرى وابن عبد البر فى التمهيد وابن حزم فى المحلى عن أنس بن مالك قال . إن نفرا من بكر بن وائل ارتدوا عن الإسلام يوم تستر ولحقوا بالمشركين ، فلما فتحت قتلوا فى القتال ، فأتيت عمر بفتحها فقال : ما فعل النفر من بكر بن وائل ؟ فعرضت فى حديثه لأشغله عن ذكرهم . فقال : ما فعل النفر من بكر بن وائل ؟ قلت : قتلوا . فقال لأن أكون أخذتهم سلما أحب إلى مما طلعت الشمس من بيضاء أو صفراء . فقلت وهل كان سبيلهم إلا القتل ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين . قلت : اعرض عليهم أن يدخلوا فى الباب الذى خرجوا منه فإن فعلوا قبلت منهم ، وإلا استودعتهم السجن . اه ، وهذا لفظ رواية ابن عبد البر ، واللفظ الذى أورده المجتهد الجديد لفظ ابن حزم ، وظاهر هذه الرواية عن عمر أنه يرى عدم قتل المرتد فى الحال ، بل يرى سجنه ، ولكنه لم يبين فى هذه الرواية غاية سجنه . هل يسجن مدة معينة فأن لم يتب بعدها يقتل ، أو يخرج من السجن من غير قتل ، أو يسجن مؤبدا فلا يخرج من السجن إلا إن تاب ، كل محتمل ، وقد ورد عن عمر مايعين مدة سجن المرتد بثلاثة أيام فإن تاب وإلا قتل ، فقد روى مالك فى الموطأ قال : قدم على عمر بن الخطاب رجل من قبل أبى موسى الأشعرى ، فسأله عمر عن الناس ، فأخبره ، ثم قال له عمر : هل من مغربة خبر ؟ قال : نعم ، رجل كفر بعد إسلام . قال فماذا فعلتم ؟ قال قربناه فضربنا عنقه ، قال عمر . هلا حبستموه ثلاثا وأطعمتموه كل يوم رغيفا واستتبتموه فلعله يراجع أمر الله ، اللهم إنى لم أحضر ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى ، وفى رواية كما فى التمهيد لابن عبدالبر قال . قدم وفد أهل البصرة على عمر فأخبروه بفتح تستر ، فحمد الله ثم قال . هل حدث لكم حدث ؟ قالوا . لا والله يا أمير المؤمنين ، إلا رجل ارتد عن دينه فقتلناه ، فقال . ويلكم ، أن تطينوا عليه بيتا ثلاثا ، ثم تلقوا إليه رغيفا ، فأن تاب قبلتم منه ، وإن أقام كنتم أعذرتم إليه ، اللهم إنى لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى . اه ، فهذا يدل على أن عمر يرى وجوب الاستتابة وإمهاله ثلاثة أيام مع سجنه فيها ، فإن تاب وإلا قتل ، فتحمل الرواية المطلقة على ذلك . وقد استدل ابن القصار — كما فى فتح البارى — بهذا الأثر عن عمر لما قاله الجمهور من وجوب الاستتابة ثلاثة أيام ، وادعى أن عمر قاله بمحضر الصحابة ولم ينكر عليه ، فكان إجماعا ، اه . هذا مايمكن أن يتخيل فيه وجود خلاف بين

المسلمين في وجوب قتل المرتد، وقد تشبث به حضرة المجتهد الجديد ففهم منه الخلاف تبعا لابن حزم الذى اغتر بما نقل عن النخعى ، وكان الواجب استيفاء البحث ليوفق بينه وبين من نقل الإجماع .

الأدلة الشرعية التى تعتبر سندا للإجماع

أولا : قوله صلى الله عليه وسلم . « من بدل دينه فاقتلوه » أخرجه البخارى وأصحاب السنن ، وكلهم أخرجوه فى ضمن قصة إحراق على لبعض الزنادقة ، إلا ابن ماجه فاقتصر على هذا اللفظ .

ثانيا : قوله صلى الله عليه وسلم . « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث . كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس » أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة . وقال ابن عبد البر فى التمهيد كما تقدم ورواه عثمان بن عفان وسهل بن حنيف وعبدالله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعائشة وجماعة من الصحابة اهـ .

ثالثا : ما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا موسى الأشعرى إلى اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل ، فلما قدم عليه ألقى إليه وسادة قال . انزل . فإذا رجل موثق عنده قال : ماهذا ؟ قال . كان يهوديا فأسلم ثم تهود . قال . اجلس . فقال . لا أجلس حتى يقتل . قضاء الله ورسوله . فأمر به فقتل . وفى رواية زيادة بعد قوله . « قضاء الله ورسوله » هى قوله . إن من رجع عن دينه ـ أو قال بدل دينه ـ فاقتلوه .

هذه بعض الأدلة الشرعية التى تعتبر سندا للإجماع . ومن المعلوم أن الصحابة عملوا بمقتضى هذه الأدلة ، فإن أبا بكر رضى الله عنه حارب أهل الردة باتفاق الصحابة ، وذلك معروف ومشهور . وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد أن عليا أتى بالمستورد العجلى وقد ارتد عن دين الإسلام ، فاستتابه فأبى ، فقتله . وأخرج أيضا أن عليا أخذ رجلا من بكر بن وائل تنصر بعد الإسلام فعرض عليه الإسلام شهرا فأبى فأمر بقتله . ثم إن هذه الأحاديث الدالة على وجوب قتل المرتد وآثار الصحابة التى تفيد العمل بمقتضاها ليس فيها مايشتم منه رائحة حملها على المرتد من العرب الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام ، كما يقوله حضرة المجتهد الجديد ، ومن الواضح أن المقاتلين سواء كانوا مرتدين أو كفارا أصليين أو مسلمين بغاة يجب قتالهم على الوجه المقرر فى الشريعة ، وهذا حكم آخر بأدلة أخرى غير هذه الأدلة

التي وردت فيمن بدل دينه وكفر بعد إيمان ، ولو كان فردا واحدا لم يقاتل . والمرتد الذي نفذ فيه القتل أبوموسى الأشعرى كطلب معاذ كان أصله يهوديا فأسلم ثم ارتد ، فلم يكن من العرب الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام .

ما يتخيل فيه المعارضة لهذه الأدلة

أولا : ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن مسعود أنه قال : لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة حنين قال رجل من الأنصار : ما أراد بها وجه الله ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فتغير وجهه فقال : رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا .

ثانيا : ما أخرجه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدرى أنه قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم جاء عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فقال : اعدل يارسول الله . فقال : ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب : أتئذن لى فأضرب عنقه . فقال : دعه فأن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية إه .

ووجه المعارضة أن الذي صدر من هذين الرجلين فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر كفرا وردة ، ومع ذلك لم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلهما ولا باستتابتهما ، ومنع عمر من قتل الثانى ، فدل ذلك على أن المرتد لا يقتل ويستتاب كما رآه حضرة المجتهد الجديد :

والجواب عن ذلك . أما عن الرجل الأول فإنه كان من المنافقين ، واسمه معتب بن قشير من بنى عمرو بن عوف . ومن المعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى بدء الإسلام يتغاضى عن المنافقين وعما يحصل منهم من إيذاء حتى لا يعرف عنه أنه يقتل أصحابه فتنفر الناس عن الدخول فى الإسلام . وكان يرجو أن يهديهم الله إلى الإيمان كغيرهم ويعاملهم معاملة المؤمنين ويصلى على من مات منهم ولما استقر الإسلام وظهر ، أمره الله بجهادهم كظهرى الكفر ، فقال الله تعالى : « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين » ونهاه عن الصلاة عليهم فقال تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » .

هذا — واعلم أن ابن حزم فى المحلى ذكر المنافقين وما كان يحصل منهم فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه شبهة لمن يقول بعدم قتل المرتد وأطال الكلام فى ذلك ، وخلاصة ما أجاب به أن المنافقين أقسام : منهم من لم يكن يعرف الرسول

عينه ، ومنهم من كان يعرفه ولكنه تاب . وأما من كان يعرفه وظهر منه مكفر ولم يتب ولم يقتله فلأن ذلك كان قبل تشريع قتل المرتد . وقد علمت أن مأخذ ابن حزم فى حكاية هذا القول هو ما نقل عن النخعي وسبق تحقيق القول فيه. وصاحبنا المجتهد الجديد تبع ابن حزم فى حكاية هذا القول والشبه التى أوردها ، ولم يتبعه فى رأيه فيها ، بل زاد عليه القول بعدم استتابة المرتد أيضا ، مع أن ابن حزم حكى الإجماع على ذلك ، وعبارته « والأمة مجمعة على إكراه المرتد عن دينه ، فمن قائل يكره ولا يقتل ، ومن قائل يكره ويقتل » اه .

وأما عن الرجل الثانى فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر عنه بأنه رأس الخوارج ، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومآلهم وأمر بقتلهم وقتالهم، ووقع كما أخبر وذلك من دلائل نبوته .

إلا أن صدور هذا الكلام من هذا الرجل رئيسهم كان قبل أن يستقر الإسلام فكان الحال داعيا للتآلف لئلا ينفر الناس عن الإسلام ، وقد ورد فى بعض طرق هذا الحديث أنه حينما أراد عمر قتله ومنعه الرسول صلى الله عليه وسلم قال عليه الصلاة والسلام : « لا أريد أن يسمع المشركون أنى أقتل أصحابى » وفى رواية : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » ولذلك ذكر البخارى هذا الحديث تحت ترجمة (باب ترك قتال الخوارج للتآلف ولئلا ينفر الناس عنه) .

وقد صح عن أبى سعيد الخدرى راوى هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر الإسلام بعث إلى هذا الرجل على بن أبى طالب ليقتله فلم يجده، والله أعلم .

(تفنيد الأدلة التى تخيلها من بنات فكره على ما ادعاه من مخالفه الإجماع)

أما قوله : ولاشك أن عدم قتل المرتد هو المناسب لما جاء به الإسلام من الحرية الدينية ، فغير صحيح على إطلاقه ، لا بالنسبة للمسلمين ولا بالنسبة للكفار ، أما المسلمون فقد تقرر فى الشريعة عقوبات رادعة فى الدنيا من حدود وتعازير لكل من تعدى منهم حدود الله ، فتارك الصلاة يعاقب بالقتل أو الحبس ، ومانع الزكاة تؤخذ منه قهرا ، فإن كان له منعـــة وقاتل يقاتل ، وهكذا . فأين الحرية الدينية لهم ؟ . وأما الكفار فإن كانوا من أهل الكتاب وأمثالهم فالمطلوب منهم إما الإسلام وإما دفع الجزية احتراما لأصل دينهم . وإن كانوا من غيرهم فالمطلوب منهم الإسلام فقط فأين الحرية الدينية المطلقة لهم ؟ .

وأما قوله : لأن الدعوة إليه إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، فهذا صحيح على الجملة ، لكن إن لم تفد الحكمة والموعظة الحسنة وعاند الكافر ولم يسلم ولم يدفع الجزية ـ إن كان من أهل الكتاب ـ أو وقف فى سبيل الدعوة على الرأى الحديث ـ فاذا يكون الحال ؟ أيترك حرا ولا يقاتل أم يقاتل ؟ !

وأما قوله : إن القرآن نفى الإكراه فى الدين نفيا صريحا واستدلاله بالآيتين الشريفتين ، فهذا من عجائب الأفكار وغرائب الأفهام . أما الآية الأولى فكلام الأئمة فيها مشهور ، فنهم من قال : إن معناها لا إكراه من الله تعالى فى الدين ، ولا إلجاء ولا قسر ، بعد أن تبين الرشد من الغى ، وإنما جعل الأمر موكولا إلى اختيارهم أحد النجدين : طريق الهدى والرشاد وطريق الغى والضلال ، ليتحقق الابتلاء والامتحان فى دار الدنيا ، ثم هو سبحانه وتعالى يجازى كلا حسبما فعل باختياره . وربما يتوهم أن هذا المعنى إنما يتمشى على مذهب المعتزلة الذين يقولون بخلق العبد أفعاله الاختيارية . وليس بصحيح ؛ بل يجرى على مذهب أهل السنة أيضا لأنهم يقولون . إن للعبد كسبا واختيارا هو مناط التكليف ، ومنهم من قال : إنه خبر بمعنى النهى ، والمعنى لا تكرهوا أحدا على الإيمان ، وهى خاصة بأهل الكتاب ، فإنهم مخيرون بين الإسلام ودفع الجزية ، وسبب نزولها يؤيد هذا الرأى . وهناك أقوال أخرى وكلها لا تمت إلى المرتد بنسب ولا سبب .

وأما الآية الثانية فالجواب عنها هو مجرد تلاوتها بتمامها . قال الله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ؛ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

ولا شك أن العامى الذى يسمع تلاوتها كل جمعة من قارىء (سورة الكهف) يفهم منها أن الغرض التهديد من الله تعالى للكافرين ، ولا يخطر فى باله أن المعنى على الإباحة والتخيير ، إذ لا معنى للوعيد الشديد حينئذ .

وقد رأيت كتابا صغيرا يدرس لتلاميذ المـــدارس الأولية أو الإعدادية فيه التمثيل للأمر الوارد للتهديد بهذه الآية ، فكيف يغيب عن أستاذ فى كلية اللغة العربية مالم يجهله صبيان المكاتب ؟ ! فإذا كان هذا مبلغ إدراكه فى اللغة العربية فكيف يصح أن يؤتمن على تدريسها ؟ هدانا الله وإياه إلى سواء السبيل ؟

المؤتمر الإسلامي وترجمة القرآن الكريم

اهتم المؤتمر الإسلامي بالقاهرة اهتماما بالغا بموضوع ترجمة القرآن الكريم ، وحرص على تنفيذه بكل ما أوتى من قوة ، ووجه الدعوة إلى الكثيرين من كبار علماء الإسلام وعظماء رجاله ، وذوى الرأى والمكانة منهم لإبداء رأيهم فى هذا الموضوع الخطير الذى يمس العقيدة الإسلامية ، ويهزها هزا عنيفا . ومهد لذلك بنشر بيان مستفيض يقع فى ست وعشرين صفحة تناول كثيرا من الأدلة والحجج التى رأى القائمون على المشروع أنها تؤيد مدعاهم وتؤازر مذهبهم .

وقد تلقى الشيخ رحمه الله كتاب المؤتمر بهذا الشأن بتاريخ ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ ومعه البيان المنوه عنه آنفا .

وهذا هو نص خطاب المؤتمر لفضيلته .

السيد الأستاذ صاحب الفضيلة الشيخ عيسى منون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد فتجدون سيادتكم مع هذا ، صورة من البحث الخاص بمشروع ترجمة القرآن .

وهذا البحث يصور جزاء من العمل الذى ينوى المؤتمر القيام به

ذلكم أن المؤتمر ينوى أن يطبع القرآن بنصه العربى فى النصف الأيمن من الصفحة اليمنى ، وفى النصف الآخر من نفس الصفحة يطبع الترجمة التى يعتبر البيان المرافق شرحا لوجهة نظر المؤتمر بخصوصها

وفى الصفحة المقابلة تطبع ترجمة التفسير التى تقوم الآن بوضعه باللغة العربية لجنة من الأساتذة تحت إشراف المؤتمر

والمرجو من سيادتكم الإطلاع على البيان المرافق ، وإبداء رأى سيادتكم فيه ، مع إبداء رأى سيادتكم أيضا فى ترجمة التفسير التى تقوم اللجنة الآن بوضعه إذ يرغب المؤتمر فى أن يضم ترجمة التفسير ، إلى الترجمة النصية ، إلى النص العربى ، لتظهر هذه الجوانب الثلاثة كلها معا .

والمؤتمر كبير الرجاء فى أن توافوه برأيكم واضحا فى نوعى الترجمة (ترجمة النص ، وترجمة التفسير) ، رجاء الاسترشاد به .

وتفضلوا بقبول عظيم شكرنا سلفا ،،

تحريرا فى ١٢ / ١٢ / ١٩٥٥

صاغ

السكرتير العام المساعد

(أمين شاكر)

معارضته لمشروع ترجمة القرآن الكريم

التى كان ينوى المؤتمر الشروع فيها

بعد أن اطلع رحمه الله على المشروع كما يريده المؤتمر والذى أشار إليه مجملا فى خطابه المرافق للبيان غضب رحمه الله لهذا المشروع الخطير الذى يتناول كتاب الله الكريم بالترجمة ومايتبع ذلك من التغيير والتبديل

ولقد رد فضيلة الشيخ رحمه الله على ذلك ردا محكما دقيقا بعد دراسة وافية لمشروع الترجمة المرسل إليه ،وفند جميع ما احتج به المؤتمر على ما ذهب إليه فى مشروعه من القول بجواز ترجمة القرآن الكريم :

وأوضح ببيان شاف وعبارات صريحة لا لبس فيها ولا إبهام صدى ما فى المشروع من مخالفة لنصوص القرآن الكريم ومجافاة لما جرى عليه عمل المسلمين سلفاً وخلفاً ، وانعقد عليه إجماع أئمتهم فى جميع عصور الإسلام كما أشار إلى مايترتب على ذلك من الأضرار التى يراها القارىء مبسوطة فى رده على المؤتمر وإلى مايؤول إليه الأمر من اختلاف المسلمين تبعا لاختلاف التراجم الأمر الذى يجعل كتاب الله العزيز الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فى معرض القبول والرد والتصحيح والإبطال وفى ذلك الطامة الكبرى ، والداهية العظمى .

وهذا أمر لايرضاه مسلم حافظ بعقله يكون من دينه على بينة وبصيرة .

ولا يسعنا قبل أن نختم هذه الكلمة ، إلا أن نحمد الله تعالى ، ونشكر للمؤتمر موقفه الكريم ، وعدوله عن مشروعه — ترجمة القرآن المجيد — رجوعا منه إلى الحق ؛ والرجوع إلى الحق فضيلة ؛ تذكر فتشكر .

وهذا أمر يزيده إكبارا وتقديرا فى أعين المسلمين ، وأنه إنما يبتغى وجه الله والحق ونصيحة المسلمين .

وفق الله المسلمين جميعا للعمل بكتابهم الكريم ؛ وسنة نبيهم الأمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وإليكم رده رحمـــه الله على مشروع المؤتمر .

حضرة السيد الصاغ أمين شاكر السكرتير المساعد للمؤتمر الإسلامى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فإجابة لخطاب سيادتكم المؤرخ ١٢/١٢/١٩٥٥ بعد الإطلاع على صورة المشروع الخاص بترجمة القرآن الكريم المرافقة لهذا الخطاب . أفيد سيادتكم بأنى أرى أنه لاتجوز ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية أو نصية أو معنوية إذا كانت الترجمة تحاذى النص العربى وتحاكيه فى نسبة الكلام لما فى ذلك من الأضرار والأخطار التى شرحناها فى المذكرة الإيضاحية المرافقة . وإنما يجوز تفسير القرآن الكريم تفسيرا وسطا واضحا ينسب الكلام فيه إلى المفسر ويقتصر فيه على راجح الأقوال ثم يترجم هذا التفسير ويطبع بنصه العربى ، وترجمته فى جانب والقرآن الكريم فى جانب آخر حتى لا يقع الاشتباه بأنه القرآن الكريم بأى وجه من الوجوه .

وأما ماذكر فى خطاب سيادتكم من أن المؤتمر ينوى أن يطبع القرآن الكريم فى النصف الأيمن من الصفحة اليمنى ، وفى النصف الآخر من نفس الصفحة تطبع الترجمة التى يعتبر البيان المرافق شرحا لوجهة نظر المؤتمر بخصوصها . وفى الصفحة المقابلة ترجمة التفسير الذى يقوم الآن بوضعه باللغة العربية لجنة تحت إشراف المؤتمر .

فأسأل الله سبحانه وتعالى أن لايخرج هذا الذى نواه المؤتمر بمجموعه إلى حيز الوجود ، وذلك أن هذه الترجمة التى ستوضع فى صفحة القرآن هى نصية وحرفية أو معنوية تحاكى القرآن فى نسبة الكلام كما هو ظاهر المشروع . ومهما قيل عنها بأنها ليست هى القرآن ومهما اعترف بأنها لم تف بجميع معانى القرآن . فهى معتبرة ترجمة القرآن كترجمة غيره من الكتب . وأهل العرف لا يفرقون بين الكتاب وترجمته كما وضحناه فى المذكرة الإيضاحية المرافقة . ويجوز أن تنسلخ الترجمة عن النص العربى وتطبع وحدها ، ويعتبر أهل اللسان هذه الترجمة هى القرآن ، وفى ذلك من التلبيس على المسلمين والخطورة على القرآن مافيه .

فالذى أراه الاقتصار على طبع القرآن الكريم مع تفسيره بالنص العربى الذى وضعته اللجنة وترجمته : فإن ذلك يؤدى إلى الغرض المقصود من غير ضرر ولا اشتباه .

والله الهادى إلى سواء السبيل » .

عيسى منون
عضو جماعة كبار العلماء
وشيخ كلية الشريعة سابقا

يناير سنة ١٩٥٦

ومرافق لهذا الخطاب مذكرة إيضاحية :

المذكرة الإيضاحية
حول ترجمة القرآن الكريم

تمهيـــد :

الترجمة : هى إبانة معنى كلام من لغة من اللغات بكلام آخر من لغة أخرى .
قال فى المصباح : يقال ترجم كلام غيره إذا عبر عنه بلغة أخرى .

ومن المعلوم عرفا أن ترجمة أى كتاب أو رسالة تكون مساوية للأصل ومحاذية له فى حكاية المعنى ونسبته إلى ما هو منسوب إليـه فى الأصل ، فترجمة « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » تكون بلفظ من لغة أخرى يفيد الإخبار من الله بأنه أنزل القرآن فى ليلة القدر . ولا تكون الترجمة حقيقية إلا إذا اتفقت ألفاظ اللغتين فى إفادة هذا المعنى من غير زيادة ولا نقصان ، وحينئذ يجوز أن تحل الترجمة محل الأصل وتستوى اللغتان فى الاعتماد عليهما والاحتجاج بكل منهما عند الحاجة إلى العمل بهذا المعنى . ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان المترجم حاذقا للغتين واقفا على مراد المتكلم الأول من كلامه بطريق من الطرق دون الاعتماد على مجرد فهم كلامه لمعرفته بأصول لغته . وبغير ذلك تكون الترجمة تقريبية ، وتتفاوت فى القرب من الأصل والبعد عنه حسب قوة المترجم وضعفه .

والترجمة التقريبية لا تحل محل الأصل فى الاعتماد عليها فى موطن العمل المبنى على مقتضى ما تفيده النصوص ؛ لكن العرف العام بين الناس يعتبر الترجمة حالة محل الأصل مطلقا سواء كانت حقيقية أو تقريبية وسواء كانت الترجمة واحدة أو متعددة من لغة واحدة أو من عدة لغات ، وسواء كانت المتعددة متفقة أو مختلفة ؛ كترجمة التوراة والإنجيل ؛ فإنها تسمى فى العرف بالتوراة والإنجيل ، وككتاب كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندى ، فإن أصله باللغة الهندية وترجم إلى عدة لغات ومنها العربية ويسمى الجميع كليلة ودمنة ، وككتاب سر تقدم الإنجليز السكسونيين الذى ترجمه المرحوم فتحى زغلول فإنه يسمى بهذا الاسم فى ثوبه العربى كما يسمى بذلك فى ثوبه الإنجليزى . وهكذا كثير من الكتب المترجمة لا يتحاشى الناس عن إطلاق اسم الأصل على الترجمة من غير تصريح بها وذلك لاعتقادهم أن الترجمة والأصل شىء واحد لا يختلفان إلا فى اللغة .

فلو عقدت معاهدة بين دولتين مختلفتى اللسان ووضعت موادها بلغة إحدى

الدولتين بمشاركة أولى الأمر من الدولة الثانية العارفين بتلك اللغة ثم ترجمت الدولة الثانية تلك المعاهدة بلغتها لاتكون تلك الترجمة معتمدة عند الدولة الأولى بحيث يصح الرجوع إليها عند الاختلاف فى تطبيقها إلا إذا كانت تلك الترجمة معتمدة من تلك الدولة : بأن يوافق على نصوصها بتلك اللغة أولو الأمر منها من العارفين بلغة الدولة الثانية ، وحينئذ يستوى أصل المعاهدة وترجمتها فى كل شىء : فى الاسم والمراعاة فى التطبيق ؛ والرجوع إلى نصوص أيتهما عند الاختلاف بين الدولتين . ولكن العرف العام ـ كما قلنا ـ يعتبر الترجمة مطلقا نفس المعاهدة ، ويسوى بين الأصل وترجمته من غير فرق ، سواء وافقت الدولة الأولى على الترجمة أولم توافق لأن أهـــل العرف ليسوا فى معرض الاحتجاج بالنصوص والتزام الدقة فيما يستفاد منها .

القرآن الكريم :

إذا تمهد هذا فالقرآن الكريم يطلق على معنيين : أحدهما الصفة القديمة ، وهو بهذا المعنى موضع نظر علماء التوحيد ، وهذا لا كلام فيه فى موطن الترجمة . الثانى اللفظ المنزل من عندالله على سيدنا محمدصلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته ، وهذا اللفظ عربى كما هو معلوم قال تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أول سورة يوسف ، وهو موضع نظر الأصوليين والفقهاء ، لأن منه استنباط أحكام الشريعة إما مباشرة أو بالواسطة ، وهو بهذا المعنى موضع النظر فى ترجمته إلى غير العربية ، فنقول : يستحيل عقلا ترجمته إلى لغة أخرى ترجمة حقيقية بحيث تساوى الأصل فى إفادة جميع ماقصد منه من غير زيادة ولا نقصان وفى الاعتماد والاحتجاج بكل منهما ، وتكون الترجمة حجة بين الله وخلقه كالأصل ، إلا إذا كانت الترجمة بتوقيف من الله تعالى ، وهو ما لم يكن ولن يكون قطعا .

وأما الترجمة التقريبية ، وهى التى تكون بحسب مايفهمه المترجم من نصه العربى فإن كان المترجم لها غير خبير باللغة العربية أو باللغة الأخرى التى يراد الترجمة إليها أوغير خبير بالأصول الإسلامية القطعية ، أوغير خبير بسنة النبى صلى الله عليه وسلم الذى عهد إليه بيان ما أنزله الله تعالى عليه من الذكر الحكيم كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم) سورة النحل . أو كان من الطوائف

المبتدعة الخارجة عن الإسلام وترجم القرآن على مقتضى نحلته وهواه ، فهناك تكون الطامة الكبرى والداهية العظمى ، فإن هذه الترجمة تصوير للقرآن على غير حقيقته وتحويل لبيانه عن الطريق القويم ، وذلك كما قيل عن ترجمة الطائفة القاديانية للقرآن الكريم .

وإن كان المترجم خبيراً باللغةالعربيةو باللغة الأخرى ، خبيرا بأصول الإسلام القطعية ، خبيرا بالسنة النبوية المطهرة ، وليس من أهل الأهواء والبدع فلا يمكن أن تكون ترجمته وافية بمعظم مقاصد القرآن الكريم : أولا — لأن فى اللغة العربية من المزايا والخواص والاتساع ماليس فى غيرها من اللغات ، فإن فيها الحقيقة والمجاز والكناية والاشتراك والترادف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والإضمار وغير ذلك . ثانيا - لأن فى القرآن الكريم من سمو المعنى وجزالة التركيب وبراعة الأسلوب ماليس فى كلام العرب ، وإن كان من جنس كلامهم ، ولذلك أعجز البشر ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) سورة الإسراء . ثم إنه يدل بالعبارة عـلى منطوق وعلى مفهوم ، والمفهوم إما مفهوم موافقة إن وافق المنطوق ، أومفهوم مخالفة إن خالفه ويدل أيضا بدلالةالاقتضاء ، ودلالة الإيماء ، ودلالة الإشارة . وبعبارة أخرى يدل بدلالة العبارة . ودلالة النص ودلالة الاقتضاء ، ودلاله الايماء ، ودلالة الاشارة .

وفيه المطلق والمقيـد ، والعام والخاص ، والمحكم والمتشابه ، والنص والظاهر والمؤول والمجمل والمبين وغير ذلك مما يطول شرحه ، وهذا يجعل الترجمة التقريبية ناقصة وقاصرة وغير وافيـة بمعظم مايقصد من القرآن الكريم ، ومهما كانت وافية ببعض المعانى لاتكون حجة يجوز للمسلم الاعتماد عليها فى أخذ الحكم الشرعى واستنباطه إن كان أهلا لذلك ، لاللمترجم ولالغيره : أما غير المترجم فظاهر لأنه يلزمه التقليد للمترجم . وأما المترجم فيجب عليه إذا أراد استنباط حكم مراعاة النص العربى لأنه هو الحجة فى حقه دون الترجمة . ومع ذلك ففى الترجمة ضرر كبير وخطر جسيم ، مع أنها خالية من الفائدة ، فلا ينطبق عليها ماأخبر عنه سبحانه وتعالى فى شأن الخمر والميسر بقوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) سورة البقرة :

أما الضرر والخطر فلأمور :

أولا : لأن فيها تلبيسا على المسلمين بأنها القرآن الكريم كالنص العربى ، وهى ليست كذلك بالاتفاق . ووجه التلبيس أن العرف العام يقضى بأن ترجمة أى كتاب ونفس الكتاب شيء واحد ، فأن كتاب كليلة ودمنة بالنص العربى فى نظر الناس هو كليلة ودمنة بالنص الأصلى الهندى ، وكتاب سر تقدم الانجليز باللغة العربية هو بعينه كتاب سر تقدم الانجليز باللغة الانجليزية ، ولا يجـــدى نفعا مايتخذ من الاحتياط فى ترجمة القرآن الكريم بالتنبيه على أنها غير القرآن ، فأن تطاول الزمن وتعدد طبع الترجمة ومايفهمه أهل العرف يكفى كله أو بعضه فى اعتبار الترجمة والأصل واحدا من غير فرق .

ثانيا : أن الترجمة قد تتعدد بعدد اللغات ، وقد تتعدد فى لغة واحدة ، وفى ذلك ضرر من وجهين . الأول أنه يقع فيها اختلاف ، وهذا الاختلاف يكون فى نظر العامة اختلافا فى القرآن ـ لافى التراجم ـ فيكون القرآن الكريم فى معرض القبول والرد والتصحيح والإبطال والعياذ بالله تعالى . والوجه الثانى أن التعدد قـد يكون مثار اختلاف المسلمين فى أصل دينهم ، لأنه يكون لكل طائفة منهم قرآن بلغتهم يعتزون به ، وقد ينكرون غيره ، فمع مافيه من خطر الإنكار يترتب عليه ضياع حكمة إنزال القرآن بلغة واحدة ، وهى جمع المسلمين على كتاب واحد .

ثالثا : أن فتح باب الترجمة للقرآن الكريم من جهة رسمية يعتبرها المسلمون قدوة يشجع الملحدين وغيرهم على ترجمته ترجمة مشوهة ، وتختلط الترجمات فلايفرق عوام المسلمين من غير العرب بين التراجم ، فتكون ترجمته سببا للإضلال لاللهداية مع أنها تحمل المسلمين غير العرب على عدم العناية بالقرآن الكريم بثوبه العربى ، وعدم تمتعهم بقدسيته العظيمة وروحانيته الباهرة .

أما إذا قفل باب الترجمة كما قفله أسلافنا الأقدمون ، وعرف لعموم المسلمين أن القرآن لفظ عربى أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم معجز للبشر متعبد بتلاوته كما أنزله الله لاتجوز ترجمته ، فأن هذه التراجم لايلتفت إليها المسلمون فتندثر ولايكون لها اعتبار إلا عند صانعها كما هو الحال الآن ، كما أن ذلك يحمل المسلمين غير العرب على تذليل الصعاب فى سبيل تعلم اللغة العربية حتى ينعموا ببركات هـــذا الكتاب المبارك ، ويتمكنوا من التعبد بتلاوته والاستهداء بهديه .

وأما مايقوله المناصرون للترجمة فى هذا الزمن من أن لها فائدة هى إرشاد المسلمين غير العرب إلى أمور دينهم وتصحيح عباداتهم ومعاملاتهم والحيلولة بينهم وبين التراجم الفاسدة المضللة التى ينشرها بينهم المبشرون ليردوهم عن دينهم ودعوة غير المسلمين من غير العرب إلى الاسلام ، لأن اطلاعهم على محاسن القرآن ومزاياه بالترجمة ربما هداهم إلى دين الإسلام فغير وجيه ، فإن إرشاد عوام المسلمين إلى ماذكر إنما يكون بوساطة مرشدين من أهل العلم الذين يعرفون علوم الإسلام ، سواء كان العوام المسلمون من العرب أو من غيرهم ، إلا أنه ينبغى أن يكون المرشد لغير العرب عارفا بلسانهم . أما مجرد تلاوة القرآن ولو بنصه العربى فلا يكفى لإرشاد العوام العرب ، لعلوه عن مستواهم ، فغير العرب من باب أولى ، وكذلك دعوة غير المسلمين إلى دين الإسلام إنما تثمر إذا قام بالدعوة علماء يشرحون أصول الإسلام ويبينون مزاياه ومراعاته لصوالح الناس فى الدنيا والآخرة .

فأذا رأى ولاة الأمر من المسلمين أن بعض المسلمين فى بعض البلاد الإسلامية وغيرها ـ وبخاصة غير العرب ـ قد تفشى بينهم الجهل بالدين ويخشى عليهم من تأثير المبشرين ، فليبعثوا مرشدين إلى تلك البلاد ممن يعرف لغتهم ويطلبوا إلى أهل تلك البلاد أن يبعثوا من بينهم طلابا إلى الجامع الأزهر ليتعلموا علوم دينهم ، ويعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم . وبتوالى هذه البعثات من هنا وهناك يمكن أن يحصل المقصود ويزول هذا الخطر عن بلاد المسلمين .

ولو انضم إلى ذلك بذل المساعى والجهود لدى جميع الدول والطوائف الإسلامية غير العربية فى نشر اللغة العربية بينهم ، واعتبارها لغة رسمية بين المسلمين فى جميع الأقطار كان ذلك خيرا عظيما ، لأنها لغة الدين ، ولا يمكن الوقوف عليه من جميع الوجوه إلا بأتقان اللغة العربية .

وقد كان حال المسلمين فى العصور السابقة كلما فتحوا بلادا نشروا اللغة العربية فيها ، وقد برز كثير من العلماء الأعاجم فى علوم اللغة العربية حتى فاقوا كثيرا من العلماء العرب ، مثل الزمخشرى صاحب الكشاف ، وعبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة :

ورضى الله عن الإمام الشافعى إذ يقول فى رسالته الأصولية « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ،

ويتلو كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك . وما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان من ختم نبوته، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيرا له ، كما عليه الصلاة والذكر فيها، ويأتى البيت وما أمر بأتيانه ويتوجه إلى ماوجه إليه ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب إليه لامتبوعا» .

وقد أشار رضى الله عنه بقوله: (ويكون تبعا) إلى دقيقة سياسية كان على المسلمين استدامة مراعاتها ، وقد راعاها المستعمرون ، فأنهم إذا استعمروا بلدا نشروا لغتهم بين أهلها ليكونوا تابعين لهم .

من أجل ما قلناه وغيره مما لم نصل إليه أجمع أئمة المسلمين على عدم جواز (ترجمة القرآن الكريم) ترجمة عامة كترجمة غيره من الكتب ، وأجازوا ترجمة تفسيره ، وسنذكر نصوصهم فيما بعد .

الفرق بين الترجمة والتفسير :

والفرق بين ترجمة نفس القرآن وتفسيره أن الترجمة تحاكى الأصل بحيث يظهر لقارئ الأصل والترجمة أن المتكلم واحد ، سواء كانت الترجمة حقيقية أو تقريبية ، فهى تحاذى الأصل فى نسبة الأقوال تماما ، فأذا كانت عبارة الأصل هكذا « قلت لفلان كذا ، وورد على بكذا » فالترجمة تكون على السياط والنمط ، من أجل ذلك قلنا فى التمهيد : إن العرف العام يقضى باتحاد الترجمة والأصل .

وأما التفسير فهو شرح وبيان لمعنى القرآن الكريم بحسب ما فهمه المفسر بعبارة من عنده منسوبة إليه يتضح لكل من قرأه أنه غير القرآن الكريم ، وقد يشتمل التفسير على زيادات من التوجيه وبيان أسرار التركيب وغير ذلك.

ولظهور أن عبارة التفسير صادرة من المفسر لايقع اشتباه بينها وبين القرآن ولم يكن فى ترجمته ضرر أو خطر كالذى بينا ترتبه على ترجمة نفس القرآن، والله الهادى إلى سواء السبيل .

نصوص الأئمة فى ترجمة القرآن الكريم

١ — قال الزركشى فى البحر المحيط فى علم الأصول ـ وهو كتاب مبسوط لم يطبع ـ : لايجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها ، بل يجب قراءته على هيئته التى يتعلق

بها الإعجاز ، لتقصير الترجمة عنه ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسنة قال تعالى : (بلسان عربى مبين) .

٢ — عبارة النووى فى كتاب المجموع شرح المهذب فى فقه الشافعية صفحة ٣٧٩ من الجزء الثالث : « مذهبنا أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنه ذلك بالعربية أو عجز عنها ، وسواء كان فى الصلاة أو غيرها، فإن أتى بترجمته فى صلاة بدلا عن القراءة لم تصح صلاته سواء أحسن العربية أم لم يحسن » .

٣ — عبارة المغنى لابن قدامة فى فقه الحنابلة صفحة ٥٣٠ من الجزء الأول : « ولا تجزيه القراءة بغير العربية ، ولا إبدال لفظها بلفظ عربى ، سواء أحسن قراءتها بالعربية أو لم يحسن » اه .

٤ — وأما ما نقل عن الحنفية من جواز قراءة القرآن بالفارسية فهو فى خصوص الصلاة لبعض آيات تتوقف عليها صحة الصلاة ، وقد أجازوا ذلك للعاجز عن قراءة هذه الآيات باللغة العربية للضرورة واكتفاء بالمعنى ، فأن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، أما ترجمة جميع القرآن كما يراد من المشروع فقد نصوا على منعه كغيرهم من باقى الأئمة.

وهذه بعض نصوص الحنفية :

(١) قال شيخ الإسلام أبو الحسن المرغينانى الحنفى فى التجنيس :

« ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالإجماع، لأنه يؤدى إلى الإخلال بحفظ القرآن ، لأنا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى ، فأنه دلالة على النبوة، ولأنه يؤدى إلى التهاون بأمر القرآن » .

(٢) وقال فى معراج الدارية :

« من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو مجنون أو زنديق ، والمجنون يداوى ، والزنديق يقتل » .

مشروع الترجمة

مشروع الترجمة صريح فى الترجمة التى بينا فيما سبق أنها لا تجوز ، أما الترجمة الحرفية فظاهر . وأما الترجمة المعنوية فأن هذه الترجمة متى كانت تحاكى الأصل وتحاذيه فى نسبة الكلام ــ وإن لم تف بجميع مقاصده ــ هى فى العرف ترجمة القرآن يعتبرها أهله مع تطاول الزمان هى نفس القرآن مهما اتخذ من الاحتياط بالتنبيه على

أنها ليست هى القرآن كما شرحناه فيما سبق . نعم إن أرادوا بالترجمة المعنوية تفسيرا مختصرا ينسب الكلام فيه إلى المفسر من غير محاذاة للأصل ولا محاكاة له فى نسبة الكلام فلا مانع منه بشرطين : الأول أن تكون عبارته واضحة أنها تفسير للقرآن منسوبة للمفسر ، والثانى طبع نصها العربى معها ليزول الاشتباه من كل وجه . وهذا خلاف ظاهر المشروع ، فأن ظاهره أن المراد ترجمته بالمعنى المعروف لا تفسير .

وما استند إليه المشروع من كلام المرحوم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فأن رأيه قد استقر على ترجمة التفسير كما يعلم من استفتائه جماعة كبار العلماء وافتائهم بذلك وتصديق مجلس الوزراء (إبريل ١٩٣٦) .

وما استند إليه أيضا من كلام الزمخشرى فى كشافه فقد اقتصر فى نقل عبارته كما يقتصر القارىء على قوله تعالى : (فويل للمصلين) ، وقوله تعالى . (لا تقربوا الصلاة) ، وذلك أن بقية عبارته تفيد ترجمة تفسيره وتفهيمه للناس ، فقد قال فى آخرها : « مع مافى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتراخية والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم فى تعلم لغته وتعلم معانيه ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف» اه ومثله عبارة شيخ الإسلام وهو أبو السعود .

وماستند إليه أيضا من عبارة الزيلعى شارح الكنز فى فقه الحنفية فكلامه كغيره من الحنفية فيما تجزىء قراءته فى الصلاة فقط ، وفى آخر عبارته قال : إن أبا حنيفة رحمه الله رجع عن رأيه .

وما استند إليه من كلام الشاطبى فى الموافقات ، فخلاصته أن اللغة العربية تختص بالدلالة على معان ثانوية تابعة وخادمة زيادة عن المعانى الأصلية فلا يمكن ترجمتها بالنظر لهذه المعانى التابعة التى اختصت بها اللغة العربية إلى لغة أخرى ، ويمكن ترجمتها بالنظر إلى المعانى الأصلية المشتركة بين جميع اللغات ، وذكر خلافا وهو أنه هل تستفاد الأحكام الشرعية من القرآن الكريم باعتبار دلالته على المعانى الثانوية أولا تستفاد ، ورجح عدم استفادتها ، ويعنى أنها لا تكون مقصودة بالتبليغ ، وبناء عليه جوز ترجمة القرآن بالنظر لمعانيه الأصلية المقصودة بالتبليغ قياسا على تفسيره الذى اتفق عليه أهل الإسلام .

وعندى أن كلامه غير وجيه : فأولا لانسلم أن الأحكام الشرعية لاتستفاد من القرآن باعتبار دلالته التبعية ، فأن تقديم ماحقه التأخير قد يفيد الحصر فيكون مشتملا على الإثبات والنفى كقوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فأن معناه نعبدك ولا نعبدغيرك ، ونستعينك ولا نستعين غيرك ، والأول منطوق والثانى مفهوم، وبعبارة أخرى الأول أصلى والثانى تبعى . ولو سلم ذلك فترجمة القرآن باعتبار معانيه الأصلية على فرض استيعابها لها ليست مساوية للقرآن بالاتفاق ، ومع ذلك تشتبه به وتعتبر فى نظر أهل العرف أنها القرآن ، وفيه من الخطورة ما فيه كما سبق ، وقياسها على التفسير قياس مع الفارق كما وضحناه .

وما استند اليه من كلام الحافظ ابن حجر نقلا عن ابن بطال المالكى من أن الوحى كله متلو أو غير متلو نزل بلسان العرب وبلغ اليهم وهم يبلغونه إلى غير العرب بالترجمة ، فمراده أن أحكام الدين الإسلامى من أصول وفروع وأخلاق ـ المأخوذة من الكتاب والسنة ـ تبلغ إلى غير العرب بالترجمة ، وليس مراده أن يترجم القرآن كله إلى لغات عدة بحيث يتكون من تلك التراجم مصاحف عدة إنجليزية وفرنسية ولاتينية .. الخ . والدليل على ذلك أنه لم يقع فى زمانهم ولا فى زمان من قبلهم . والله اعلم؟

تعقيب المؤتمر على رد فضيلته

جاءتنا مذكرة فضيلة الشيخ عيسى منون عضو جماعة كبار العلماء ، وعميـد كلية الشريعة الإسلامية سابقا . بعد أعدادنا تعليقنا على ما ورد قبل من إجابات ، وبعد أن طبعناه بالفعل ، فأفردناها بكلمة خاصة(١) .

يلاحظ أنه بينما يرى فضيلة الشيخ عيسى منـون أن ترجمات القرآن كلها بأى نوع من أنواعها ، حرفية أو نصية ، أو معنوية . ممنوعة إذ يقول :

« انى أرى أنه لا تجوز ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية ، أو نصية . أو معنوية ، إذا كانت الترجمة تحاذى النص العربى ، وتحاكيه فى نسبة الكلام » .

إذا بفضيلة الشيخ حسن مأمون مفتى الجمهورية المصرية يرى أن ترجمة القرآن ترجمة معنوية جائزة ، بل مطلوبة ، وأن ترجمته ترجمة حرفية فى المواضع التى يمكن ترجمتها كذلك ، جائزة ، فيقول .

(حقيقة أن الترجمة الحرفية أقرب إلى الأصـل من الترجمة المعنوية ، ولكن ما دامت الترجمة الحرفية غير ممكنة ، أو على الأقل غير ميسورة ، فإنه لا ضير علينا من الاكتفاء بالترجمة المعنوية ، أى بترجمة معنى القرآن ، مع المحافظة أثناء هذه الترجمة على أن تتضمن أيضا الترجمة الحرفيـة المؤدية لفهم المعنى الأصلى ، فى المواطن التى يمكن فيها ذلك .

وترجمة معانى القرآن على هذا الوجه تحقق الغرض المنشود من نشر أحكام القرآن وآدابه بين العالمين ، ممن لا يعرفون اللغة العربية ، وتصحيح الأخطاء الكثيرة التى وقع فيها كثير من المستشرقين فى ترجماتهم التى لا يصح إقرارها ولا السكوت عليها ، لما فيها من الأضرار الكثيرة التى تصور الإسلام فى غير صورته الحقيقية ، ولا سبيل إلى القضاء عليها إلا بوجود ترجمة لمعانى القرآن خالية من هذه الأخطاء .

على أن يوضع النص العربى للقرآن ، وبجانبه الترجمة المعنوية ، ثم يوضع تفسير مبسط يترجم أيضا .

ويكون هذا عملا مفيدا جدا ، لنشر الدعوة الإسلامية بين من لا يعرفون العربية) .

---

(١) سيأتى رد الشيخ رحمه الله على تعقيب المؤتمر على مذكرته الإيضاحية رداً شافيا يزيل كل شبهة ويهدى الحائر إلى الطريق المستقيم .

وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن فى مسألة ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية مجالا للاختلاف . وعلى أن أمر ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ليس مما يعلم حكمه من الدين بالضرورة ، بحيث لا يسوغ للناس الأخذ والرد فيه .

ولما كنا من جانبنا حريصين على الوصول إلى جهة نظر موحدة أو قريبة من الموحدة فى هذا الموضوع الهام ، فإنا نرى أن نبدى رأينا فى وجهة نظر غيرنا ، كما أبدى غيرنا رأيه فى وجهة نظرنا ، فعسانا بعد التحرى والاستقصاء نتفق على أمر يتحقق فيه مانحرص عليه من خير ، ويخلص مما يخشى أن يجر فى أعقابه من شر .

والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

ولعله من الواضح أن الترجمة التى ينوى المؤتمر عملها — مع الاحتياط الشديد الذى سيصاحبها لنفى شبهة أنها قرآن — ستعمل لغير العرب .

ولعله من الواضح أيضا أن العرب لن يتركوا لغتهم ولغة القرآن ويستبدلوا بها اللغة أو اللغات التى سيترجم إليها القرآن .

وإذا كان العرب ستظل لهم عروبتهم وعربيتهم — بإذن الله — فسيظل القرآن معروفا متلقى ، بطريق التواتر جيلا عن جيل فيما بينهم .

وإذا كان الأمر كذلك ، فأى اختلاف بين الترجمات يحدث فى بلد غير عربى، فسيكون العرب ، وسيكون القرآن الذى بين أيديهم حكما فيه .

ولعله من الواضح ثالثا أن الأخطار التى توقعتها المذكرة كأنما قامت على افتراض أن الترجمات التى ستعمل ، ستعمل لجميع المسلمين من العرب وغير العرب على السواء وأنها ـ حين تفصل عن النص العربى على مر الزمن ، وتطبع وحدها على انفراد ، وتتناولها يد التغيير والتبديل ، وتؤخـــذ على أنها قرآن كما تقول المذكرة ـ ستلتبس على جميع المسلمين من العرب وغير العرب على السواء . إذ تقول المذكرة .

أما الضرر والخطر فلأمور .

أولا : لأن فيها تلبيسا على المسلمين بأنها القرآن الكريم ، كالنص العربى وهى ليست كذلك بالاتفاق .

ووجه التلبيس أن العرف العام يقتضى أن ترجمة أى كتاب ونفس الكتاب

شيء واحد ، فإن كتاب كليلة ودمنة بالنص العربى ، فى نظر الناس هو كليلة ودمنة بالنص الأصلى الهندى ، ولا يجدى نفعا ما يتخذ من الاحتياط فى ترجمة القرآن الكريم بالتنبيه على أنها غير القرآن فإن تطاول الزمن ، وتعدد طبع الترجمة ، وما يفهمه أهل العرف ، يكفى كله أو بعضه فى اعتبار الترجمة والأصل واحدا من غير فرق .

ثانيا — أن الترجمة قد تتعدد بتعدد اللغات ، وقد تتعدد فى لغه واحدة ، وفى ذلك ضرر من وجهين : —

الأول : أنه قد يقع فيها اختلاف ، وهذا الاختلاف يكون فى نظر العامة اختلافا فى القرآن ، لا فى الترجمة ، فيكون القرآن الكريم فى معرض القبول والرد والتصحيح والإبطال ، والعياذ بالله .

الثانى : أن التعدد قد يكون مثار اختلاف المسلمين فى أصل دينهم ، لأنه يكون لكل طائفة منهم قرآن بلغتهم يعتزون به ، وقد ينكرون غيره ، فمع ما فيه من خطر الإنكار يترتب عليها ضياع حكمة إنزال القرآن بلغة واحدة ، وهى جمع المسلمين على كتاب واحد .

ثالثا : أن فتح باب الترجمة للقرآن الكريم من جهة رسمية يعتبرها المسلمون قدوة يشجع الملحدين وغيرهم على ترجمته ترجمة مشوهة ، وتختلط الترجمات، فلا تفرق عوام المسلمين من غير العرب بين التراجم ، فتكون ترجمته سببا للإضلال لا للهداية مع أنها تحمل المسلمين غير العرب على عدم العناية بالقرآن الكريم ، بثوبه العربى ؛ وعدم تمتعهم بقدسيته العظيمة ، وروحانيته الباهرة .

هكذا تفترض المذكرة أن الخطر الذى توجس منه خيفة هو خطر يتهدد فى أغلب حالاته المسلمين كلهم ؛ لا الأعاجم وحدهم ، وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت التراجم التى تعمل ، تعمل للمسلمين جميعهم ، لا للأعاجم وحدهم .

وافتراض أن الشعوب العربية سوف تأخذ هى أيضا بهذه الترجمات ، وستهمل النص العربى للقرآن ، وستهمل لغتها العربية ، وتستعيض عنها بلغات أعجمية ، افتراض نسأل الله أن لا يتحقق .

على أنه جريا وراء هذا الافتراض ، لا يكون هناك معنى لأى احتياط ، لأنه حين يهمل العرب عروبتهم وعربيتهم ويأخذون بلغة أخرى غير العربية ، ستكون الترجمات

ضرورة لابد منها سواء رضينا أم أبينا ، إن بقى فى مثل هذه الحال ميل إلى دين ، و رغبة فى تدين .

ونحب أن نسأل عما ورد فى عبارة المذكرة القائلة .

(فمع مافيه من خطر الإنكار يترتب عليه ضياع حكمة إنزال القرآن بلغة واحدة وهى جمع المسلمين على كتاب واحد) بخصوص معنى جمع المسلمين على كتاب واحد هل يعنى بذلك جمعهم على لغة واحدة هى لغة هذا الكتاب ؟ . إن كان الأمر كذلك فما هى تلك الحكمة التى لم تتحقق خلال الأربعة عشر قرنا الماضية ؟ . أم يعنى بذلك جمعهم على مبادىء هذا الكتاب الواحد ؟ . إن كان ذلك هو المراد ، ففى تعريفهم به عن طريق ترجمات صحيحة ، تحل محل الترجمات الخاطئة التى تفسد عليهم دينهم وعقائدهم تحقيق للحكمة .

ومن الغريب أن رأى مذكرة فضيلة الشيخ عيسى فى أن الترجمات (تحمل المسلمين غير العرب على عدم العناية بالقرآن الكريم بثوبه العربى ، وعدم تمتعهم بقدسيته العظيمة وروحانيته الباهرة) يقع على النقيض من رأى فضيلة المفتى الذى يذهب إلى أن هذه الترجمات الصحيحة سوف تحفز الهمم لتعلم لغة القرآن، فإن حلاوة الترجمات الصحيحة سوف تحمل قارئيها على شدة القرب منه ، وذلك حيث يقول (ولا أخشى من هذا العمل على اللغة العربية ، ولا أن يعرض عنها المسلمون ، وربما كان الأمر على العكس ، فإن من يطلع على الترجمة بجانب النص العربى ، ويفهم الترجمة ، يرى من الخير له أن يتعلم اللغة العربية ، حتى يتمكن من فهم النص بنفسه) .

أما ذهاب مذكرة فضيلة الشيخ عيسى إلى أن الترجمات قد تتعدد وتتعارض وتؤخذ كل واحدة على أنها قرآن ، وتكون سببا لاختلاف المسلمين فى أصل دينهم ففيه الكثير من سوء الظن بالمسلمين ، وبمستقبل الإسلام ، ذلكم لأن الإنجيل الذى ترجم إلى لغات عدة ، ما يزال أهله الذين يعرفون لغة الأصل يتفقون فيما بينهم على أن ترجمة بذاتها تنطبق على الأصل الذى بين أيديهم ، وما عداها ، بين مزيف ومحرف ، وناقص ، وهكذا . . . الخ . والناس من ورائهم يتلقون أحكامهم هذه بالقبول والاتباع ، فمعروف بين أبناء النصرانية من كل شعب ما هو من الترجمات صحيح ، وما هو منها غير صحيح ، تبعا لما يقوله أهل

الرأى منهم . فإذا كان الأمر كذلك مع كتاب لايعرف لغته الأصلية إلا أفراد معدودون بين الشعوب فما بالنا بالقرآن الذى تتكلم لغته شعوب بأسرها . فكيف يتصور أن تنسلخ الترجمة عن الأصل . ثم تتعدد وتختلف باختلاف الطبعات ، وأن يندس بين هذه الترجمات دخيل مقصود به التحريف والإفساد ، ثم يكون من آثار ذلك ما يكون من اختلاف المسلمين فى أصل دينهم مع وجود الأصل الالهى ، الذى تقوم على حراسته ورعايته شعوب بأسرها ، من واجبها أن تكون على اتصال بشعوب العالم أجمع ، وخاصة الشعوب المسلمة الأعجمية لتنصحها وترشدها وتوجهها وتعلمها ، وهذا فضلا عن وعد الله الحق بحفظ كتابه وصيانته .

وما دام الأصل محفوظا مصونا ، فكل اختلاف فى الترجمات يرجع فيه إليه .

على أن كتب الأشخاص — لا كتب السماء — من أمثال أرسطو وأفلاطون ممن عاشوا فى القرن الحادى عشر قبل نزول القرآن وفى القرن الخامس قبل بعثة السيد المسيح لم يشتبه على الناس من كل الشعوب الترجمات الفاسدة بالترجمات الصحيحة منها ، لأن أصول هذه الترجمات موجودة معروفة ، وبالرغم من أن من يعرفون اللغة الأصلية لهذه المؤلفات قلة ودون القلة ، وبالرغم من أن نفوس الحفظة لأصول هذه المؤلفات لاتحمل نحوها من الإجلال والإكبار مثل ما تحمل نحو كتب السماء نفوس رجال الدين فى الجملة ، ونفوس رجال الدين الإسلامى على الوجه الأخص .

فلا خوف أذن على أصول الإسلام من انتشار ترجمات صحيحة للقرآن ، ليست الا تفاسير له يرجع فى كل أمر بشأنها إلى القرآن نفسه .

* * *

— (الفرق بين التفسير والترجمة) —

خصصت مذكرة فضيلة الشيخ عيسى جزءا منها لبيان الفرق بين التفسير والترجمة ، قالت (والفرق بين ترجمة نفس القرآن وتفسيره ، أن الترجمة تحاكى الأصل ، بحيث يظهر لقارىء الأصل والترجمة أن المتكلم واحد . . . . . وأما التفسير فهو شرح وبيان لمعنى القرآن الكريم بحسب ما فهمه المفسر بعبارة من عنده منسوبة إليه يتضح لكل من قرأه أنه غير القرآن الكريم) . وانتهت المذكرة من ذلك إلى هذه النتيجة : —

(ولظهور أن عبارة التفسير صادرة من المفسر، لا يقع اشتباه بينها وبين القرآن الكريم ، لم يكن فى ترجمته ضرر أو خطر كالذى بينا ترتبه على ترجمة نفس القرآن) .

ويجب أن نؤكد هنا أن ما نسميه ترجمة ، داخل فى نطاق التفسير مشتمل على خصائصه فما لا شك فيه أنه يجوز أن يقال فى التفسير : —

يقول الله تعالى فى الآية الثالثة والثلاثين بعد المائتين من سورة النساء (أن نسائكم لكم كالأرض التى يقصد منها إنبات النبات للانتفاع به ، فاجعلوا هدفكم الأساسى من مباشرتهن الأنسال وانجاب الأطفال ، وطريقكم إلى ذلك هو إتيانهن من حيث أمرتكم (١) .

وإنما أجاز المفسرون نسبة مثل هذا الكلام إلى الله لأن معناه مستمد من آيات كتابه .

ولم يخش المفسرون أن يظن الناس أن ألفاظ هذه العبارات هى من كلام الله المنزل ، لأن السياق يمنع من ذلك .

فعلى هذا الأساس ستكون عبارات الترجمة منسوبة إلى الله ، باعتبار معناها ، ثم أن البيان التفصيلى الذى يذكر فى المقدمة — بالإضافة إلى كتابة كلمة (تفسير) على الجزء المقابل للنص القرآنى وكتابة كلمة (قرآن) على الجزء الذى يكتب فيه القرآن ، ضافة أيضا إلى ما يفيده الجمع بين العبارة الأجنبية وبين النص القرآنى — كل ذلك سيكون بمثابة السياق الذى كان قرينة مانعة من نسبة عبارة كلمات المفسرين إلى الله .

وكما هو معروف فى التفسير — إن صراحة وإن ضمنا — أن التفسير تصوير لما يفهمه المفسر ، فسيكون معروفا بطريق النص الصريح أن المذكور مع النص القرآنى بلغة أجنبية هو تصوير لفهم صاحب هذه العبارات .

ثم إذا كان فضيلة الشيخ عيسى نفسه يقرر فى قوله (إن كتاب كليلة ودمنة

---

(١) « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » . وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين

(٢) ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث امركم الله) .

أما العرب فلا شأن لهم بهذه التراجم ولا يلتفتون إليها ولا ينظرون إليها إلا نظرة ازدراء على ما أعتقد ثم إنى لم أتعرض فى بيان أضرار التراجم إلى ما يخشى على القرآن الكريم فى ذاته أن يقع فيه التغيير والتبديل بل لا يمكن أن يخطر على البال مع النص الصريح بأن الله تكفل بحفظه قال تعالى «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ومع كثرة العرب الذين يبلغون الملايين وهو محفوظ لديهم فى المصاحف والصدور لا يغفلون عن شن الغارة والمبادرة بالإنكار على من أخطأ فى حركة من حركات القرآن الكريم .

ثانيا — تساءل المعقب عن معنى جمع المسلمين على كتاب واحد وأجيب عن ذلك بتحديد المعنى المراد فأقول :

إن الله تعالى أنزل على رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم المبعوث إلى الناس كافة كتابا واحدا بلغة واحدة هى لغة العرب ليكون مصدرا لهدايتهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين ومنبعا لشريعته إليهم وإلى بيان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم المرجع فى تصحيح عباداتهم ومعاملاتهم . ثم ما يؤخذ منه من ضروب الهداية ، وأنواع الشرائع ، والأحكام يبلغ إلى الناس كل طائفة بلسانه وقد طلب من الجميع التعبد بتلاوته بنصه العربى ولامتثال هذا الطلب لا بد من اتخاذ وسائل توصل إلى ذلك . فالعربى يتعلم القراءة والكتابة ليتمكن من تلاوته ، وغير العربى يتعلم اللغة العربية بمقدار ما يتمكن من تلاوته . وظاهر كلام الإمام الشافعى الذى سقناه فى المذكرة أن ذلك واجب حيث قال فعلى كل مسلم أن يتعلم من اللغة العربية ما يبلغ به جهده ، حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويتلو كتابه الخ .

فلو ترجم إلى عدة لغات الترجمة المعروفة التى تعتبر فى العرف كالأصل واختلفت هذه التراجم تعدد المصدر والمنبع والعياذ بالله تعالى .

ثالثا — قال المعقب ومن الغريب أن رأى مذكرة فضيلة الشيخ عيسى فى أن الترجمات تحمل المسلمين غير العرب على عدم العناية بالقرآن الكريم بثوبه العربى وعدم تمتعهم بقدسيته العظيمة وروحانيته الباهرة يقع على النقيض من رأى فضيلة الشيخ المفتى الذى يذهب إلى أن هذه الترجمات الصحيحة سوف تحفز الهمم لتعلم لغة القرآن الخ .

والجواب عن ذلك هو أن رأى فضيلة المفتى لو سلم (والتعبير بسوف يشعر

باستبعاده) فإنما يكون بالنسبة لبعض الأفراد الذين يرغبون فى التوسع فى معرفة الدين الإسلامى على حقيقته . وأما الكثرة الساحقة فإنهم يكتفون بالتراجم الميسورة لهم . ولولا هذه التراجم لكان الإسلام كافيا فى أن يكون حافزا لكثير من المسلمين غير العرب على تعلم اللغة العربية ليقفوا على حقيقة الدين الإسلامى من منبعه ويتمكنوا من التعبد بتلاوته .

رابعا — قال المعقب أما ذهاب مذكرة فضيلة الشيخ عيسى إلى أن الترجمات قد تعدد الخ . ففيه الكثير من سوء الظن بالمسلمين الخ .

والجواب عن ذلك أن المعقب سلم بوجود مثل هذا الضرر فى التوراة والإنجيل وفى كتب أرسطو . وأجاب عنه بأن رؤساء النصرانية واليهودية وأهل الرأى فيهم ميزوا الصحيح من الباطل فى التراجم المتعددة للتوراة والإنجيل وكذا أهل الرأى الواقفون على لغة الأصل من كتب أرسطو .

ومادرى أن الاختلاف بين تراجم كتب العهدين القديم والجديد أى التوراة والإنجيل لايزال قائما . فإن التوراة السامرية لاتزال مخالفة للتوراة العبرية وهما مخالفتان للتوراة اليونانية . وهذا غير اختلاف كل توراة من هذه الثلاثة بحسب التراجم والمطابع ومثل مايقال فى التوراة يقال فى الإنجيل ، ولم يجد نفعا فى توحيد نسخ التوراة الرجوع إلى رؤساء النصرانية واليهودية وأهل الرأى فيهم .

فهل يرى حضرة المعقب عفا الله عنا وعنه أنه لا مانع من أن يكون القرآن كذلك فى معرض التصحيح والأبطال فى البلاد الإسلامية غير العربية .

خامسا — قال المعقب على الفرق الذى شرحته المذكرة بين الترجمة والتفسير مانصه (ونحب أن نؤكد أن مانسميه ترجمة داخل فى نطاق التفسير ، مشتمل على خصائصه فمما لا شك فيه أنه يجوز أن يقال فى التفسير يقول الله تعالى فى الآية الثالثة والثلاثين بعد المائتين من سورة النساء ، أن نساءكم لكم كالأرض التى يقصد منها إنبات النبات للانتفاع به فاجعلوا هدفكم الأساسى من مباشرتهن الأنسال وإنجاب الأطفال وطريقكم إلى ذلك هو أتيانهن من حيث أمرتكم)

والجواب عن ذلك أنه مما لاشك فيه أن الترجمة شىء والتفسير شىء آخر ، وأن الفرق بينهما الذى وضح فى المذكرة لا يختلف فيه أثنان فإن التفسير كلام المفسر يوضح كلام غيره . وأما الترجمة فهى إحلال لفظ غير عربى مكان لفظ عربى فى

إفادة المعنى مع نسبته إلى المتكلم الأول فإضافة التفسير إلى المفسر غير إضافةالترجمة إلى المترجم فقول المعقب فما لاشك فيه أنه يجوز أن يقال فى التفسير يقول الله تعالى إن نساءكم لكم كالأرض الخ) إن كان مراده أنه يجوز أن يقال ذلك على الحقيقة فواضح أنه غير مسلم لأن القول يحكى اللفظ ، والله سبحانه وتعالى لم يقل ذلك، فيكون القائل كاذباويكون قوله ذلكحراما . وقد نصوا على ذلك . وإن كان مراده أنه يجوز أن يقال ذلك تجوزا علىخلاف الأصل منالتعبير وينصب على ذلك قرينة واضحة بأنه أراد يقول الله مامعناه كذا فهذا جائز إذ لا حجر فى المجاز ، ومع ذلك فثل هذا يقع منالمفسرين نادرا لأنه على خلاف طريقةالتأليف المطردة. ولكن هل يجوز أن يأتى مفسر بعبارات من عنده تفيد معنى القرآن الكريم من أوله إلى آخره وتكون بجمل وفقرات يرتبط بعضها ببعض كالقرآن الكريم بحيث تكون كتابا مستقلا ؟

ويصدر هذا الكتاب بقوله ، قال الله تعالى ، ولا ينصب عليه قرينة إلا تسميته بأنه تفسير للقرآن ومن المعلوم أن مجرد التسمية بالتفسير قد تنفك عنه . أو يعتبر مثلهذا المفسر ملبسا على المسلمين ولا شكأن الترجمة أشد اشتباها وأعظم ضررا والله أعلم .

ومن الطريف أن المعقب وضع رقما فى آخر عبارة معنى الآية هكذا ثم ذكر نص الآية فى أسفل الصحيفة بعد أن خط خطا فاصلا هكذا (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم . وأتوهن منحيث أمركم الله) فيخيلللناظرأنها آية واحدة هى آية ٢٣٣ المشار اليها مع أن صدرها بعض آية ٢٢٣ وتمامها .وقدموا لأنفسكم واتقوا الله وأعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين وعجزها بعض آية أخرى سابقة عليها لكن بلفظ فأتوهن من حيث أمركم الله والآية بتمامها (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساءفى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله .

ولايخفى أن المعنى الذى ساقه للآية لم يشمل شرح أنى شئتم ولايكفى فى بيانه قوله إتيانهن من حيث أمرتكم .

سادسا — قال المعقب فى سبيل الرد على ماجاء فى المذكرة من صعوبة ترجمة القرآن الكريم مانصه : وأما أن هناك دلالات متعددة لعبارات القرآن كدلالة

النص ودلالة الاقتضاء الخ الخ . فإنا لن نقف بإزاء هذه الدلالات كلها وإنما سنقتصر على مايفيد المعنى الأصلى للعبارة ولاتظن أن اقتصارنا على المفاد الأصلى للعبارة سيفوت علينا شيئا من أحكام الشريعة وأنوار الهداية التى اشتمل عليها القرآن إذ أن صاحب الموافقات يقرر أن الدلالات التبعية لم ينط بها شيء من هذه الأهداف . اهـ

وأقول لحضرة المعقب نحن فى حاجة شديدة إلى تحديد المعانى الأصلية والمعانى التابعة الخادمة للمعانى الأصلية التى عناها الشاطبى وذكر أنها من خواص اللغة العربية وأجرى فيها الخلاف هل منها أحكام شرعية فتكون الدلالة التبعية يستفاد بها كما يستفاد بالدلالة الأصلية أولا ؟، ورجح عدم الاستفادة. لأنها لو تركت مرسلة من غير بيان ولاتحديد لم يتحرر النزاع . فإننا إذا ذكرنا شيئا يصعب معه ترجمة القرآن رد علينا بأنه من الدلالات التبعية التى لم ينط بها شيء من الأهداف .

فالمعانى الأصلية والمعانى الأولية هى التى يدل عليها الكلام من غير مراعاة مايقتضيه المقام والمعانى التابعة والمعانى الثانوية الخادمة هى ماقصد بها المطابقة لمقتضى المقام التى دل عليها الكلام فمثلا إذا أردنا الإخبار عن قيام زيد لمن أنكر ذلك فإن قلنا قام زيد دل هذا الكلام على المعنى الأصلى وهو مجرد ثبوت القيام لزيد وهو غير بليغ لأنه لم يطابق مقتضى الحال ولم يدل على المعنى الثانى فإن قلنا إن زيدا قائم كان مطابقا لمقتضى المقام فكان بليغا ودل على المعنى الأصلى كما دل على المعنى التابع وهو تحقق مضمون الخبر فى الخارج ردا على المخاطب المنكر وأنه لاحق له فى إنكاره . وهكذا المزايا والخواص التى يقتضيها المقام واشتمل عليها الكلام كالذكر والحذف والتقديم والتعريف والتنكير وغير ذلك مما يذكر فى علم المعانى . وهذه هى التى عناها الشاطبى فى كلامه كما وضح ذلك فى المسألة الثانية من النوع الثانى فى قصد الشارع فى وضع الشريعة للإفهام ، ولاشك أن هذه المعانى الخادمة لايؤخذ منها فى الغالب أحكام شرعية وإنما جيء بالكلام على حالة خاصة لإفادتها لأنه بمطابقته لمقتضى الحال يكون حسنا بليغا ذاروعة يتلقاه السامع بالقبول وحسن الاستماع . ولخفاء كون الكلام يدل على أحكام شرعية بالنظر لدلالته على هذه المعانى وقع خلاف فى ذلك ورجح الشاطبى عدم الاستفادة . وأنا لما رأيت أن من ضمن المزايا

التي يشتمل عليها الكلام ويطابق بها لمقتضى الحال تقديم المفعول على الفعل فإنه قد يرد للتخصيص والتخصيص هو الحصر الذى يتضمن الإثبات والنفى مثل إياك نعبد وإياك نستعين وأمكن أن يكون النفى حكما شرعيا رأيت أن بعض المزايا البلاغية يمكن أن يفيد الكلام معها حكما شرعيا فاعترضت على ترجيح الشاطبي فاعترض علىّ المعقب . وبهذه المناسبة سأتعرض لاعتراضه هنا وإن كان واردا فى موطن آخر قال إن ماقلته غير مسلم أولا لأن إفادة تقديم ماحقه التأخير للحصر غير متفق عليه عند علماء البلاغة وعبارة المذكرة غير جازمة بذلك إذ قالت (قد يفيد الحصر) . ثانيالأن مااستفيد منالحصرفىالآية يمكنأن يكون آتيا لامن تقديم المفعول بل من السياق نفسه إذ بعد أن يعترف بأنه رب العالمين وبأنه مالك يوم الدين يصبح مستحقا وحده بإفراده بالعبادة والاستعانة به .

والجواب عن هذا الاعتراض أنه لاخلاف علمته بين علماءالبلاغة فى أن التقديم قد يأتى للتخصيص أى وقد يأتى لغيره كمجرد الاهتمام والتبرك ورعاية الفاصلة وغيرها . وهذا معنى قولى وقد يفيد الحصر لأن التخصيص هو الحصر الذى يتضمن النفى والإثبات عند الجمهور خلافا لتقى الدين السبكى الذى فرق بين التخصيص والحصر وأما الآية الكريمة فجرى ابن الحاجب على أن التقديم فيها للاهتمام لاللحصر والحصر مستفاد من الحال ورد عليه السعد فى المطول بأن الذوق وقول أئمة التفسير يدلان على أن التقديم للحصر والاهتمام حاصل أيضا وقد حصلت مناقشة فى حواشى المطول والمختصر انتهت بصحة كلام السعد . إذا علمت هذا علمت أنى جريت على رأى الجمهور من أن التخصيص هو الحصر وعلى التحقيق فى الآية الذى انتهى اليه البحث ومع ذلك فأنا متنازل عما يستفاد من الكلام بواسطة المزايا البلاغية . إذا عرفت ما وضحناه من المعانى الأصلية والمعانى التبعية تعلم أن بين الدلالة التبعية التى تكلم عليها الشاطبي وبين دلالة النص ودلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة المبينة فى علم أصول الفقه بونا شاسعا فإن دلالة النص (وهى خاصة باصطلاح الحنفية) هى إلحاق مسكوت بمنطوق لعلة يفهمها فاهم اللغة . وتساوى عند الشافعية الدلالة على مفهوم الموافقة . مثال ذلك قوله تعالى فلا تقل لهما أف ، فإنه يدل بمنطوقه على تحريم التأفيف وبدلالة النص على حرمة الضرب وغيره من أنواع الإيذاء أو يقال عند الشافعية يدل بمنطوقه على حرمة التأفيف وبمفهومه الموافق الأولى على تحريم الضرب

وغيره من أنواع الإيذاء ومثل قوله تعالى ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، وهكذا كل مافيه التنبيه بالأعلى على الأدنى أو بالعكس ، ودلالة الاقتضاء هى الدلالة على معنى مقدر فى الكلام يتوقف عليه صدق المنطوق أوصحته عقلا أوشرعا ، مثال ذلك قوله تعالى « واسأل القرية » فإنه يدل على معنى مقدر هو أهل فإنه يتوقف عليه صحة المنطوق عقلا لأن القرية لا يصح عقلا سؤالها ، هذا إذا جعلنا الآية على تقدير مضاف فإن جعلنا القرية مجازا عن أهلها من إطلاق اسم المحل على الحال فليس فيه دلالة اقتضاء ، ودلالة الإشارة هى الدلالة على لازم للمعنى غير مقصود ، مثال ذلك قوله تعالى «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنبا لأن مباشرة النساء المأذون فيها إلى آخر الليل يلزمه عدم التمكن من الغسل قبل الفجر والله سبحانه وتعالى أعلم .

سابعا — ذكرت فى المذكرة أن الترجمة لا تكون حجة يجوز للمسلم الاعتماد عليها فى أخذ الحكم الشرعى إن كان أهلا لذلك لا المترجم ولا للمترجم له لأن الثانى لا ينفك عن التقليد الخ . فاعترض المعقب وقال ماخلاصته . ولكن التقليد فى فهم النص العربى لا يحرم الناس الاجتهاد واستدل على ذلك بما قاله الغزالى من أن الأحاديث التى قبلتها الأئمة لا يلزم المجتهد البحث عن رواتها وبأن المجتهدين يعتمدون على معاجم اللغة وعلى الشعر يرويه العدل الواحد وأكثرها غير متواتر وتحديد معانيها فى أغلب أحوالها لم ينقل بالتواتر والاعتماد فى بيان اللفظ على المترجم كالاعتماد فى بيانه على راو من رواة اللغة ثم ذكر ما يتعلق بالمترجم وختم كلامه بقوله على أن الخطب بالنسبة للمترجم يسير . اه

وقبل أن أجيب عن اعتراضه أحب أن أقول إذا كان الخطب بالنسبة للمترجم يسيراً أى لأنه يعرف اللغة العربية فيستغنى بها عن الترجمة فالخطب بالنسبة للمترجم له أيسر وأسهل لأنه لا يتصور أن يكون مجتهدا بحال فإن أئمة الأصول قاطبة صرحوا بأنه يشترط فى المجتهد أن يكون عالما بعلوم اللغة العربية والمترجم له مفروض فيه أنه لا يعرف اللغة

العربية ولا علومها اللهم إلا أن يقال إن ما صرح به أئمة الأصول مع أنه تقتضيه طبيعة الاجتهاد لاقيمة له ولا يقام له وزن فى هذا الزمن . وإنما ذكرت ماذكرته فى المذكرة لزيادة الإيضاح فى أن الترجمة لاتحل محل الأصل فى الحجية . وحيث أن المترجم له لايعرف اللغة العربية فهو دائماً مقلد فى أن معنى النص العربى هو ما فهمه المترجم فالتقليد لاينفك عنه والمجتهد لايقلد غيره ، وأما ماذكره المعقب من النظائر فإنى أحب أن أهمس فى أذنه بأنه اشتبه عليه تقليد المجتهد غيره فى فهم النص بتصديقه الناقل فى نقله النص والأول ينافى الاجتهاد والثانى من ضروريات الاجتهاد لأن وصول النصوص إلى المجتهد ليستنبط فيها لابد منه سواء وصلته بطريق التواتر أو خبر الآحاد بشروطه المعروفة فماذكرته فى شأن المترجم له من قبيل التقليد فى الفهم وهو لا يجوز وماذكره من النظائر من قبيل تصديق الناقل لثبوت عدالته عنده فماذكره الغزالى من جواز اعتماد المجتهد على قبول الأئمة للأحاديث أى كالبخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث صحيح لأن اعتماد المجتهد على ذلك مبنى على اعتقاده عدالتهم وأنهم صادقون فى أنهم رووا هذه الأحاديث بواسطة العدول ولو وقع فى نفس المجتهد عدم صدقهم لم يأخذ برواياتهم وهكذا نقلة اللغة ، وإنما يعتمد المجتهد أى المتأخر غير المشافه للعرب ما قالوه وما رووه عن العرب لاعتقاده صدقهم فى هذا النقل فلو أن مجتهداً أخبره مجتهد آخر بأن معنى القرء هو الطهر لا الحيض فإن كان أخباره هذا بناء على فهمه من غير نقل عن العرب لايجوز للأول اتباعه فيه إلا بعد البحث وإن كان أخباره بذلك نقلا عن العرب فله أن يعتمد عليه حيث اعتقد صدقه وهكذا والله أعلم .

ثامنا — ذكرت فى المذكرة نص عبارة الزركشى فى البحر المحيط على عدم جواز ترجمة القرآن فقال المعقب هذه العبارة لا شاهد فيها على منع الترجمة التى نريدها . أننا نريد ترجمة تصور المعانى الأصلية فقط لا ترجمة تشتمل على كل مميزات عبارة الأصل الذى أعجز البشر وقصرت الألسن عن أن تطاوله . ونحن نقول إن الزركشى علل عدم جواز الترجمة بتقصيرها عنه . وأنتم باعترافكم تريدون ترجمة تقصر عنه تشتمل على المعانى الأصلية ولا تشتمل على جميع مميزاته فقد تحققت العلة التى تقتضى فى نظر الزركشى عدم جواز الترجمة ولو أرجعنا ما قاله الزركشى إلى قوانين المنطق وركبنا منها قياسا وقلنا كل ترجمة للقرآن الكريم فيها تقصير عن القرآن . وكل ترجمة فيها تقصير لا تجوز كانت النتيجة كل ترجمة للقرآن لا تجوز .

أما الصغرى فمسلمة تعترفون بها وأما الكبرى فدليلها كلام الزركشي حيث لا يجوز الترجمة لتقصير ترجمته عنه فكيف يصح القول بأنه لا شاهد فى عبارته .

تاسعا — قال النووى : لا تجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية لا فى الصلاة ولا فى غيرها فقال المعقب : عبارته تفيد أنه لا يجوز أن يعتبر ما هو بغير اللسان العربى قرآنا ولا يجوز أن يقرأ على أنه قرآن إذ حمل عبارته على غير ذلك يقتضى أنه يريد أن يقول ، لا يجوز أن يقرأ ما هو غير عربى سواء قرىء على أنه قرآن أولا على أنه قرآن مع أن ذلك جائز . إذ سبق أن أبنا أن المفسرين يجوزون أن يرى الإنسان عبارات ينسبها إلى الله تعالى لمجرد أن معناها وارد فى كتاب الله ، ونحن نقول له من المعلوم أن النووى لا يخطر فى باله أن ترجمة القرآن تسمى قرآنا فهو لا يجوز قراءة ترجمة القرآن ولو مع اعتقاد أنها ليست نفس القـــرآن ولا يلزم من ذلك أنه لا يجوز قراءة ترجمة غير القرآن . والله أعلم .

عاشرا — حمل المعقب عبارة المغنى كما هو صريحها على عدم جواز الصلاة بالترجمة وهو غير موضوع الترجمة المتنازع فيها . وأقول له إذا منع ذلك فى الصلاة ففى غيرها من باب أولى فإن بعض الأئمة كالحنفيةجوزها فى الصلاة فقط دون غيرها .

حادى عشر — قال صاحب التجنيس من أئمة الحنفية ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالإجماع لأنه يؤدى إلى الإخلال بحفظ القرآن الخ .

فحمل المعقب كلامه على أنه أراد ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية إذا كانت تلك الكتابة يعم استعمالها جميع الشعوب المسلمة لا فرق بين العربية منها وغيرها . ويترك النص العربى عند الجميع لأن ذلك هو الذى يؤدى إلى الإخلال بحفظ القرآن أى وطمس معالمه .

وإنى أقول لحضرته : إن هذا المعنى يستحيل وقوعه فى مطرد العادة فيكون كلام صاحب التجنيس إذا كان مراده هذا عبثا لامحصل له . ولا يصدر من عاقل ولاشك أن مثل هذا الإمام يصان كلامه عن ذلك . فالظاهر أن مراده منع كتابة القرآن بالفارسية ولو من فرد واحد لأن كل واحد مأمور بحفظ اللفظ والمعنى منهى عما يؤدى إلى عدم حفظه بدليل قوله : لأنا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى .

ثانى عشر — قال صاحب معراج الدراية من أئمة الحنفية من تعمـــد قراءة

القرآن أو كتابته بالفارسية فهو مجنون أو زنديق ، فحمله المعقب على من يقصد الإساءة إلى القرآن بتشويه أو تحريف . وأقول الظاهر من كلام صاحب المعراج أنه يرى أن هذا العمل فى ذاته إساءة للقرآن الكريم بما شأنه التشويه والتحريف فمن أقدم عليه إما أن يكون عاقلا يفهم عاقبة عمله فيكون زنديقا أوغير عاقل لايفهم نتيجته فيكون مجنونا والدليل على ذلك أنه أطلق القراءة والكتابة بالفارسية سواء كانت صحيحة أو ليست صحيحة . وأما أن حكمه الشديد يشمل مثل الشاطبى الذى له بين أئمة الدين مقام مرموق . والمرحوم الشيخ عبد العظيم الزرقانى الذى تخرج عليه وعلى كتابه أفواج وأفواج فالجواب عنه أنهما لم يصدق عليهما أنهما تعمدا قراءته أو كتابته بالفارسية غير أنهما جوزا ترجمته باعتبار معانيه الأصليه فإن كان مرادهما ترجمة تفسيره بالمعنى المعروف الذى حددناه فى المذكرة فالأمر ظاهر . وإن كان ترجمة القرآن بالمعنى المعروف المتنازع فيه وهو الذى لايفرق العرف بينه وبين الأصل يكون رأيه مخالفا لرأيهما والله أعلم .

وأما تعقيب المعقب على ما أبديته فى المذكرة بشأن ما استند إليه المؤتمر فى مشروعه من كلام الزمخشرى والشاطبى والحافظ ابن حجر فلم أر حاجة فى رده للزيادة عما فى المذكرة فى شأنه فإن كلام الزمخشرى واضح فيما قلناه حتى صدر كلامه الذى لم أنقله ونقله المعقب وهو قوله (فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت الترجمة ببيانه وتفهيمه) ومن المعلوم أن العصور السابقة كانت أحرص من العصور المتأخرة على نشر الإسلام والدعوة إليه فلو كانت التراجم المعروفة جائزة عندهم لما أحجموا عن عملها مع أنها لم تحصل قط فى زمن هؤلاء الأمر الذى يدل على أن مرادهم بالترجمة ما وضحناه فى المذكرة لأنه هو الذى حصل فى زمنهم والله أعلم .

فبراير ١٩٥٦ عيسى منون

عضو جماعة كبار العلماء وشيخ كلية الشريعة سابقا

عنايته بالكتب وجمعها :

ما زال العلماء قديما وحديثا يوجهون عنايتهم إلى اقتناء نفائس الكتب فى مختلف أنواع العلوم والفنون ، ويخصون الكتب الخطية بمزيد من الاهتمام لما لها من قيمة تاريخية ، ولما هو معهود فى علمائنا الأقدمين من شدة التحرى والضبط ، ورواية الكتب بأسانيدها إلى مؤلفيها .

فمخطوطات المكتبة العربية من هذه الناحية ذات أهمية بالغة لا حد لها .

ومن المؤسف أن كثيراً من أمهات الكتب المنسوبة إلى أفذاذ العلماء ونوابغ العصور الإسلامية الزاهرة لم يصل إلينا منها إلا النزر القليل ، بل ذهب معظمها بين ضياع وإهمال وتسرب إلى مكاتب أوربا وأمريكا .

وقلما تجد عاصمة من عواصم أوربا لاتحوى دور الكتب فيها من نوادر الكتب العربية المخطوطة ما لا يوزن بمال .

ولقد اشتهر الشيخ رحمه الله بحبه للكتب ، وجمعه لنفائسها ، واهتمامه بكنوزها منذ نشأته الأولى وقل أن تجد فنا من الفنون الإسلامية ، لا تحوى مكتبته أعاظم أمهاته وأكابر مراجعه .

فهذا علم أصول الفقه وهو علم عظيم القدر ، جليل النفع لايقدره حق قدره إلا عباقرة العلماء وأقدرهم على التوسع فى البحث ، والتعمق فى الفكر .

وكان للشيخ بهذا العلم شهرة عظيمة ، وله به مزيد عناية يعرفها القاصى والدانى ، وتحوى مكتبته العامرة من كتب هذا الفن مجموع ما أخرجته المطابع فى مصر والعالم الإسلامى ولم يفته منها إلا النادر القليل .

ولم تقف همته عند ذلك الحد بل استنسخ على نفقته الخاصة أعظم كتاب وأجله فى هذا الفن وهو كتاب « البحر المحيط » للزركشى ولا نعلم كتابا أشمل ولا أوسع من هذا الكتاب فى هذا العلم . وتوجد نسخة البحر المحيط فى مكتبته رحمه الله كاملة مخطوطة . كما أنه استنسخ كتابين آخرين جليلين فى هذا الفن وكل واحد منهما يقع فى جملة مجلدات ضخام . أما أحدهما فشرح الأصفهانى على المحصول للإمام الرازى . وثانيهما شرح الإمام القرافى على المحصول أيضا .

وتحوى مكتبته رضى الله عنه كتاب البرهان فى أصول الفقه لإمام الحرمين رضى الله عنه وهو كتاب نادر الوجود حتى فى دور الكتب العامة .

فإذا ما تركنا علم أصول الفقه جانبا ووجهنا نظرنا إلى علم الفقه فإنا نجد مكتبته عامرة زاخرة بمعظم أمهات هذا الفن على المذاهب الأربعة وإنها تحوى فيما تحويه مجلدات ضخمة مصورة تصويرا فتوغرافيا منها كتاب التتمة للتولى والبيان للعمرانى وهناك قطعة عظيمة مخطوطة من كتاب نهاية المطلب فى دراية المذهب لإمام الحرمين فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

كما يوجد قطعة بخط الشيخ الجيل من كتاب المجموع للإمام النووى رضى الله عنه ،

أما بقية العلوم الإسلامية من تفسير وحديث رواية ودراية وعلوم عقلية وأدبية ولغوية وما إلى ذلك فقل أن يخطر ببالك كتاب لا تحويه مكتبته العامرة وعلى الجملة فإنك لتجد فى هذه المكتبة نوادر ما أخرجته دور الطباعة العربية قديمها وحديثها ففيها من مطبوعات القاهرة ومطبوعات دمشق وبيروت واستانبول وبخارى وتونس وفاس والهند وغير ذلك هذا عدا ما فيها من مطبوعات أشهر عواصم أوربا كبرلين وليدن مثل كتاب : الطبقات الكبير لابن سعد وهو من مطبوعات ليدن .

وكانت مكتبته العظيمة فى حياته كعبة للزوار من العلماء والطلاب من مختلف المعاهد والجامعات يستعيرون منها ما شاءوا من مختلف العلوم والفنون خدمة للعلم وأهله . رحمه الله رحمة واسعة وأجزل عطاءه جزاء ما قدم من خير .

صفاته وأخلاقه :

كان الشيخ رحمه الله تعالى وأعلى منزلته فى عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، طويل القامة ، أبيض الوجه ، حاد البصر نافذ البصيرة مكتمل الأعضاء ، رحب الفناء ، عالى القدر ، نابه الذكر ، غضيض الطرف لم تؤثر عنه كلمة نابية ، ولم يواجه أحدا بما يكره ، ولم يدخر جهدا فى عمل الخير وإسداء الجميل ، وبذل المعروف .

وكان عظيم السر وإذا أجرى الله على يديه الخير ، وربما عرض نفسه لاحتمال المكروه رغبة منه فى صنيعة يسديها ، أو حاجة يقضيها .

ولقد ظل طيلة حياته معروفا بعلو الهمة ، وعزة النفس والوفاء النادر فى الرجال الذى سارت به الأمثال ، وعفة اللسان ، وسلامة الصدر ، ينسى الإساءة

ويذكر الإحسان ، ويعرف الحق لأهـــله ، والفضل لذويه ، وينزل الناس منازلهم بعيدا عن مجالس الغيبة والنميمة ، شديد الاعتداد برأيه إذا ظهر له الحق ووجه الصواب . يهتم بالمطالعة ويؤثرها على جميع متع الحياة ، قل أن تراه إلا ممسكا بكتاب يقلب صفحاته ، ويتأمل عباراته ، وكانت نظرة من نظراته على موضوع درسه تجعله يحيط به خبرا ، ويقف على ما دق وخفى من مسائله . وربما كان يمر بنظره على درسه وهو راكب سيارة أو نحوها فيبلغ من ذلك ما يبلغه المجد الذى يسهر ليله ويكابد نهاره .

ولقد اشتهر بين العلماء بحبه لأصلاح ذات البين ، ورأب الصدع ، وجمع الشمل ، وأعماله ومساعيه فى هذا الصدد معروفة يذكرها الناس ، ويتحدثون بها .

وكان حريصا على أداء واجبه ، ولقد ظل موظفا بالأزهر مدرسا فعميدا للكلية فعضوا فى لجنة الفتوى إلى غير ذلك من الأعمال الإدارية طيلة اثنتين وأربعين سنة وشهرين لم يأخذ فيها إجازة إلا مرتين إحداهما عند سفره لأداء فريضة الحج والثانية عند قرب إحالته للتقاعد .

وكان كريم المجلس ، لطيف الحديث ، عذب الفكاهة والدعابة ، عظيم الثقة بالله ، شديد الاعتماد عليه . وما استشفع لديه أحد فى حاجة إلا ذكره بأن يجعل اعتماده فى ذلك على الله وحده وأفهمه أن الأمور كلها بيد الله جل وعلا .

أما جمال خطه ، وبهاء رونقه فقل أن تجـــد له فى ذلك مثيلا بين نظرائه . والعلماء قديمـا وحديثاً لا يشتهرون بجودة الخط ولا يوجهون عنايتهم إليه ولـكن الشيخ رحمه الله كان نادرة المثال فى ذلك .

وأما أسلوبه فى الـكتابة مع أنه لم يمارس صناعة الإنشاء فقد كان السحر الحلال والسهل الممتنع الذى لا يوقف على آثاره ولا يلحق بغباره .

وكان رحمه الله تعالى باراً برحمه وصولا لذوى قرباه فى مصر وفلسطين يسعى لإدخال السرور على قلوبهم ما وجد لذلك سبيلا ، ويبذل لهم جاهه وماله ولا يألو جهداً فى تخفيف آلامهم ، وقضاء حاجاتهم ، وخاصة بعد حوادث فلسطين المؤلمة ، وهجرة أهلها حتى أنه كان يرتب لهم رواتب يمدهم بها ويرسلها إليهم . وكان يتهلل وجهه فرحا وسروراً إذا زارهم فى منازلهم ، والتفوا حوله يلاطف صـــغارهم

وأطفالهم بدعاباته الحلوة وفكاهاته العذبة فيزيده ذلك إعلاء فى نفوسهم وإكبارا فى أفئدتهم .

ولم يقف عطفه وبره على ذوى قرباه خاصة بل تجاوز ذلك إلى كثير من أسر اللاجئين الذين اعتادوا أن يفدوا إلى منزله لأول كل شهر فكان يهش لهم ، ويمدهم بما يخفف آلامهم ويكفكف عبراتهم وخصوصا فى المواسم والأعياد والمناسبات ولما مرض واشتد به المرض رحمه الله واقتضى الحال إدخاله المستشفى للعلاج أوصى نجله الكبير فضيلة الشيخ محمد بهم حتى تظل عوائدهم متصلة .

ولقد قام نجله بحفظ وصاة والده ولا زال يجريها عليهم بعد وفاة والده العظيم مد الله فى عمره وبارك فيه وفى إخوته وأنجاله أجمعين ،

ولا بد لنا قبل أن نختم هذه العجالة أن نشير إلى أمور ثلاثة : كانت ظاهرة فى أخلاقه رحمه الله يعرفها الخاص والعام والقاصى والدانى .

أحدها : أنه كان يحفظ الجميل لأهله ، ويذكر الفضل لصاحبه ، ويجزى الإحسان بالإحسان ، ولا يتنكر لصديق مهما تنكرت له الأيام ، وابتعد عنه الأصدقاء والإخوان ، بل يظل وفيا لعهده ، بارا بصحبته ، بارا بأهله وأبنائه وقرابته من بعده لا يألو جهدا فى الأخذ بيدهم ، وقضاء مصالحهم حتى لا يجدوا ألما بفقده ولا يشعروا ببعده من بعده .

ثانيهما : أنه كان يكره الخصومة بين العلماء لمكانتهم من العلم ومنزلتهم من الإسلام والدين ، وكان أشد ما يحز فى نفسه ويؤلمه أن يبلغه وقوع التنافر واللجاج فى الخصومه بينهم ، ورمى بعضهم بعضا بقارص القول . ويرى أن هذا من أسباب ضياع الأزهر ، وتحويل الأنظار عنه ، وفيه القضاء عليه ، وذهاب هيبته ، وسقوط منزلة أهله فى العالمين الإسلامى والعربى ، وتلك هى الطامة الكبرى ، والداهية العظمى ، والقضاء على الدين ، وتفشى نزغات الإلحاد .

فكان لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى تعود المياه صافية إلى مجاريها ويحل الوئام محل الخصام .

ولم يكن ينحاز لفريق على فريق ، ولا يناصر طائفة على طائفة بل يظل على

صلة طيبة بأطراف الخصومة حتى تكون كلته عندهم جميعاً مسموعة ، وشفاعته لديهم مقبولة .

ثالثها : أنه كان يكره قيام الفتن والدسائس والثورات ضد الرؤساء لأنه يعتقد أن ذلك طريق افساد الأخلاق وانحطاط الضمائر ،وانحلال أواصر المحبة والاتحاد ، وتفكك عرى الإخاء والوداد ، وانصراف الطلاب عن دروسهم ، وذلك ضياع للعلم وخسارة فى الأخلاق .

وكان كثيرا ما يصرح بأن انصراف الطلاب عن دروسهم كبيرة من الكبائر مرتعها وخيم ، وعاقبتها أليمة .

أغدق الله عليه شآبيب رحمته ورضوانه وعوضنا بفقده خيرا اللهم آمين .

وفاتــه :

هذا هو الخطب الذى لانستطيع أن نصفه ، ولا يملك القلم أن يجول فيه جولته ولا الجنان أن يصول فيه صولته ، حقا إن البنان لتقف حركته وتضطرب راحته وإن المداد لتجف ريقته ، وتختلط بالدموع عبراته ، وتمسك عن الطرس قطراته فتتابع الزفرات ، وتتصاعد الحسرات وتتوالى الآهات ، كيف لا والخطب جلل ، والمصاب بالعلم والإســـلام فادح ، والكارثة بالخلق والنبل والمروءة عظمى .

فنى ليلة الإثنين مساء الأحد الخامس من جمادى الثانية سنة ١٣٧٦ الموافق السادس من يناير سنة ١٩٥٧ الساعة الخامسةوالنصف مساء صعدتروحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، فأى نجم قد هوى ، وأى روض من رياض العلم والعرفان قد ذوى .

نعم فاضت روحه الطاهرة بعد حياة حافلة بخدمة الإنسانية والدين ، حمل فيها مشعل العلم ونبراس الهدى والإرشاد لأبناء العروبة والإسلام وما إن نعيناه إلى ولاة الأمر ومشيخة الأزهر حتىسرى الخبر مسرى الكهرباء وماهى إلا هنيهةحتى غصت دار الفقيد العظيم بالعلماء والعظماء والأعيان وكبار الموظفين بالأزهر والحكومة وعلى رأسهم الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر .

جاءوا يشاطرون آل الفقيد الحزن ، ويقاسمونهم الأسى والآلام فالمصاب

عام وقد ارتسمت على وجوههم آثار الفجيعة ومعالم الأسى ومظاهر الحزن ،

وما أن تم وضعه فى نعشه حتى سير به إلى الجامع الأزهر يتبعه رتل كبير من السيارات تحمل كبار المشيعين الذين حضروا مبكرين إلى دار الفقيد وما أن وصل جثمانه الطاهر إلى الأزهر الشريف الذى كان غاصا بالعلماء والقضاة ورجال العلم والأدب والصحافة وكبار الموظفين والأعيان والطلاب يتقدمهم الأستاذالأكبر شيخ الجامع الأزهر وجماعة كبار العلماء وعمـداء الكليات ومشايخ المعاهد ينتظرون قدوم نعشه للصلاة عليه وتشييع جثمانه الطاهر إلى مقره الأخير :

وبعد الصلاة عليه خرج نعش الفقيد الراحل من الجامع الأزهر تحفه المهابة والوقار وسار وراءه ، جمع حاشد فى مقدمتهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وجماعة كبار العلماء وعمداء الكليات ومشايخ المعاهد وهيئات التدريس فيها والقضاة والمحامون وكبار الموظفين وأعضاء البعثات العربيـة والإسلامية من مختلف الأقطار والطلاب من المعاهد والكليات والتجاروالأعيان ينحسر عن آخرهم النظر ، ويرتد عن إحاطتهم البصر .

وقد سار هـذا الموكب يحفه الجلال والمهابة ويحوطه الإجلال والعناية حتى وصل إلى مقره الأخير فى قرافة الإمام الشافعى رضى الله عنه . وهناك ورى فى لحده بين آهات الباكين وأنات المشيعين، وزفرات المصابين واستولى على الحاضرين سلطان الدهشة بما أحسوه من ألم الفراق والوحشة .

فاستمطروا على الراحل العزيز شآبيب الرحمة والرضوان . ودعوا الله جلت قدرته أن يسكنه أعلى عليين ، ويتغمده برحمته جزاء وفاقا عما قدم من سهر وجهد ووقت لخدمة العلم والدين والعروبة والمسلمين . ثم انصرفوا مفجوعين يترحمون على الفقيد العظيم ذاكرين أفضاله وخدماته وخلقه الكريم .

عليه رحمة الله ورضوانه إلى يوم الدين

وفى المساء أقيم سرادق فخم أمام منزل الفقيد أمه كثير من عظماء الرجال وكبار الشخصيات ومختلف الهيئات العربية والإسلامية وجماعة كبار العلماء وعمـداء الكليات وحضرات رجال القضاء والمحاماة وغيرهم من الوجهاء والأعيان حضروا من مختلف أنحاء القطر جماعات جماعات حتى ازدحم بهم المكان على اتساعه وطوله وكان القادم لا يلبث إلا برهة ثم ينصرف مترحما على الفقيد العظيم حتى يفسح المكان لغيره

وقد تلقت أسرة الفقيد رحمه الله فى مصر مئات البرقيات من كبار الشخصيات فى العالمين العربى والإسلامى معربين عن بالغ أسفهم وجميل عزائهم سائلين الله تعالى أن يتغمد الفقيد بالرحمة والرضوان وأن يلهم آله وذويه الصبر والسلوان .
كما نعته معظم الهيئات الإسلامية والعربية فى الصحف والمجلات فى مصر والبلاد العربية ننشر بعضا منها شاكرين لهم جميل عزائهم داعين الله سبحانه وتعالى إلا يفجعهم فى عزيز لديهم .

مشيخة الأزهر(١)

نعى عالم جليل

تنعى مشيخة الأزهر إلى العالم الإسلامى المغفور له فضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ عيسى منون

عضو جماعة كبار العلماء وشيخ كلية الشريعة سابقا وعضو لجنة الفتوى وقد فقد الأزهر بوفاته علما من أعلامه ، وركنا عظيما كان له أعظم الأثر فى خدمة العلم والدين . أجزل الله مثوبته جزاء ما قدم من خير لأمته .

كليــــة الشريعة(٢)

تنعى عميدها السابق

تنعى كلية الشريعة إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها عالما من علماء السلف الصالح وأثارة من علماء الأزهر المجيدين العاملين هو فضيلة الأستاذ الجليل

الشيخ عيسى منون

كرس حياته لخدمة العلم طالبا يشار إليه بالبنان وأستاذا تخرج على يديه طبقات من الأساتذة الممتازين فشيخا لكلية أصول الدين فشيخا لكلية الشريعة فضلا عن آثاره القويمــة فى التأليف والإنتاج فى مختلف العلوم وفى جماعة كبار العلماء وفى لجنة الفتوى .

عوض الله الإسلام خيرا وألهم العلم وذويه الصبر والسلوان .

(١) نشر فى جريدة الأهرام الصادرة فى ٨ يناير سنة ١٩٥٧ .
(٢) نشر فى جريدة الأهرام الصادرة فى ٨ يناير سنة ١٩٥٧ .

كلية أصول الدين[1]

تنعى كلية أصول الدين عميدها الأسبق فضيلة

الشيخ عيسى منون

عضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى وشيخ كلية الشريعة بالأزهر سابقا أسكنه الله فسيح جناته وألهم آله الصبر الجميل .

كلية اللغة العربية[2]

شيخ كلية اللغة العربية ووكيلها وهيئة التدريس بها وموظفوها وطلابها ينعون إلى العالم الإسلامى العالم الثبت .

الشيخ عيسى منون

شيخ كلية الشريعة وعضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى بالجامع الأزهر سابقا . ويسألون الله أن يتغمده برضوانه وأن يلهمهم وآله جميل الصبر .

معهد القاهرة[3]

نعى عالم جليل

شيخ معهدالقاهرة ووكيله وأساتذته وموظفوه وطلابه ينعون إلى العالم الإسلامى رجلا من رجالات الأزهر وعلما من أعلام الإسلام فضيلة .

الشيخ عيسى منون

شيخ كلية الشريعة وعضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى سابقا ويتقدمون لأبنائه وأصهاره بخالص العزاء ويسألون الله للفقيد الرحمة وآله الصبر .

معهد الزقازيق[4]

معهد الزقازيق الدينى ينعى فضيلة المرحوم

الشيخ عيسى منون

شيخ كلية الشريعة السابق ويرجو لفضيلته الرحمة ولأسرته الصبر والسلوان .

---

(١) نشر فى جريدة الجمهورية فى ٩ يناير سنة ١٩٥٧ .

(٢) نشر فى جريدة الأخبار فى ٨ يناير سنة ١٩٥٧ .

(٣) نشر فى جريدة الأهرام فى ٩ يناير سنة ١٩٥٧ .

(٤) نشر فى جريدة الأهرام فى ٩ يناير سنة ١٩٥٧ .

الهيئة العربية لفلسطين(١)

فقد عالم جليل

الهيئة العربية العليا لفلسطين تنعى بكل أسف للعالمين الإسلامى والعربى الأستاذ العلامة الجليل الشيخ عيسى منون

عضو جماعة كبار العلماء . وشيخ كليتى الشريعة وأصول الدين سابقا وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف وهى إذ تقدم تعزيتها إلى العرب والمسلمين تذكر ما للراحل الكريم من خدمات جليلة وجهود كبيرة فى خدمة العلم وطلابه وتقدر ما كان يلقاه منه أبناء فلسطين من عناية ورعاية وحسن توجيه وخصوصا بعد كارثة فلسطين الفادحة.

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه أحسن الجزاء .

رابطة الطلاب الفلسطينيين بمصر(٢)

رابطة الطلاب الفلسطينيين بمصر تنعى عالما من علماء فلسطين ورجلا من رجالاتها .

الشيخ عيسى منون

فله الرحمة ولآله الصبر والسلوان .

ولقد نعته كثير من الجرائد فى البلاد العربية ننشر منها ما قالته جريدة الجهاد الصادرة فى القدس بالأردن بتاريخ ١٢ من جمادى الثانى سنة ١٣٧٦ الموافق ١٢ يناير سنة ١٩٥٧ .

وفاة عالم جليل

فى يوم الإثنين ٧ يناير سنة ١٩٥٧ فى مدينة القاهرة انتقل إلى رحمة الله تعالى المرحوم

الشيخ عيسى منون

عميد آل منون فى الأردن ومصر وعضو جماعة كبار العلماء . وشيخ كلية الشريعة سابقا وعضو لجنة الفتوى وشيخ رواق الشوام فلقد فقد الأزهر بوفاته علما من أعلامه وركنا عظيما كان له أعظم الأثر فى خدمة العلم والدين . وقد نعته مشيخة الأزهر وكلية الشريعة .

والمرحوم ولد ونشأ فى عين كارم ثم انتقل إلى القاهرة حيث كرس حياته لخدمة العلم طالبا يشار إليه بالبنان ثم أستاذا تخرج على يديه طبقات من الأساتذة الممتازين فشيخا لكلية أصول الدين فشيخا لكلية الشريعة فضلا عن آثاره القويمة فى التأليف والإنتاج فى مختلف العلوم والمناصب .

---

(١) نشر فى جريدة الأهرام فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٧ .

(٢) نشر فى جريدة الجمهورية فى ٩ يناير سنة ١٩٥٧ .

الشيخ
بأقلام
أصدقائه ، ومقدرى فضله

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ العلامة الجليل الشيخ عيسى منون

لصاحب السماحة الحاج محمد أمين الحسينى
رئيس الهيئة العربية العليا

كنت فى حداثتى أسمع من علماء بيت المقدس ثناء على الأستاذ العلامة الجليل المرحوم الشيخ عيسى منون وتنويها به ثم عرفته بنفسى أثناء طلبى العلم بالأزهر الشريف فوجدت فيه العالم الفحل الطويل الباع الواسع الاطلاع المتبحر فى العلوم الإسلامية ولا سيما علوم تفسير القرآن الكريم والفقه وأصول الفقه والتوحيد وعلوم البلاغة واللغة العربية والمنطق والحكمة كما كانت له الدراية فى علوم الحديث ومذاهب الفقهاء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار الإسلامية فى المشرق والمغرب مما أهله لرئاسة كليتى الشريعة وأصول الدين بالأزهر الشريف وقد أدارهما رحمه الله إدارة موفقة سديدة كانت موضع تقدير أولى الأمر بمصر وثنائهم وإعجابهم .

وقد كان رحمه الله قبل إنشاء نظام الكليات الازهرية من كبار المدرسين فى القسم العالى بالازهر ودرس فيه العلوم العالية . وكان طلاب هذا القسم يحوزون شهادة العالمية النظامية التى كانت أكبر الشهادات الأزهرية فى ذلك الحين .

لقد وقف الفقيد الجليل حياته كلها على دراسة العلم وتدريسه ونفع طلاب العلم

من أهل مصر والوافدين على الأزهر الشريف من جميع بلاد الاسلام ، وقد انتشر تلاميذه الذين تلقوا عنه مختلف العلوم الدينية والعربية فى مختلف الاقطار الآسيوية والأفريقية وغيرها وهم يتولون أعلى مناصب القضاء والتدريس وسواها من الوظائف العلمية .

وقد كان له رحمه الله صبر وجلد على دراسة أكبر الكتب العلمية وتحقيق مشكلاتها وغوامضها . وكان من أبرز أعضاء جماعة كبار العلماء الأزهريين ومن أوسعهم علما وفضلا .

وقد كان زملاؤه أعضاء لجنة الفتوى بالأزهر يقدرونه حق قدره ويثنون على علمه وفضله ويقولون عنه رحمه الله أن المعول كان عليه فى الإجابة على أهم الفتاوى وإعداد نصوصها وأدلتها .

ولقد عاش رحمه وفيا لمصر العزيزة كما كان وفيا لأهله وقومه بفلسطين . ولو شاء رحمه الله لتولى أكبر المناصب العلمية فى وطنه الأول . ولكنه كان يرى فى بقائه فى مصر نفعا أوسع لطلاب العلم من مختلف البلاد الإسلامية واستمر على ذلك مؤديا لواجبه الدينى والعلمى حتى وافاه الأجل وانتقل إلى رحمة ربه راضيا مرضيا فكانت وفاته خسارة كبرى حلت بالمسلمين بفقد هذا العـلامة الجليل الذى قل نظيره بين أهل العلم والدين .

تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنته ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

الصديق الراحل كما عرفته

لصاحب الفضيلة الأســــتاذ الـكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف
عضو جماعة كبار العلماء ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر
ومفتى الديار المصرية سابقا

كنا طلابا فى الأزهر القديم منذ نصف قرن تقريباً ، وكنا نحضر بعـد الظهر شرح السعد على التلخيص فى علوم البلاغة على شيخنا التقى العـلامة المحقق الشيخ عبد الحـكم عطا رحمه الله ، وكان قوى الحافظة ، واسع الاطلاع ، حسن العبـارة مهيباً وقوراً .

وكان دأب النابهين من الطلاب إذ ذاك ألا يحضروا الدرس إلا بعد مطالعة الشروح والحواشى ، وقد يضيفون إليها التقارير مطالعة دقيقة رغبة فى العلم وتثبتاً منه ، ويناقش بعضهم بعضا فى عباراتها ومفاهيمها ، فتختلف الآراء والمذاهب فيها ، فإذا ألقى الشيخ المحقق درسه ، وشرح ما كتب فيه ، وفند الاعتراضات وحقق الأجوبة واستخلص الحق من بين الآراء المتعارضة عرف أولئك الطلاب فيما تناقشوا فيه الخطأ والصواب.

وكانوا يناقشون الشيخ مناقشـة قوية ، فى أدب وحسن عبارة للتثبت وإزالة الشبه . وكانت هذه الدراسة العالية شحذا للأذهان ، وتربية للملـكات ، وتقوية للعارضة ، وتحقيقا للقواعد ، وتدريبا على الجدل والمناظرة ، وعدة لفهم المراجع التى لا تدرس فى الأزهر ، والبحوث العالية فى العلوم .

توثقت بينى وبين الفقيد العظيم أواصر الصداقة فى هذا الدرس الحافل وكان معنا فيه صديقنا العلامة المحقق الشيخ محمد العتريس النواوى عضو جماعة كبار العلماء رحمه الله ، والعلامة النابغة الشيخ على محمد التونى الذى لم يطل به العمر فقطف نحبه فى ميعة الشباب رحمه الله . وكانت لنا جميعا عند شيخنا رحمه الله مكانة مرموقة ومنزلة نغبط عليها ، وكان له حب عميق لطلبته المجدين .

وكنا نزوره فى منزله للاســـتفادة من علومه ، والمناقشة فى دقائق المسائل واستمر حبنا له وتقديره لنا إلى النهاية .

وكان الفقيد رحمه الله من أخص تلاميذه وألصقهم به ومن أحبهم إلى نفسه ، لذكائه وعلمه وأدبه . ولقد كان صديق الفقيد دقيقا فى فهمه يغوص فى ذلك البحر الخضم غوصاً برفق وحذر حتى يستخرج اللآلىء من أصدافها ويجليها نقية صافية تبهر الأنظار .

وكان يزينه فى ذلك حسن تعبيره وأدبه الجم فى مناقشته وتحرره الشديد فى تخطئة عبارة أو رأى حتى يكون الصواب فى خلافها جليا واضحا ، والدليل بيده قويا راجحا ، ولم يكن مزهوا بنفسه ولا محبا للتفاخر والتظاهر مع توافر أسبابه لديه .

عرفته كذلك وصادقته منذ ذلك العهد البعيد . وكان له بوالدنا رحمه الله صلة وثيقة وكان من كبار شيوخه ، وكنت أشهد فى الوالد حبا كبيرا ، وإعجابا عظيما به فازددت فيه حبا وله تقديرا . وعشنا إخوانا فى السراء والضراء .

ثم اجتمعنا فى مجالات العمل مرارا وكان أظهرها المجلس الأعلى للأزهر فكنا نجلس متجاورين وكنا نلتقى فى الرأى على غير تواعد . وكان فى المجلس تيارات مختلفة فمن الأعضاء من يجامل ويحابى ، ومنهم من لا يقوى على مخالفة الرئيس فيسبقه إلى ما يهواه ، ومنهم الصارم فى الحق بعنف أو برفق .

فكان صديقنا الشيخ رحمه الله لا يجنح إلا إلى الحق يؤيده فى هوادة وكياسة . كان له ضمير ، وكان فيه تقوى وخوف من الله . وكان فيه حياء إلا فى الحق ، وكان فيه أناة وروية ، وكان حسن المعشر ، عفيف اللسان ، حافظا لكرامته فى كل مكان .

ثم جمع الله بيننا أخيراً فى لجنة الفتوى فى الأزهر فسرنا فيها على الجادة لا نحيد عن راجح المذاهب ، وما رجحانه إلا بقوة أدلته ، ولا نخرج على التقاليد الصالحة فى الإفتاء ، ثم لا نبالى بعد هذا أغضب الناس أم رضوا مادام فى ذلك رضا الله تعالى ورضا الضمائر .

وقد كان رحمه الله حجة ثبتا فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه . فكانت إذا عرضت مسألة يراد معرفة حكم المذهب فيها يبادر إلى بيانه بوضوح ودقة ، ثم يطلب المرجع فإذا هو ناطق بما قال كأنما يحفظه عن ظهر قلب .

كان وفياً لى ولسائر أصدقائه فى صداقته ، وكنت أحبه كثيرا وآنس به وبحديثه أنسا عظيما وكنت أنتظر يوم الاجتماع فى اللجنة بلهف للقائه وكنا نتحدث

فى أكثر الأوقات ، بالتليفون ، لمجرد أن يسمع كل منا صوت صاحبه . ثم أفزعنى نبأ مرضه فزرته فى المستشفى مرتين ثم نبأ وفاته وأنا مريض فكان الرزء بفقده عظيما وخسارة العلم والأزهر بموته خسارة لا تعوض ولكنه القضاء المحتوم واليقين الذى لا شك فيه فعلينا الصبر والرضا والابتهال إلى الله تعالى أن ينزله منازل الأبرار ويجزيه خيرا عن الإسلام والعلم والمسلمين .

وفاء وإخلاص

لصاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد الشربينى عضو جماعة كبار العلماء
ورئيس جبهة العلماء بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . وعلى آله وصحبه والتابعين ، وبعد ، فوفاء بحق الصحبة للمرحوم فضيلة الشيخ عيسى منون نذكر طرفا من بعض مناقبه :

كان الفقيد رحمه الله حسن الخلق لين الجانب ملما بالعلوم الشرعية أصولها وفروعها ، كما كان راسخا فى علوم اللغة . وله مؤلف فى أصول الفقه تقدم به لنيل عضوية جماعة كبار العلماء فى عهد المرحوم فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وقد نال رحمه الله عضوية الجماعة وهو من أصغر الأعضاء سنا فى ذلك الحين.

والذى يسعده الحظ ويراجع هذا المؤلف ، يقف على ما كان يتمتع به الشيخ الجليل من غزارة المادة وسعة الاطلاع ، ورحابة الأفق ، وعمق التفكير ، وسلامة الحجة ، ووضوح المنطق ، وجودة الأسلوب مما كان يساعده على عرض المسائل عرضا وافيا شاملا واضحا .

وللشيخ رحمه الله أبحاث وتآليف لم تطبع ، وأهمها ما كتبه فى « شرح المهذب » والذى نهج فيه نهج الفقيه الكبير الإمام « النووى » رضى الله عنه .

ومما يذكر بالفخر لفضيلته أنه حين كلفتنى كلية أصول الدين تدريس كتاب (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) وهو كتاب فى الحديث ليس له شرح

مكتفيا مصنفه رحمه الله بنسبة الأحاديث إلى مخرجيها وجدت حل مغلق هذا الكتاب غاية فى المشقة والعسر ، وما إن تسعدنا المقادير بمقابلة فضيلة المرحوم الشيخ عيسى منون رحمه الله حتى كفانى مئونة المشقة والتعب وقدم إلى من (مكتبته التى تحوى الكتب الأزهرية النفيسة) كتاب مفتاح البخارى ومسلم فسهل الصعب ، وصار الرجوع إلى الأحاديث الشريفة فى مصادرها ميسرا ، وزال كل عناء كنت ألقاه مع زميلى المرحوم الشيخ حسن حجازى رحمه الله .

وما كنا نتوقف فى الاهتداء بهذا المرشد إلى بعض الأحاديث إلا وكان فضيلة الشيخ الجليل يعيننا وبمنتهى السرعة على معرفة الموضع المطلوب مما يدل على أنه كان من سعة الإطلاع ، وحضور البديهة والذكاء اللماح ، والرسوخ فى العلم بمكان عظيم .

ولما رأى فيه فضيلة الأستاذ المراغى شيخ الجامع الأزهر الكفاية النادرة والذكاء المتقد ، والدربة والخبرة الواسعة أسند إليه رياسة كلية أصول الدين . فأحدث فيها نشاطا من نشاطه وأمدها بروح علمية طيبة من روحه ، واستطاع بكياسته وحزمه فى تصريف الأمور أن ينهض بالكلية نهضة مشكورة ، ويخطو بها خطوات وثابة .

ولما شغر منصب كلية الشريعة الإسلامية رأى ولاة الأمور أن رجلها الفذ هو الشيخ الجليل فأسندوا إليه عمادتها . فسار بها بنفس العزم الذى لا يفل ، والحزم الذى لا يفتر . أما آثاره وأعماله فى عضوية مجلس الأزهر الأعلى وعضوية لجنة الفتوى فكانت مضرب الأمثال ، رجاحة فى العقل ، وغزارة فى العلم ، وقوة عارضة ، وأمانة فى الفتوى وإلمام واسع بكل ما أسند إليه .

وأخيرا — فأى قلم يستطيع أن يسجل للشيخ الجليل حقه ، وأى جنان يقدر أن يذكر لى آيات بره وفضله ، وأى مقال بل أى كتاب يتسع لذكر مآثره . وهو الذى يذكر حين تعرض المشكلة ، ويشار إليه حين تستعصى الفتوى ، ويستشار حين يعز المشير .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته جزاء ما نفع الناس بعلمه ممن تلمذوا عليه ، أو صاحبوه ، أو قرأوا له ثمرات ما قدم للعالم الإسلامى من علم نافع إنه سميع مجيب .

الراحــــل العظيم كما عرفته

لصاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ الطيب النجار عضو جماعة كبار العلماء

إن المقياس الصحيح لعظمة الرجال ليس فى الدنيـا التى يصيبونها ، أو المال الوفير الذى يتجمع لديهم ، أو السلطان الذى يفرضونه على الناس بالقوة والبأس الشديد .

وإنما هـو فيما يتركون من آثار خالدة ، وما يؤدون لدينهم ووطنهم بل الإنسانية جمعاء ، من أعمال جليلة تمتـد بها حياتهم وتطول ، ويذكرها الناس لهم جيلا بعد جيل ونحن الآن أمام رجل عظيم من علماء الأزهر البارزين ، جاهد فى سبيل العلم والدين فأثمر جهاده ونفع الله به الناس ، وظل طيلة حياته يعمل من أجل هذه الغاية الكريمة حتى قضى نحبه فى محراب العلم مأجورا من الله مشكورا من الناس مذكورا بالخير من تلامذته وإخوانه وعارفى فضله .

ذلـكم هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ « عيسى منون » عضو جماعة كبـار العلماء وشيـخ كلية الشريعة بمصر .

عرفته فى أول عهده بالتدريس فى الأزهر فـكان مرموقا بين إخوانه ، محبوبا من طلابه . فلما نقلت فى سـنه ١٩٣٥ مدرسا بكلية أصول الدين ، وكان فضيلتـه مدرسا بنفس الـكلية حينئذ اتصلت به عن كثب فازدادت معرفتى بعلمـه وفضله ، ورأيته من أبرز علمائها ، وألمع أسـاتذتها . ولذا كان موضع ثقة وتقدير من فضيلة المرحوم شيـخ الـكلية الشيخ عبد المجيد اللبان ، بل كان موضع ثقة وتقدير من الجميـع ، ومرجعا فى كل النواحى حتى كأنه دائرة معارف عامة .

وحدثنى من أثق به أنه كان فى مجلس المرحوم الأسـتاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى وكان فى ضمن المجلس فضيـلة المرحوم الشيخ « عيسى منون » مع جمهرة كبيرة من العلماء . فطرح فضيلة الشيخ المراغى بحثا علميا دقيقا يتعلق بمعانى الحروف فأخذ الشيـخ عيسى منون يتناقش مع الشيـخ المراغى على مستوى علمى رفيـع لم يستطع أحد من الحاضرين — على مالهم من مكانة علميـة كبيرة من مشاركتهما فيه فاعتصموا بالسكوت وتركوا الرجلين يتصاولان حتى خيل للجميـع أن الشيخ عيسى كان على عـلم بأن هذا البحث سيطرح للمناقشة فأعد نفسه فيه .

ولكن تبين لهم بعد ذلك أنه على استحضار فى كل نقطة علمية دقيقة ، لما له من ملكة قوية ، وذهن خصب .

وحدثنى المرحوم الشيخ أمين الشيخ وكان من كبار العلماء بكلية أصول الدين أن الكلية أسندت إليه مع بعض الأساتذة وضع مذكرة فى أحاديث مختارة ، وفى يوم أخذوا ينقبون عن حديث خاص فى جميع الكتب التى تحت أيديهم فلم يصلوا إليه ، ولا اهتدوا إلى موضعه حتى أدركهم اليأس ، وحينئذ أقبل فضيلة الشيخ « عيسى منون » . فأدرك الحيرة التى تعلو وجوههم . فلما تبين له أنهم سئموا من البحث عن هذا الحديث مد يده على الفور إلى كتاب أمامهم فى هدوء واطمئنان وأخرج لهم الحديث الذى يريدونه فى دقائق معدودة .

وقد وضع فضيلته كتابا دقيقا فى الأصول فى باب القياس يعتبر موسوعة علمية فى هذا الباب ، وقد استعرته منه ، واستوعبت قراءته فراعنى فيه سلامة المنطق وسهولة العبارة وحسن العرض والإحاطة التامة بدقائق العلم وجزئياته وحينئذ صممت على اغتصابه منه وأنا أعلم أن طبعته نفدت وليس عنده إلا هذه النسخة الواحدة .

وفى ذات ليلة حضر الشيخ رحمه الله إلى منزلى وطلب منى هذا الكتاب ليطلع على بعض المسائل فيه وكان إذ ذاك عضوا فى لجنة امتحان شهادة الأستاذية تحت رياسة فضيلة الشيخ المراغى شيخ الأزهر. فقلت له . أنت تطلب الكتاب لتقدمه إلى مشيخة الأزهر لتنال به عضوية جماعة كبار العلماء وإنك ستنالها إنشاء الله . فتبسم ضاحكا وقال : هل ذلك منك عن ولاية أم عن حدس وتخمين ؟؟ فقلت له كل ذلك لم يكن وإنما هو عقيدتى بأن الشيخ المراغى قد اقتنع عن خبرة بكفايتك واستحقاقك لعضوية هذه الجماعة . وقد كان الأمر كذلك كما حدثنى بعد نيله لهذه العضوية وقد اشتركت مع فضيلته فى كثير من لجان امتحان شهادة الأستاذية فكانت مواهبه تتجلى تجليا تجعله دائما فى الطليعة وفى موضع الإجلال والتقدير كما اشتركت مع فضيلته فى لجنة استمداد الأحكام الشرعية من الفقه الاسلامى ومقارنتها بالقانون الوضعى المصرى فكان فى فقه الشافعيه إماما ناضجا ، وفقيها متضلعا . وكان فى فقه الحنفية والمالكية والحنابلة يشترك مع أربابها كأنه واحد منهم .

وإنى أدع الحديث فى هذا إلى أحد زملائه فى لجنة الفتوى بالأزهر ممن كانوا يلمسون فى كل يوم تضلعه فى الفقه الإسلامى ، ورسوخ قدمه فى هذا المجال .

وقد كان رحمه الله من الناحية الاجتماعية له مكانة مرموقه ، ومنزلة كبيرة فلم يقتصر نشاطه على دروس تلقى فى المعاهد والكليات ولكنه امتد الى مدى أوسع وأشمل .

فكان بيته ندوة علمية وكان يجلس معه العالم الكبير ، والمتعلم الصغير ، والرجل العادى فلا يقتل الوقت بالعبث ، ولا يضيع الزمن فيما لا يجدى ولا ينفع بل يملأ المجلس بالعلم النافع فى تواضع جم تزول معه كل الفوارق وفى أسلوب هادىء ينفذ إلى القلوب ، وعبارة موجزة شاملة تدنى لك البعيد ، وتصل بك إلى الهدف من أقرب طريق .

وقد تولى فضيلته عمادة كلية أصول الدين ، ثم عمادة كلية الشريعة ، فكان خير مثال للكفاية والإخلاص ، واستقامت له الأمور ، وذللت له الصعاب ، وخطت الكليتان فى عهد إدارته لكل منهما خطوات واسعة نحو الكمال .

وبعد فإنى فى هذا المجال المحدود أشعر بأنى لم أف الشيخ حقه ولم أقل ما أعرف عنه من علم وخلق ودين . وحسبى أن أتوجه إلى الله أن يجزيه الجزاء الأوفى وينفع الناس بعلمه ، ويجلسه فى مقاعد الصديقين والعلماء العاملين . إنه سميع مجيب .

الراحل الكبير كما عرفته

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد الطنيخى عضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى والمجلس الأعلى للأزهر ومدير الوعظ والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

فى ٥ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٦ الموافق ٦ من يناير سنة ١٩٥٧ استأثرت رحمة الله ورضوانه بعالم من فطاحل العلماء وأنجبهم وأذكاهم ، وعلم من أعلام الفقهاء وأساطينهم ذلك هو فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ « عيسى منون » عضو جماعة كبار العلماء وعضو لجنة الفتوى وشيخ كلية أصول الدين ثم شيخ كلية الشريعة الإسلامية .

انتسب إلى الأزهر فى سنة ١٣٢٢ هـ وهو أحرص ما يكون على تلقى العلوم من منابعها الصافية وأنهارها المتدفقة . وكان العهد بالأزهر إذ ذاك الحرية المطلقة فى اختيار المدرس . ومن أجل ذلك اختار الأستاذ الشيخ عيسى رحمه الله أفضل العلماء

وأحسنهم فى نظره لجلس فى حلقاتهم كامل الانتباه ، مرهف الحس والعقل . فكان فى الدروس متقدما نابها يغبطه إخوانه على سعة علمه ، وقوة تفكيره وكان معروفا للطلاب والأساتذة مشهورا بينهم بالقوة العلمية والتفكير العميق . فكان إخوانه يقصدونه ليجلى لهم ما خفى عليهم ويشرح لهم ما عسر عليهم وهو لم يزل طالبا ينهل من موارد أشياخه ويستقى من معين علمهم النقى الصافى .

وما زال رحمه الله يترقى فى سماء الأزهر من كوكب إلى كوكب ومن برج إلى برج حتى بلغ الغاية وأشرف على النهاية .

حينئذ تقدم لامتحان الشهادة العالمية وكانت أعظم الشهادات وأكبرها وكان الامتحان فى ذاك الحين موسوما بالشدة والصعوبة يختار له أماثل العلماء فى الأزهر وأقواهم علما فكانوا يغوصون إلى أعمق المسائل غوصا حتى يصلوا إلى البعيد جدا فيأتون بلآلئه يبحثونها ، ويجلون غوامضها وهى مغلقة مستعصية من أجل ذلك كان لا يمتحن فى هذه الشهادة إلا الواحد بعد الواحد فى فترات بعيدة .

تقدم رحمه الله إلى الامتحان والامتحان كما وصفت فكان محل إعجاب الممتحنين وتقديرهم إذ رأوا فيه عالما محصلا وفاهما فى قوة ، ومدركا فى فهم صحيح ، وشارحا فى تذوق وإحساس ومن أجل ذلك منحوه الدرجة الأولى وكانت لا تعطى لا الأفذاذ النابهين .

وقد درس رحمه الله سنة تخرجه ولم يمكث طويلا فى القسمين الابتدائى والثانوى بل نقل بعدهما إلى الأقسام العالية فهو أحق بها وأولى فأخذ يدرس المعقول والمنقول وكان بين طلابه كالبحر المتدفق يقذف باللآلىء الحسان ينثرها بين الطلاب فى أسلوب سهل ومع سهولته عميق ، وقول قصير ومع قصره كبير لذلك كان طلابه حرصاء أشد ما يكون الحرص على حضور درسه . وكان مع ذلك حسن الخلق ، لين الجانب لا تفارق الابتسامة شفتيه حتى فى غضبه وألمه ، عطوفا على طلابه ، عذب العبارة ، جميل الأسلوب حاضر النكتة العذبة اللطيفة لذلك كان طلابه يحبونه حبا جماملك عليهم مشاعرهم لأنهم كانوا يستفيدون من تدريسه فائدة لا يرونها فى غيره ، ويرون درسه دائرة معارف . القول فيه معقول ، والمنقول مفهوم ، والغامض واضح والصعب سهل والجامح منقاد .

فظهر رحمه الله بين إخوانه وعرف بينهم بالنبل والفضل والعلم والدقة فى البحث فكان محل إعجابهم وتقديرهم .

ولما ذاع فضله بين الأزهريين وعرف مع هذا بالخلق العظيم والتواضع الجم وفى الأزهر جماعة مختارة ممتازة فى علمها وفضلها تسمى جماعة كبار العلماء طلب منه فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك أن يتقدم لنيل هذه الرتبة العلمية إذ كان أهلها وأحق بها وكان لا يتقدم إليها إلا من وضع رسالة قيمة مفيدة فى بعض العلوم التى تدرس فى الأقسام العالية فاختار رحمه الله القياسى الأصولى فلم يقتصر على وضع رسالة فيه ولكنه وضع كتابا عظيما جمع فيه أطراف البحث وأشتات المسائل وبحثها جميعها بحثا مستفيضا لايعقله إلا العالمون ولذلك بعد أن بحثت اللجنة المؤلف أقره أعضاء الجماعة بالإجماع ورشحوا فضيلته لنيل العضوية بالإجماع .

ولما انخرط فى سلكهم حفظهم الله كان مرموقا منهم بعين الإجلال والإكبار لما يعرفونه عنه من الخلق المتين والتفكير الهادى الرزين . ولذلك لم تؤلف لجنة فى الأزهر لغرض علمى إلا كان رحمه الله أحد أعضائها ولما اشتهر بالغيرة على الأزهر وحرصه على رفعة شأنه اختير عميدا لكلية أصول الدين ثم عميدا لكلية الشريعة الإسلامية . فكان رحمه الله أثناء عمادته لها حريصا على نفع الطلاب وتحصيلهم للعلم فكان دائما يرعاهم ويساعد من يحتاج المساعدة منهم وكان قائما على نظام الكلية وتنسيق الدراسة فيها وكان دقيقا فى إسناد الدروس إلى المدرسين فكان يكلف كل مدرس بالعلوم التى يعرف أنه يجيدها ويحذقها حتى تكون فائدته للطلاب أتم وأوفر ، وكان مهيمنا على الكلية التى يكون عميدا لها بحسن سياسته وعظيم كياسته وحكمته البالغة فى إدارتها فالمدرسون فى حدودهم والطلاب فى حدودهم كل يعرف مقامه وما يجب له وما يجب عليه لذلك كانوا يألمون جداً إذا رأت الرياسة نقله إلى كلية أخرى .

كان رحمه الله فى مذهب الإمام الشافعى نبراساً يهتدى به ، ونوراً وضاحا يستضاء به إذا جاء استفتاء من بعض الجهات وكثيرا ما كان يجىء الاستفتاء معقدا غامضاً فيظل رحمه الله يبحث أطرافه ويقلبه على وجوهه حتى يتبين القصد ويعرف الغرض فيستخلص من مذهب الشافعى رضى الله عنه الحكم مدللا عليه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما مواقفه العلمية فكم له من مواقف هز الباحثين هزاً وردهم إلى الجادة وهداهم إلى الصراط السوى . ويحضرنى الآن من مواقفه موقفان عظيمان :

الموقف الأول — موقفه أمام ذلك الشاذ الذى كتب عن رمضان وصيامه وأجاز الفطر عن ضجر أو سأم فانبرى له الشيخ رحمه الله وكتب فى الموضوع بحثاً عظيما دقيقا كان فصل الخطاب وألقم ذلك الشاذ الحجر .

والموقف الثانى — موقفه أمام اللجنة التى ألفها المؤتمر الإسلامى فقد راودتها نفسها أن تترجم القرآن الكريم وأرسلت إليه تأخذ رأيه فيما رأته من جواز الترجمة وإمكانها وبرهنت على ذلك بما خالته حجة ودليلا فانبرى لها الشيخ رحمه الله وفند أدلتها وأثبت بالدليل القاطع أن اللجنة تحاول محالا فردت عليه اللجنة بأدلة أخرى ففندها وأبطلها حتى لم تقم لها قائمة وما زال رحمه الله يلاحق تلك اللجنة بالدليل بعد الدليل وبالحجة تلو الحجة حتى خضعت وذلت واستكانت واعترفت بما مارت فيه زمنا طويلا واعترفت بأن القرآن الكريم يأبى كل الإباء إلا أن يكون بلسان عربى مبين كما أنزله رب العالمين على سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وبعد فأقول . والحق أقول — لقد خسر الأزهر الشريف بل العالم الإسلامى بانتقال الشيخ الكبير وزميله فضيلة الشيخ محمد عبد الفتاح العنانى عضو جماعة كبار العلماء ولجنة الفتوى وشيخ المالكية .

لقد خسر كل أولئك بانتقال الشيخين الكبيرين إلى الدار الآخرة خسارة علمية قل أن تعوض وانتهى بانتهائهما طودان من أطواد العلم وعلمان من أعلام الإسلام .

فعزاء للأزهر وأهله وللعلم وذويه . والله من فضله يتقبلهما قبولا حسنا ويجعلهما مع المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

لوعـــة حزين

لفقد صديق حميم

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد على الأستاذ بكلية أصول الدين

روعنى خبر وفاة المرحوم الشيخ عيسى منون (ولا أطريه بالألقاب فقد كان علما يكفى أن يذكر اسمه فيهز المشاعر ، ويرهف الأسماع لخبر يتعلق به)

كان رحمه الله ملء السمع والبصر : وكان نادرة من نوادر القدر لم وان أظفر بمثله علما وإدارة وسعة أفق وحـــدبا على البحث والتنقيب عن المسائل العلمية وأحكامها مع الصحة والتوفيق .

وقد خسر الأزهر والإسلام بموته نابغة زمانه ، وفقد العلماء بفقده موسوعة العلم والمعرفة .

كان رحمه الله ثانى اثنين أنست بهما عند نقلى إلى كلية أصول الدين ، ونعمت بجوارهما وصحبتهما فأطلعتهما على دخيلة نفسى ، واستعنت بهما فى كل ما يهمنى ، ووثقت من صداقتهما وإخلاصهما ، (وقد كانا كذلك صديقين حميمين وزميلين من أول نشأتهما) فأما أولهما ففضيلة المرحوم الشيخ محمد على سلامة الذى سبقنا بالإيمان ، وبلقاء ربه راضيا مرضيا فعليه الرحمة والرضوان ، وأما ثانيهما فهو المغفور له فضيلة الشيخ عيسى منون الذى كان عضوا فى لجنة امتحانى للعالمية النظامية سنة ١٩٢١ م ولما نقلت إلى كلية أصول الدين كان هو أحد أساتذتها المبرزين . ثم عين عميدا للكلية فسار بها حثيثا نحو المجد والنشاط والرقى المادى والأدبى .

وقبل توليه عمادة الكلية رافقته فى الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة الروضة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام : فكان نعم الرفيق . وكانت الرحلة موفقة هانئة وكان لى معه فيها مواقف تاريخية أهمها ما كان فى الروضة الشريفة من الأحاديث الدينية التى سجلها التاريخ لى وله بالذكر الحسن والذكرى الطيبة .

فأسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يمطر عليه سحائب الرضوان ، وأن يسكنه فسيح الجنان وأن يجمعنى معه فى عليين وأن يبارك فى أبنائه وأحفاده وأصهاره المخلصين . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

كلمة إخـــلاص ووفاء

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يس سويلم المفتش بالأزهر

هذه كلمة إخلاص ووفاء نسجلها في ذكرى من كان مثلا للإخلاص والوفاء ، العالم العلامة . والفقيه الأصولي شيخ العلماء الشيخ « عيسى منون » تغمده الله برحمته ورضوانه . فلقد عرفته عن طريق العلم وصلته والعلم كما يقولون رحم بين أهله . فكنت في معرفتي له وصلتي به بمنزلة رجلين اجتمعا على الله وتحابا في الله ، وجدير بمن تحابا في الله ، وعملا لله أن يعرف كل منهما أخلاق صاحبه فما عرف الحبُّ والعمل لله تلوُّناً في السلوك ولا نفاقا في القـــلوب ولا رياء في القول والعمل ولا تخالفاً بين الظواهر والبواطن فكان من لوازم هذه الصلة الروحية أن أعرف الكثير من أخلاق الشيخ ومواهبه وأن أقف على الكثير من أعماله ومواقفه.

فلقد عرفت فيه القلب الطيب ، الذي يحفظ الود ويرعى العهد ، والذي لا يعرف الأحقاد والأضغان .

عرفت فيه الخلق الكريم السمح ، الذي يسع الناس بسماحته وبشاشته حينما تضيق بهم أخلاق الكثير من الناس . والذي يحفظ الأخوة في مواقف الشدائد كما يرعاها في مواطن الرخاء . والشدائد هي ميزان الأخوة الصادقة ، ومعيار الإخاء الروحي الخالص .

دعوى الإخاء على الرخاء كثيرة ومع الشدائد تعرف الإخوان

عرفت فيه العالم الراسخ في العلم ، الذي يمثل رسوخ العلماء السابقين والأئمة المتقدمين والذي يعرف للدين حرمته وقداسته . وللعلم آدابه وأماناته .

فقد كان رحمه الله وهو العالم الثبت ، والناقد البصـــير يقدس مصادر الدين وأحكامه ويعظم نصوصه ومداركه . وإنما يعرف قدسيته وحرمته ذوو القلوب الطاهرة والبصائر النيرة . فكان إذا تحدث في مصادر الدين ومسائله كان حديثه مثلا أعلى للتقديس والأدب الرفيع ، لا يعرف الجرأة والتهجم ، ولا يقول في

دين الله إلا عن علم وبينة . وكان يصدع بالحق إرضاء للحق ، وإبراء للذمة . ثم لا يبالى بعد ذلك كله . أرضى الناس أم غضبوا ، وذلك هو أقصى ما يطلبه الدين من رجل الدين .

عرفت فيه التسامح والتواضع ، أعنى تسامح الكرام وتواضع الأعزة لا تسامح المستضعفين ، ولا تواضع الأذلة . فإنه وهو الذى زاده الله بسطة فى العلم والفهم والهيبة والوقار والجاه والسلطان ، وكثيرا ماجنى غرق العلم وغطرسة المنصب على أخلاق كثير من العلماء وذوى المناصب . إلا أنه سما بخلقه فوق كل هذه العوامل والمؤثرات فكان كلما رقى فى درجات العلم والمنصب ، كلما تسامى به الخلق الكريم عن أوضار الغرور والغطرسة ، وارتفع به فى درجات التواضع والتسامح فكان وهو فى الذروة من كل هذه النواحى لايحتجب ولا يترفع عمن كانوا بالأمس البعيد أو القريب من إخوانه وزملائه فى العمل كما يفعله كثير من ضعفاء النفوس ومرضى القلوب . بل كان يبقى على أخوتهم وزمالتهم ويحافظ على سابق صلاتهم وروابطهم .

عرفت فيه عالما أزهريا يعتد بأزهريتـــه ، ويرى الانتساب إلى الأزهر وإلى علمائه تشريفا وتكريما لا يعادلها تشريف وتكريم ، ويعتز بعلومه ودراسته وكتبه ونظمه ومجده وتراثه ويعتبره الحصن المنيع للإسلام وعلومه ، والجامعة الروحية الثانية لأممه وشعوبه . ويرى الطعن فى رسالته العلمية والروحية ضعفا فى النفوس ، ومرضا فى القلوب ، وجحودا للفضل وكفرانا للنعمة .

ولم يقف بهذه السنون عند حدود الفكرة والعقيدة بل انتقل بها إلى ميـادين القول والعمل . فقد كان يحب الأزهر وأهله من أعماق قلبه ويعمل ما وسعه العمل لخيره ورفعة شأنه ، ويدافع ما وسعه الدفاع عن حقوقه وكرامته . لا يألوا فى العمل جهدا ممكنا ، ولا يدخر فى البـــذل وسعا مستطاعا . فكان الابن البار للأزهر حقا .

عرفته وفيا لعلمه وإدارته فى الأزهر يؤدى رسالته فيهما بكل أمانة وإخلاص ويعطى لها من فكره وجهده كل ما يدخل فى دائرة إمكانه واستطاعته ، ويقوم بأعبائها ومسئولياتها كأحسن ما يكون القيام بالأعباء والمسئوليات ويعطى فى ذلك الدروس العملية النافعة ، والقدوة الواقعية الصالحة للإخلاص فى العمل والتفانى فى أداء الواجب ، وإبراء الذمم .

عرفت فيه الوفاء لإخوانه وأصدقائه . والوفاء خلق عزيز المنال لا يتاح إلا لعظماء الرجال . فقد كان لهم ناصحا أمينا . ورائدا صادقا . ومرشدا مخلصا يسعى فى قضاء حاجاتهم، ويشاركهم فى سرائهم وضرائهم ويدافع عن حقوقهم ومصالحهم ويقف بجانبهم فى مواقف الشدائد مهما ناله فى سبيل ذلك من عنت ومكروه ومهما تعرض منصبه للهزات العنيفة .

يفعل ذلك انتصارا للحق الذى يعتقده . وقياما بواجب الوفاء الذى يدين به وقد عوده الله أن يخرج من مواقف النضال ظافرا منتصرا . محتفظا بمنصبه وكرامته محافظا على إخلاصه ووفائه . وهكذا تكون عاقبة الإخلاص والوفاء ؛ وحب الخير والانتصار للحق .

هذا قليـــل من كثير مما عرفت ؛ ولو أننى حاولت الاسترسال فى ذكر كل ما عرفت لاتسع مجال القول ؛ وطال الحديث . ولكننى أكتفى بهذه الإشارة العابرة فرب إشارة أغنت فى مدلولها عن كثير من العبارات .

رحم الله الشيخ رحمة واسعة ؛ وأفاض عليه سجال الرحمة والرضوان وأعلى منزلته بين منازل الأبرار . وجعل من أبنائه خلفا صالحا يحمل رسالته ويواصل عمله ويحيى ذكره إنه سميع مجيب .

كلمة وفاء وتقدير

لصاحب الفضيلة الأســـتاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغى

مدير المساجد سابقا والمفتش بالأزهر

لكل نابغة عبقرى ، ولكل فذ من الرجال عظيم . صفات سامية . وسجايا كريمة . ومواهب نادرة ؛ وذكاء لامع ؛ وتصرف فى الأمور قاطع ؛ وقريحة وقادة . وبصيرة نافذة نقادة . ومعاملة حسنة تجمع حوله العشراء والخلطاء . بما زانه من خلق حميد . وحلم رشيد .

والناس حول حظوظ النابغين من هذه الصفات يختصمون . وفيها يتجادلون . وفى النهاية على لزوم هذه الصفات لكل عظيم يجمعون ، وعلى ضعف من فاته شىء منها يتفقون ؛ وراحلنا الكريم وشيخنا المحقق العليم فضيلة الشيخ «عيسى منون»

قد لمح فيه شيوخه بواكير الذكاء . وعلو الهمة ومضاء العزيمة منذ صباه وظهرت عليه مخايل النجابة ولاحت عليه أمارات العبقرية . منذ طلب العلم وغشى مجالسه فكان مثال الجد والمثابرة على التحصيل بين إخوانه . وقد كانت نشأته العلمية الأولى فى مسقط رأسه عين كارم من ضواحى بيت المقدس ، ثم رحل يستقى من منهل العلم الصافى ومورده الفياض . ونميره العذب ، ورحيقه الشهى بالأزهر الشريف : وأقبل على الدرس . والتحصيل بكل ما أوتى من قوة وفتوة . فأخذ العلم عن شيوخ عصره الأعلام . الذين عقدت لهم الزعامة فى العلم وبعد صيتهم بالتحقيق والتبحر فى علوم المعقول والمنقول . وإذا به يختم حياة الطلب بتفوق مرموق . ففاز بشهادة العالمية ثالث الناجحين . وذلك سبق يلفت الأنظار ويحرز لصاحبه الإجلال والإكبار . ثم تأتى مرحلة أخرى عن حياة الفقيد وهى مرحلة النضج العلمى الحق وذلك حين ينهض بإفادة المتعلمين وإرشادهم وتوجيههم فاختير عام تخرجه مدرسا بالقسم الإبتدائى الأزهرى ، ومضى فيه ثم فى القسم الثانوى . يرقى بتلاميذه عاما فعاما . وهنا تجلت مواهبه وسجل أولوا الأمر نشاطه العلمى المتدفق . فاختير مدرسا لعلم الأصول بالقسم العالى سنين عددا . كان فيها حامل لوائه ، ومرجع الحائرين فى عويصات مسائله ، فذاع صيته حتى ملأت جوانب الأزهر شهرته ، وكان موسوعة علمية ، ودائرة معارف أزهرية من طابع خاص ، يعرف به بين أقرانه وطلابه وعارفى فضله . فهو حلال المعضلات العلمية، والموجه والمرشد فى كل باب من أبواب العلم الأزهرى ، لا يمل المطالعة ، ولا يسأم من التحصيل . يحرص على جمع الدقائق العلمية . حرصا شديدا . ينقب عن الكتب الخطية النادرة ينسخها بنفسه ، ويحرص على اقتنائها بكل وسيلة ويبذل فيها كل نفيس وغال . ويستسهل كل صعب فى سبيل الحصول عليها والتزود من العلم . ولقد حظيت بالتلمذة له فى قسم التخصص القديم فكان يدرس لنا علم الأصول فى كتاب مسلم الثبوت .وما كان أشد حرصنا على حضور درسه . والإصغاء له . وتدبر كل ما يقول لأنه كان يجمع لنا معلومات كاملة شاملة . وقد تفهمها فى نفسه وهضمها بثاقب ذهنه . ثم يقدمها لطلابه مفسرة ميسرة . شأن المتضلع فى فنه الخبير بمناحيه واتجاهاته . كمثل النحلة تأكل من كل الثمرات .ثم تخرجه شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس. وكم كانت له فينا مواقف جدل عنيف يستجلى فيها غوامض المسائل ومشكلاتها

فما يترك سائلا فى بيداء الحيرة وفى ظلام الجهل إلا أخذ بيده رويدا رويدا وفى رفق حتى ينجيه من لجة الشك . ويحميه من عواصف الاضطراب . فإذا به قد وجد ثلج الحقيقة يشرح صدره وينير جوانب عقله . وإذا هو يستقيم على محجة واضحة ونهج قويم كل ذلك منه فى تواضع جم وصدر منشرح ، وغبطة وسرور ، وبهجة وحبور ، وشكر لله على نعمة التوفيق والهداية ، إلى الطيب من القول وإلى الصراط الحميد ، وقد تربى على يد شيخنا وفقيدنا نشء تفخر اليوم برئاستهم المعاهد الدينية ، وتحلى بهم كراسى التدريس ، وتزهى بنزاهتهم وكفايتهم مجالس القضاء ، وكما سعدت بالتلمذة له والارتواء من غزير علمه ، وعظيم عطفه أيام طلبى للعلم سعدت بزمالته والمشاركة له فى لجنة الفتوى بالأزهر ، فكان الحجة الساطعة إذا عرض لبيان الحكم فى مذهب الإمام الشافعىّ مستحضرا الأقوال على اختلاف درجاتها قوة وضعفا وراجحا ومرجوحا ، يأتى بما أصله الإمام الشافعى فى المذهب القديم والجديد ، مستخلصا أمس الآراء بالمسألة المعروضة للفتوى ، محيطا بالملابسات والأحوال والظروف والمناسبات التى يحل فيها رأيه المختار محل البلسم الشافى ، والدواء الراجح فيصيب كبد الحقيقة وفصل الخطاب ، وما أيسر تناوله للمراجع ومعرفته لمواضع المسائل فى أمهات الكتب للفقه الشافعى ، والدارس لكتاب نبراس العقول فى تحقيق القياس عند علماء الأصول ، يرى منهجا خاصا قد نهجه الشيخ فى تنظيمه وتبويبه وعرض المعلومات المتشعبة المبعثرة فى أشتات الكتب الأصولية وجمعها فى صعيد واحد مؤتلفة منسقة . وكأنها صيغت فى عقد انسقت حباته والتأمت أجزاؤه رغم ما كانت عليه قبل ذلك ، من تضارب وشتات ، وقد نال بهذا السفر الجليل عضوية جماعة كبار العلماء ، ولم يشغله الدرس ولا المناصب الإدارية عن التأليف العلمى ، وقد طبع على حبه ، فقد دفعته همته العالية إلى العمل على إتمام مجموع النووى فى فقه الشافعية إذ أن النووى بدأه ووصل فيه إلى باب الربا ، ثم أتى بعده السبكى فواصل السير من باب الربا إلى باب التفليس . ثم واصل بعده فقيدنا الكريم السير حاثا الخطى متبعا سبيل سلفيه العظيمين فكتب مائة كراسة وفاجأه القدر المحتوم قبل إتمام هـــذه الذخيرة العلمية التى لا ينكر فضلها من يمد إلى العالم بسبب ولقد وهب لشيخنا إلى جانب علمه وسعة اطلاعه وقدرته على البحث والتنقيب

حسن سياسة وعظيم كياسة وتمرس بالحياة الإدارية . وقد شغل مناصب عدة لها خطرها .

وقد اختير شيخا لكلية أصول الدين . فأثبت جدارة وحذقا ظهر أثرهما فى النشاط العلمى والانسجام بينه وبين مدرسى الكلية كما وجه الطلبة توجيها علميا صحيحا فانصرفوا عن كل شىء إلا عن الإقبال على التحصيل العلمى فدعا ذلك أولى الأمر إلى اختياره شيخا لكلية الشريعة . فأقام البرهان على أنه رجل كفء لكل عمل يضطلع به واستطاع بحسن سياسته وجليل كفايته أن يجمع قلوب الأساتذة والطلاب فصار الجميع يلهجون بالثناء على حسن إدارته وجميل تصريفه للأمور . وقد كان دائما يعمل على رفع شأن الأزهر وتبوئه المكانة اللائقة بتاريخه المجيد وماضيه العريق وللراحل الكريم فى فتاوى لجنة الفتوى بالأزهر آراء سديدة مثلت المذهب الشافعى تمثيلا صحيحا . كما أن له فى قانون الأحوال الشخصية الذى كان ثمرة يانعة للجنة الأحوال الشخصية . المؤلفة بوزارة العدل وكان شيخنا عضوا فيها آراء ناضجة هى ثمرة دراسته دراسة عميقة للمذهب الشافعى. والوفاء لأستاذنا الجليل يقتضينا أن نظهر فضله وننشر مناقبه . لتكون نبراسا يهتدى بها الطالب فى درسه ؛ والمدرس فى مجلسه والإدارى فى منصبه ليتخذ كل هؤلاء من حياة فقيدنا الكريم قدوة صالحة . وعظة نافعة ، أسبغ الله عليه شآبيب الرحمات وأسكنه فسيح الجنات كفاء ما قدمت يداه . إنه سميع مجيب .

فقيد العلم والإسلام

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ صبرى عابدين عضو الهيئة العربية العليا

إن المرحوم العلامة الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون عضو جماعة العلماء والرئيس السابق لكليتى الشريعة وأصول الدين وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف قد جاء إلى مصر من فلسطين عالماً سمع على شيوخ بيت المقدس وما حولها وتلق عنهم العلوم الشرعية والعربية وكان فى صغره قد حفظ القرآن ومجموعة من المتون فى مختلف العلوم والفنون الإسلامية والعربية ولبث طول عمره يستحضر محفوظاته ويكرر تلاوتها خيفة النسيان .

ولشدة شغفه بالعلم رحل إلى مصر للاستزادة من العلوم العالية وسمع من كبار شيوخ الأزهر حتى نبغ فى سائر العلوم الأزهرية ودرس أكبر الكتب والمصنفات وفى عام ١٩١٢ عين مدرسا بالأزهر وكان شابا غض الإهاب تولى وظيفة التدريس ولم يكن يصل إليها إلا الفحول من شيوخ الأزهر الأفذاذ .

وقد عرفته رحمه الله واتصلت به حين كان مدرسا بالقسم العالى بالأزهر قبل إنشاء الكليات الأزهرية حيث كان يدرس علوم التفسير والحديث وأصول الدين وسواها من العلوم التى كانت مقررة لطلاب الشهادة العالمية المصريةوتخرج من تلامذته فى القسم العالى مئات من العلماء الذين تولوا أكبر المناصب الدينية والقضائية فى مصر والشام وسائر بلاد الإسلام . ثم ازدادت صلتى به حين تولى رئاسة أصول الدين وبعدها رئاسة كلية الشريعة بالأزهر فقد قضى رحمه الله سنين طويلةفى رئاسة هاتين الكليتين وأدارهما بحكمة وحزم كانا موضع شكر مشيخة الأزهر وإعجابها .

وقد تخرج أثناء رئاسته لكليتى الشريعة وأصول الدين ألوف من العلماء وكان منهم طائفة من القضاة والوعاظ والخطباء والمدرسين المنتشرين فى بلاد مصر وسورية وفلسطين ولبنان والأردن والحجاز واليمن وسواها من أنحاء آسيا وأفريقيا .

وقد سمعت من عدد من كبار العلماء وأعضاء لجنة الفتوى بالأزهر يثنون عليه رحمه الله فى حياته وبعد وفاته ووصفوه بطول الباع وسعة الاطلاع والبراعة فى معرفة النصوص الفقهية النادرة وحل أدق الإشكالات العلمية فى مختلف العلوم الإسلامية وأنه يمتاز بقوة الحافظة وسرعة الخاطر واستحضار النصوص والأدلة فى كل ما صعب من المسائل والفتاوى فكان زملاؤه وأصحابه من العلماء وأعضاء لجنة الفتوى بالأزهر يحيلون إليه أصعب الفتاوى والمسائل العويصة فيجدون عنده الرأى السديد والجواب الحكيم المؤيد بالنص الواضح والدليل القاطع .

ومما أدركته بمحادثاتى معه سنين طويلة معرفته الواسعة بمذاهب أئمة الفقهاء المجتهدين من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين فى مختلف البلاد والأمصار مضافا إلى ذلك تبحره فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ولا أكون مبالغا إذا قلت إنه كان شيخ الشافعية بمصر ولقد كان رحمه الله كبير الرغبة فى اقتناء الكتب فى جميع العلوم والفنون وجمع منها مكتبة قيمة عامرة

بالمخطوطات والمطبوعات النادرة وقد أطلعنى رحمه الله على بعض المخطوطات عنده ومنها كتاب الروضة فى الفقه للإمام النووى وهو كتاب يعد من أمهات كتب الشافعية ولم يطلع عليه إلا القلة من العلماء لندرته وقلة نسخه المخطوطة .

وكان رحمه الله عزيز النفس أبيا كريما يحافظ على مكانة العلم وكرامته ناهجا طريق السلف من العلماء فى العزوف عن الحكام وعاش عمره كله على ذلك وعلى اختلاف العهود بمصر لم يكن يتردد على الحكام ولا يرغب فى التعرف عليهم و لم يلتق بهم إلا فى المناسبات الرسمية ، وكانت صلاته وزياراته قاصرة على بعض أصدقائه وبخاصة العلماء منهم وقد تحمل رحمه الله بعض الأذى والمتاعب لرفضه زيارة بعض الناس الذين كانوا يرغبون فى زيارته لهم ولم يكن يعتقد أنهم يستحقون زيارته ، فكان رحمه الله فى هذا الموقف الحازم كما قال القاضى الجرجانى :

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أو كما قال شاعر الأردنى الحديث :

فالناس إنسانان من همه أن يرتدى ذلا وأن يلعبا

وآخر يأبى عليه الحجى إلا بأن يشقى وأن يتعبا

ولما حدثت نكبة فلسطين وجلاء أهلها سنة ١٣٦٨ هـ سنة ١٩٤٨ م وهم قوم الفقيد وعشيرته الأقربون تلقى ذلك بألم شديد وحرقة بالغة أثرت على صحته هذه الكارثة الفادحة التى حلت بالإسلام والمسلمين ، وقد حدثنى رحمه الله عن ما ألم به من حزن وأسى . وكان رحمه الله واثقا بأن الفرج قريب ويترقب يوم النصر بهزيمة اليهود والاستعمار يوم يعود أهل فلسطين إلى أراضيهم وديارهم وكان يرغب من صميم قلبه أن يحل ذلك اليوم قريبا ليرى أهله وعشيرته ويعود إلى أرضه وداره فى بلدته عين كارم بضاحية القدس فقد كان رحمه الله بنى فيها دارا فخمة ليقضى شهور الصيف كل عام فيها ولكنه لم ينعم بها ووقعت بين أيدى اليهود المغتصبين .

ويوما وصله كتاب من رئيسة دير راهبات الكاثوليك فى عين كارم تساومه فيه على بيع داره للدير بدلا من أن تظل بأيدى اليهود بدون ثمن وتخبره بأن يرسل الجواب بواسطة رئيسة دير الراهبات بعمان بالأردن ، وقد طلب منى رحمه الله أن أشير عليه بالرأى فى هذه المسألة وعما يجيبها به فسألته إذا كان قد قرر رأيا

فى ذلك فأجاب إننى أرفض بيع أى شبر من دارى وأرضى لاللدير ولا لليهود ويجب أن نصبر حتى يأذن الله بالنصر ويعود الحق إلى أهله وتبقى أرضنا وديارنا الإسلامية عربية خالصة إن شاء الله فوافقه على رأيه ووقف الأمر عند ذلك وأجاب بالرفض البات .

اللهم ارحمه رحمة من عندك وأسكنه فى مستقر كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

مما عرفته عن الفقيد

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد السائح
رئيس محكمة الاستئناف الشرعية بالقـــدس

فى حدود ١٩٢٠ م غادرت فلسطين إلى مصر مع عدد من الطلاب ، قاصدا الأزهر الشريف ، لننهل من ينابيعه ، ونعب من موارده . وقاصد الأزهر إذا لم يتسن له مرشد أمين ، وهادى حكيم ، ضل الطريق وفسد سعيه ، فهيأ الله لنا إذ ذاك فضيلة الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ عيسى منون . الذى كان شيخاً لرواق الشوام ، بالإضافة لكونه مدرسا بالأزهر الشريف ، ورغم انهماكه فى أعماله الرسمية ، من تدريس . وإدارة لأعمال الرواق . فقد كان يخصص لنا يوم الخميس بعد الظهر . يحضر فيه للرواق ليختبر حصاد عملنا طيلة الأسبوع وأحيانا يستصحب معه بعض كبار علماء الأزهر ، ويشتركون فى التوجيـــه ورسم السبيل الأفضل لأحسن النتائج ، وقد كان لهذه الطريقة الفضلى أثر فعال فى شعورنا بالمراقبة ، وتنافسنا فى الدراسة ، وتبريز عدد منا .

وقد استمر رحمه الله فى رعايته لنا وعنايته بنا إلى أن أخذنا من الأزهر شهادته العالمية ، وحتى بعد انتسابنا لمدرسة القضاء الشرعى وإتمامنا الدراسة بها وعودتنا للوطن الغالى لم تنقطع صلته بنا واهتمامه بأمرنا .

والحق أننا كنا نلمس فى فضيلة الفقيد روحا عالية ، سامية فى اتجاهها ، حريصة على انتهال العلم للعلم ، والتنافس فيه ، والتبحر فى موضوعاته ، والتخصص فى فروعه وكان يعتبر ذلك عبادته التى يتقرب بها إلى الله ، بعد فرائضه ، وحدائقه التى يتزود من رياحينها وثمارها ، ولهذا كان يعمل على تقدير النابهين وتشجيعهم وتقريبهم .

ومع أن شيخنا — رحمه الله — كان علماً بارزاً فى علم أصول الفقه وفى المعقول من العلوم الأزهرية ، فقد كان حجة فى فقه الشافعى وسائر العلوم الشرعية ، وهو من أعلام الأزهر الشريف الذين يشار إليهم فى قوة الحجة وسعة الاطلاع ، وندر أن يجود الدهر بأمثالهم ، فتغمده الله بواسع رحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، وعوض الإسلام والمسلمين عنه خير العوض .

كلمة لجنة الحديث(١)

في رئيسها الراحل فضيلة الأستاذ الكبير « الشيخ عيسى منون »

ليس جديدا من القول أن نذكر ما للفقيد الكريم ، من المقام العلى المرموق بين أولئك الأفذاذ المبرزين ، من الذين أنعم الله عليهم بطول الباع فى العلم ، ورسوخ القدم فى البحث ، ونضوج الفكر فى التحقيق ، فأن هذا وما اليه من الحديث المعروف فى مصر وغير مصر . . . وأعرف الناس به من ربطتهم بالفقيد — طيب الله ثراه — رابطة الزمالة أو صلة التلقى والتلمذة . . .

وليس جديدا من القول كذلك أن نذكر للشيخ — تغمده الله برحمته — منقبتين كريمتين من بين مناقب كريمة ، لو لم يكن له سواهما لكفتاه ذكراً ونشرا فى كتاب أعماله .

(١) غيرته البالغة على الأزهر وحبه له ، وحرصه عليه ، حرص المخلصين المؤمنين ، بأن الأزهر هو قلب العالم الإسلامى وروحه . ولا حياة لكائن إذا حيل بينه وبين قلبه وروحه .

(٢) وغضبته المضرية لتناول كتاب الله المبين بالترجمة ، وصلابته فى رد مشروعها ، وثباته فى موقفه من هذا المشروع على اختلاف وجوهه ، حتى لقى الله موقنا بأن كتابه لن يمس ، وأن كل محاولة لترجمته مخذولة مردودة ، وتلك آية من آيات حفظه وإعجازه . وأنباء هذه الغضبة والصلابة فى سجلات « المؤتمر الإسلامى » الذى ألقى السلم بعد محاولات كثيرة منه ، وآمن بأعجاز القرآن فى

(١) تقدمت الإشارة إلى هذه اللجنة فى صفحة ٥٤ .

ترجمه إيمانه بأعجازه أن يأتى الإنس والجن بمثله ، أو بمثل سورة منه ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

فلندع هذا الحديث إذاً إلى جانب من الكنوز المخبوءة فى أطواء هذه النفس الكبيرة ، أتيح لنا أن نكشف النقاب عنه فى خلال صحبة مباركة لم تدم طويلا :

قرر مجلس الأزهر الأعلى بجلسته المنعقدة فى ٨ من رجب سنة ١٣٧٥ هـ — الموافق ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٦ م تأليف لجنة منا ـ نحن الثلاثة ـ ومن فضيلة أستاذنا الكبير الراحل رئيسا لمراجعة عمل الأستاذ « محمد فؤاد عبد الباقى » فى جمع أحاديث البخارى ومسلم مراجعة دقيقة ... فاجتمعت اللجنة عشرة شهور كاملة بمنزل أستاذنا الكبير ـ رحمة الله عليه ـ وكنا نظن ـ ونحن متخصصون فى التفسير والحديث ـ أنه سيكون مثلنا فهما ونقداً فإنه لم يشتغل بالحديث وعلومه اشتغاله بالفقه والأصول ، والتوحيد ، والمنطق ، ولكن ما كان أشد دهشتنا وأعجابنا حينما رأيناه سباق غايات ، وحلال مشكلات ، فيما تخصصنا فيه ، حتى كان يقول لنا مداعبا : صاحب علوم كثيرة يسبق الإخصائيين فى علم أو علمين ! فنقول له : وكيف بك لو اشتغلت بالحديث اشتغالك بالفقه والأصول ؟ !

وبهذه المناسبة يجد ربنا أن نذكر مايرويه أخونا الشيخ « إبراهيم زيدان » الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين ، وهو من أخص تلاميذه : أنه رحمه الله كان مفسراً من الطراز الاول ، ولايعرف هذا إلا من قرأ التفسير عليه ، وهم قلة بجانب من أخذوا عنه الأصول والفقه والمنطق والتوحيد ـ وقد لمسنا مصداق هذه الشهادة أثناء مراجعتنا لكتاب الحديث فى مناسبات شتى .

ومثل هذا وأعظم منه لايكثر على مثل أستاذنا العظيم ، وقد آتاه الله ذهنا ثاقبا ، وقريحة صافية ، « يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار » لاسيما إذا صحب هذه الموهبة جد متواصل فى مرحلة الطلب والأخذ عن كبار الشيوخ ، وفى مرحلة الدراسة وأفادة الطلاب ، وفى مرحلة الأعمال الادارية والمشاركة فى مهام هيئة كبار العلماء ولجنة الفتوى وغيرها ولقد كان من آثار همته ، ورسوخ قدمه فى العلم ، أن سعى جاهداً لاخراج كتاب « المجموع » الجامع للفقه والأصول ، والحديث واللغة ، للعالم الربانى الإمام « النووى » ثم سمت همته بعد ذلك لأن يكمل هذا الكتاب الجليل الذى لم يتمه مؤلفه ، وشرع فعلا فى التأليف وسار مراحل

وكثيراً ما كان يسمعنا مما كتب ، ولكن حالت الأعمال الأدارية ، ومشاغل الأيام ثم المنية ، دون الإتمام ،ولعل الله يهيء من تلاميذه ومحبيه من يتم ما بدأ ، ويخرجه للناس عذباً فراتا .

ولقد تجلت مواهب أستاذنا العظيم لمولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الأزهر الأسبق ، حينما شاركه فى كثير من اللجان العلمية ، فأعجب به أيما إعجاب ، وقدره أجل تقدير ، واختاره عضواً لجماعة كبار العلماء ، ثم عميداً لكلية أصول الدين ، وماجلس اليه مرة فى بيته أو مكتبه ألا عرض عليه كثيرا من مشكلات العلوم، ومعضلات المسائل ، يتعرف فيها رأيه ، ويطيل معه فى الأخذ والرد ، حتى أصبح لديه بالمكان الأول ، والمنزل الأعلى ، بعد ما كان قد حيل بينهما بضباب من الأوهام ، لم يلبث أن انقشع حينما تسلطت عليه أضواء الحق ، ولمس الشيخ الأكبر فيه مكارم الأخلاق،وغزارة العلم ، وجودة الرأى ، وصفاء الذهن ، وعزة المؤمنين .

لقد كان من منّ الله عز وجل على شيخنا الراحل، تعرف مايعرض من المسائل العلمية فى مظانه من الكتب بسرعة تثير الإعجاب ، وتذهل العقول . وفراسة صادقة تكاد تخترق حجب الغيب . ووفاء نادر فى الشدة والرخاء لمن يعرفه من من الأحياء والأموات على سواء .

ومن أمثلة فراسته ماحـــدثنا به ـ رحمه الله ـ أنه رحل فى جمع من إخوانه المدرسين بالأزهر إلى بلدة «دماص» من أعمال الدقهلية أجابة لدعوة بعض أعيانها المحبين للعلم والعلماء ، فكان يجتمع إليهم فى منزل الداعى كثير من الناس ، على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم ، يستمعون منهم ويتعلمون ، ويسألونهم ويستفتون وفى مجلس من هذه المجالس الحاشدة الحافلة، قدم الشيخ ليتصدر المجلس ، ويجيب عما يلقى اليه من أسئلة واستفتاء ، فأخذ يعلمهم مما علمه الله ، وفى أثناء هذا المجلس سأل سائل عن الصدقات التى كانت تقدم بين يدى نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا المجلس يروع بصيحة مدوية من الشيخ رحمه الله فى غضبة ثائرة من هذا السائل النصرانى الخبيث ، الذى يريد أن ينال من المقام النبوى الكريم ؟ ! وما كان أشد حيرة الحاضرين حينئذ ، فالسائل من صميم المسلمين ، ويمت إلى صاحب المنزل بصلة القربى ، ويغدو ويروح إلى المساجد ، كسائر المسلمين قال الشيخ . وأخذت أجيب

القوم ، وأنا كالمحموم من شدة الغضب ، بصوت قوى مرتفع ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تحرم عليه الصدقات لأنها أوساخ الناس ، وإنما شرع الله تقديم الصدقات إلى الفقراء بين يدى مناجاته ، تكريما له صلى الله عليه وسلم وتعظيما ، وتأديبا لهؤلاء الذين استرسلوا فى المناجاة ، وأكثروا منها ، حتى كادوا يشغلونه صلى الله عليه وسلم عن مهمته الأولى ، وهى تبليغ ماأنزل اليه من ربه هذا إلى مافى تلك الصدقات من تهذيب نفوسهم وتزكيتها ، ومن البر بالفقراء والمساكين ؛ فأين هذا مما يرمى اليه السائل النصرانى من لمز الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كان يتقبل الصدقات ويفرضها على أتباعه ؟ ! ثم انفض المجلس والشيخ فى غمرة من الغضب ، والقوم فى حيرة من الأمر ! . ثم تكشفت الحال حينما سكت عن الشيخ غضبه ، وهدأت نفسه وآوى إلى فراشه ، وجاءه هذا السائل الذى كان يلبس العمامة ، يعتذر اليه بأن السؤال كان بتلقين صراف البلدة « النصرانى » ، وأنه لم يفطن لما فيه من الغمز واللمز فى مقام نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأن ذلك « الصراف النصرانى » كان يجلس إلى جوار ذلك المسلم ، وأنه تسلل من المجلس خفية حينما ثار الشيخ رحمه الله ثورته . واعتقد الناس جميعا حينما علموا بجلية الأمر أن الشيخ من أولياء الله الصالحين .

لقد كان وفاؤه ـ أسكنه الله فسيح جنته ـ مضرب المثل ؛ وموضع العجب ؛ يعرف ذلك عنه أبناؤه ومحبوه ؛ وتلاميذه وزائروه ؛ فكثيرا ما كان يشيد أمامهم بذكر من أسدوا اليه جميلا ؛ أو صنعوا اليه معروفا ، أوكان لهم أثر فى تكوينه العلمى أو الخلقى ، من أمثال . الشيخ سليم البشرى والشيخ عبد الحكم عطا والشيخ دسوقى العربى ؛ والشيخ محمد شاكر والشيخ محمد مصطفى المراغى ، وغيرهم من أقطاب الأزهر وأعلامه ، اعتراف بالجميل ، وذكر للصنيعة ؛ ومكافأة عليها لأهلها ثم لبنيهم من بعدهم لايدخر فى ذلك وسعا ، ولايألوا جهدا ، على أنه لم ينل منصبا إلا وهو صاحبه ، ولم يرتفع رتبة ولا درجة إلا وهو أحق بها وأهل لها شأن ذوى الهمم العالية ؛ والنفوس الكبيرة ، ولكنه يعتقد بحق أنه لايكون شاكراً لله جلت آلاؤه إذا لم يشكر من أجرى الله النعمة على يديه . ثم هو فى وفائه وشكره لأرباب الصنيعة ثابت لا يتغير لتنكر الأحداث ، وتقلب الأيام .

ومن وفائه للشيخين الأسبقين الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر والشيخ محمد

مصطفى المراغى شيخ الأزهر أنه كان يذكر بالإعجاب تاريخهما وأعمالهما وفضلهما على الأزهر ورجاله كما كان يذكر سلامة ذوقهما وشفوف نظرهما فى العلوم المتنوعة وطول باعهما فى الاجتماعيات ، والإجابات المسكتة عند النوازل . ومن طريف ماذكره عن الشيخ محمد شاكر أنه صحبه فى زيارة عظيم من العظماء « بالحلمية الجديدة » وكان مجلس هذا المزور حافلا بأهل العلم والأدب والسياسة فسأل سائل عن حكم غير المسلمين الذين يخدمون الإنسانية من المخترعين ، كيف يخلدون فى النار معما قدموه للبشرية من خدمات جليلة يبقى أثرها ، ويعم نفعها ، ولا سيما الأطباء منهم الذين انقذوا ألوفا مؤلفة من بلاء الأمراض الفتاكة ، بما كشفوا من أدوية نافعة ، وطرق للعلاج ناجحة فأجاب الشيخ محمد شاكر سائله قائلا .

أرأيت لو أن أمير مدينة يحسن إليها ويكرمها ، ولا يدخر وسعا فى سبيل إسعادها ورفعتها ، وتقدمها ورقيها ماذا هى فاعلة معه ؟ قال السائل: تحبه، وتدافع عنه ، ولا ترضى بغيره بديلاً، قال الشيخ شاكراً فرأيت لو أن هذا الأمير ،خرج على الخليفةالذى ولاه ، وأعانه علىهذا الإحسان ، وقال لا طاعةله فى عنقى،وأهان سفيره وكذبه ، أيستحق هذا الأمير التكريم والتعظيم لما قدم من خير أم يستحق الإهانة والعزل لخروجه على من ولاهوأحسن اليه ؟ قال السائل : إن هذا الأمير يستحق العزل بل التنكيل والقتل . قال الشيخ شاكر . فكذلك هؤلاء المخترعون الذين قدموا للبشرية تلك الخدمات ، إذا كفروا بالله الذى وهب لهم تلك العقول وأفاض عليهم من نوره ، حتى ظهر لهم ما خفى على غيرهم ، وكذبوا النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به عن الله ربهم وخالقهم ، ومفيض النعم عليهم ، كما قال جل شأنه « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

فاقتنع السائل وسر الحاضرون وازدادوا إيمانا بما جاء به الشرع الشريف .

لقد جاور شيخنا ـ رحمه الله ـ ربه وقد أدى زكاة علمه وجاههوما آتاه الله من فضله بما قدم للأزهر وأهله من خدمات علميةوأدارية وبما كتب من بحوث وفتاوى أو شارك فيها ، وبما ربى وعلم وهذب من مئات العلماء والطلاب . ولقد أراد الله عز وجل أن يختم حياته بما يستحقه من بركة وخير فعهدت إليه مشيخة الأزهر أن يرأس اللجنة العلمية التى تشرف على مراجعة «الجمع بين الصحيحين البخارى ومسلم» مراجعة دقيقة ، وبعد أن أرسى قواعد هذه المراجعة وأسهم طويلا فى تشييد بنائها اختاره الله إليه راضيا مرضيا .

تغمد الله الفقيد برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

فقيد العلم والإسلام

العلامة الكبير الشيخ عيسى منون

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله غوشة رئيس الهيئة العلمية الإسلامية بالمملكة الأردنية الهاشمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله كل نفس ذائقة الموت وإنا لله وإنا إليه راجعون . والصلاة والسلام على أشرف رسول وأكرم مبعوث سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فقد فجع العلم والدين والأدب بوفاة أحد رجال العلم العاملين وفحوله النابهين الذين أفنوا حياتهم فى خدمته والعمل على نشره ورفع شأنه وتوطيد أركانه وتثبيت دعائمه .

هو فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عيسى منون عضو جماعة كبار العلماء فى مصر .

ولد الفقيد فى قرية عين كارم التابعة للقدس وقد نشأ وترعرع وابتدأ حياته الدراسية فيها ثم رحل إلى مصر ودرس فى الأزهر الشريف على يد كبار العلماء والأدباء وكان لنجابته موضع تقديرهم ومحبتهم .

وبعد أن أنهى دراسته العلمية عين مدرسا فى الأزهر الشريف كما عين شيخا لرواق الشوام فعضوا فى جماعة كبار العلماء ثم شيخا لكلية أصول الدين وأخيرا شيخا لكلية الشريعة .

ولقد برهن فى مختلف المناصب الإدارية والعلمية التى تبوأها على أنه يجمع بين الإدارة الحكيمة والمادة الغزيرة وإيثار المصلحة العامة على كل مصلحة أخرى .

كان الفقيد يجمع إلى غزارة العلم وسعة الاطلاع الخلق القويم والسيرة الحميدة والخصال الكريمة ، كان موضع احترام وتقدير زملائه كان حليما فى غير ضعف شديدا فى غير قسوة يعامل تلاميذه وطلابه معاملة الأب الشفوق يشملهم بعطفه ويزودهم بنصائحه ويساعدهم بقوله وعلمه وماله .

وإنى وزملائى فى فلسطين والأردن وغيرها من الديار الشامية الذين كان لهم حظ الاجتماع به وشرف التلمذة عليه لا نزال نشعر بذلك العطف الأبوى الذى كان يحوطنا به وتلك النصائح الغالية والتوجيهات السديدة التى كان يزودنا بها بين الحين والحين الأمر الذى جعلنا مدينين له بالفضل والجميل ، نكن له بين طيات جوانحنا ونحفظ له فى سويداء قلوبنا محبة صادقة واحتراما وافرا .

لقد فقدنا بفقده عالما جليلا غزير العلم واسع الاطلاع جمع رجاحة الرأى فى قوة الحجة وثبات الإيمان فى صدق العزيمة ، وضرب بسهم وافر فى مختلف العلوم الشرعية والعربية ، وله مؤلفات عديدة وبحوث جليلة قيمة تدل على سعة اطلاعه وعمق أبحاثه وقوة حجته سيما فى علم الأصول الذى بز غيره فيه وحاز قصب السبق فيه على أقرانه ومعاصريه .

ولذلك فقد كانت وفاته مصيبة عامة وصدمة عنيفة وفاجعة كبيرة أصابت الأمة فى صميمها فكان وقعها أليماً وخطبها جسيما ، ولئن حرمنا بوفاته من الاجتماع بشخصه فإن ذكراه لا تزال ولن تزال بيننا عاطرة خالدة على تعاقب الأجيال والسنين .

أسأل الله العظيم أن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جنته وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين وعن العلم وأهله خير الجزاء وأن يجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فقيد العلم والفضل

الشيخ عيسى منون

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى فاضل العورى قاضى حيفا الشرعى السابق والمحامى الشرعى بلبنان .

هناك على ضاحية مشرقة من ضواحى مدينة « القدس » قاعدة الديار الفلسطينية المقدسة تجثم بلدة صغيرة وادعة تظللها أشجار الصنوبر وتكتنفها مساحات واسعة من شجرة الكرم ومختلف الأشجار المثمرة تلك هى « عين كارم » مسقط رأس فقيدنا الغالى وأستاذنا الكبير المرحوم الشيخ « عيسى منون » فهو إليها ينتسب كما

ينتسب عدد كبير من أهل العلم الدينى ممن كانت لخدماتهم اليد الطولى فى نشر العلم والعرفان فى تلك الديار .

ونظرة واحدة إلى الأقطار الشامية نجدها أكثر الأقطار الأخرى ازدهارا برجال العلم وشهادة نؤديها ـ أن الفضل يرجع فى ذلك للشيخ عيسى منون الذى تولى مشيخة «رواق الشوام» بالأزهر الشريف مدة جيل كامل وذلك مما شجع الكثير من أبناء تلك الأقطار الشامية «فلسطين ـ الأردن، أى سورية الجنوبية وسورية ـ لبنان» على طلب العلم والانتساب إلى الأزهر والإقبال على تعلم الشريعة والدين ، فقد كان رحمه الله موجها كريما ومربيا فاضلا وأستاذا نبيلا وحارسا أمينا وبرا رحيما بالمعوزين مما جعل الإقبال شديدا على الجامعة الأزهرية فأنت لا تكاد تهبط مدينة أو قرية فى تلك الأقطار الواسعة إلا وتجد تلاميذه قادتها والشخصيات اللامعة فيها لا تفتر ألسنتهم عن ذكر شيخهم كلما حلت مناسبة أو عرضت مشكلة فهو زعيمهم الروحى وأستاذهم المربى الذى يمدهم بعلمه وتوجيهه حتى بعد تقلدهم مناصبهم الدينية الرفيعة وإشرافهم على مقاليد الأمور فى دوائر القضاء الشرعى والأوقاف الإسلامية والدفاع عن حقوق مواطنيهم وبقية أعمال البر والإحسان . إنهم يبكون اليوم بدموعهم السخينة أستاذهم المرحوم ويذكرون أيامه وأياديه البيضاء عليهم ويطلبون له من الله الرحمة الواسعة والرضوان جزاء ما أسدى لهم من رعاية وإحسان .

نبغ رحمه الله ـ فى كل فن من فنون الأزهر وبرز فى العويص منه مثل علم الأصول ويعتبر مؤلفه « نبراس العقول فى علم الاصول » من خير ما كتب فى إيضاح هذا العلم مما جعل قادة الرأى فى الأزهر يتجهون إلى الشيخ ويرفعونه إلى منصب خطير هو «عضو جماعة كبار العلماء» ثم مشيخة كلية أصول الدين فمشيخة كلية الشريعة ليخدم الازهر فى عصره الناهض عصر تطوره الفكرى والإصلاح الجديد .

اما بيت فقيدنا الكبير فإنه كعبة القاصدين من الأقطار الشقيقة ومنتدى حافل بأهل العلم والدين والطلبة على اختلاف بلادهم وهذه « شبرا » التى يرتفع فيها منزل الأستاذ الجليل تعرف ذلك جيدا وتحيط منزله المبارك بالتجلة والاحترام وتعتبره مفخرة لضاحيتها ومظهرا من مظاهر الاخوة والكرم حينما تستعرض كل يـــوم نفرا من زائرى بيته الكريم وهناك فى البيت يشوقك مظهر الشيخ حيث تستمع المحدث البارع والشارح الموضح لما خفى من المشا كل العلمية فكم جلا ـ بلل الله

تراه ـ من غوامض وصحح من فهم وأفاد واستهوى قلوب العباد .

كنت فى عداد طلبة رواق الشوام بالأزهر سنة ١٩٢٣ وحدثت مشكلة بين الطلبة وما أكثر مشاكلهم فكان لابد من مقابلة شيخ الرواق فذهبت مع من ذهب ومثلنا بجلسة واستمع الينا ثم قال كلته وكان بها فصل الخطاب . أما زملائى الطلبة فإنهم قطعوا الطريق الطويلة إلى منزله العامر وهم ينظمون أقوالهم ويرتبون حججهم لمقابلة الشيخ والدفاع عن وجهات نظرهم ولكنه رحمه الله بفكره الثاقب قطع الدليل على المبطلين وأفهمهم دخائل نفوسهم وأظهر صرامة جعلتهم يصارحونه بالواقع غير مكابرين ولا معاندين وكان ذكر اسم الشيخ عيسى على لسان الطلبة كاف لإنهاء جميع المشاكل بينهم .

واليوم يخلد فقيدنا فى الذكرى والذكرى للإنسان عمر ثان يعيش قريرا فى هذه الدنيا بينما يستريح جسده الطاهر فى روضة الله بعد جهاد طويل وكفاح متواصل فى سبيل خدمة أمته ودينه فجزاه الله خيرا وجعل لنا فى نجله الفاضل العالم الشيخ محمد وبقية أفراد أسرته الكريمة وتلاميذه الطلبة خير العوض .

فقيد الإسلام والأزهر

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى مجاهد عبد الرحمن
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة الإسلامية

أستاذنا الأكرم ووالدنا الأجل علم الأزهر ، ومنارة الإسلام شيخ الشيوخ صاحب الفضيلة الشيخ عيسى منون .

اليوم قد أمطرتنا الحياة بالمشكلات العلمية وليس لنا مرجع نرجع إليه ، ونور نهتدى به سوى علمكم الفياض ، وبيانكم الواضح ، وقولكم الفصل . فأين أنتم الآن ؟

قد تتابعت الأحداث على الأزهر وتظاهرت عليه الليالى الحالكة والعواصف الهوج . وهذا المعهد العتيد عزيز علينا وعلى كل مسلم فلا بد له من ربان ولا بد له من قائد وقد كنتم — يا مولاى — كهفنا إذا اشتد الفزع وملاذه إذا أحيط به من كل مكان فما الذى نصنعه لنجاته ؟ وما السبيل التى يسلكها ليأمن على نفسه وليصل مستقبله بحاضره وماضيه ، وليعيش حافظا للأمانة حارسا للتراث راعيا

لما استحفظ عليه . ليس لنا فى العصر الحديث من يقود فى حكمة ويسير على هدى ويشير فى إخلاص سوى فضل فضيلتكم وحكمة سيادتكم وحزم شخصكم والآمال عليكم معقودة والثقة فيكم محصورة فأين أنتم ... ؟! وكيف السبيل إليكم .. ؟! .

أصحيح أن الردى قد اغتال سا كن العرين ، وأن كهف الإسلام قد محاه القدر القاهر وأن النمير العذب قد غاض ماؤه فصدر عنه الظماء وهم عطاش وليس لهم إلى ورده سبيل بعد اليوم ؛ فقد نزل به القضاء المحتوم وضربت بينهم وبينه فرقة الأبد وسفر النهاية .

فاللهم رحمتك بأهل الإسلام عامة وبأبناء الأزهر خاصة فقد كنت تختار السلف إلى جوارك الرحيم بعد أن تترك خلفا يرث الرسالة ويحمل العبء ويتولى الدفاع والكفاح . واليوم وقد سلبتنا شيخنا عيسى من غير عوض !! فهل آذنت الدنيا بالرحيل ؟ وهل اقتربت الساعة وحلت القارعة وحق اليأس لمن يطلب الحياة أو الشفاء ، اللهم رحمتك بالأمة المحمدية وغوثك بحملة الرسالة الإسلامية ، فاجعل لنا فى ولده العزاء والسلوى وفى تلامذته وحملة توجيهه من يرأب الصدع ويسد الحاجة ويقوم المعوج الذى سيكون بعد فقد هذا الإمام الجليل .

أستاذى الجليل :

لقد نلت شرفا أى شرف حين قدر لى أن أكون من بين تلامذتكم الأوفياء وطلبتكم البررة فقد تلقيت عليكم أصول الفقه فى القسم العالى وقسم التخصص وإن فضلكم فى كل علم لمشهود ورسوخكم فى المعقول والمنقول قد سارت بذكره الركبان فلست شيئا يذكر عند التحدث عن علمكم ومدى فضلكم فإنى أصغر تلامذتكم شأنا وأقلهم معرفة وعنهم — وهم كثير — أخذت وأخذ غيرى جزاكم الله عن العلم وأهله خيرا وكتبكم فى صفوة الصدر الأول من أعلام علماء المسلمين .

سيدى الوالد الجليل

كثيرا ما يصادف النجح أقواما فى حياتهم العلمية ولكنه يتخلف عنهم إذا تولوا مناصب إدارية لأن الأهلية متفاوتة ، والمواهب قسمة الله وفضله ، ولقد كان شأنك عجبا ، فإنك كنت إمام الأئمة فى درسك كما كنت بعد ذلك قاضيا عادلا ورئيسا موفقا ، وألمعيا صادقا فى مكتبك وإدارتك ، وعلى التاريخ أن أقص قصة تمثل فيها الحزم والعزم ، والصرامة والجد ، والحرص على الصالح العام

وعلى الخلق الأزهرى ، وكنت شديدا مع الرحمة بأبنائك ، ورحيما مع السهر ودقة الملاحظة حين كنتم تقبضون على زمام الأمر بكلية الشريعة فى سنة (٤٧ — ١٩٤٨) قامت ثورة حمقاء بالكلية فلمحت من بين حسادك والحاقدين عليك من يقفون وراء الأغرار البسطاء فاستعملت الحكمة وأدبت العابثين وقد لقيت استجابة من شيخ الأزهر وقتئذ الشيخ مأمون الشناوى فأيد قضاءك فيهم وحكمك عليهم فلما هدأت العاصفة ، وفر الجبناء الحاسدون ، واستقر الأمر أجبت ضميرك الحى . وقلبك الرحيم فصفحت عن الآثمين المغلوبين . وعفوت عن الثائرين ، وقد أمكنك الله منهم ، وإنى أشهد الله على سعى منى ومن آخرين أردنا به تغيير رأيك وإبدال حكمك فلم نستطع وقد وصلنا يومئذ بسعينا إلى ولى الأمر والرئيس الأعلى ، فهذه لحظة لمسنا فيها قوة الشخصية وسمو النفسية والحزم مع الاعتدال .

وفى سنة ٥١ — ١٩٥٢ دفعت الحزبية السياسية فريقا من الطلاب كانوا وقتئذ صنيعة الحاكم وأصابع الحزب العابث فهموا بما لم ينالوا من الأزهر فأثاروا الفتنه وأساءوا إلى إخوانهم . وإلى شيوخهم وإلى معهدهم وكان الأزهريون يومئذ يدركون ما يراد بهم فأبوا أن يستجيبوا ووقفوا ضد العابثين . ولكن الوقوف ضد العبث يجب أن يكون من عميد الكلية وأسد العرين وقد كنت أسدا - يامولاى لا يغلب على أمره فلم ترض عن هؤلاء المدافعين ولو كانوا مخلصين لأنك قادر على معالجة الموقف ، وإصلاح الأمر ، وتأديب العابثين . وهنا أجدد لكم الشكر بعد الممات كما لهجت به طول الحياة فأشكركم عنى وعن هؤلاء الطلاب الذين أصبحوا لسان صدق لكم فى الأزهر والمعاهد الدينية وفى وزارة التربية والتعليم أشـــكركم فقد تفضلتم على وعليهم بتنبيهى إلى خطأ صنيعهم وبعد أن عرفت رأيكم السديد فى الفريقين وبعد أن وضحت لى بصير تلكم المضيئة وبعد أن قلت لى إنى أحمى الأزهر أولا من نتيجة هذا القتال ، وأحمى ذلك الكرسى الذى أجلس عليه ثانيا فإنى لا أحب أن أجلس عليه وأنا ضعيف أعان من أحد ما وحـــين أشعر بشىء من الضعف فى إرادتى أرى البقاء حراما على اجتنابه . وقد تم لفضيلته ما أراد فترك الطلاب المخلصون مقاومة المأجورين وتأديب الصنائع لذلك الرجل الحكيم

وهكذا تكون الإرادة الحكيمة فى الأزهر وفى غير الأزهر ولكن أين نحن بعد هؤلاء الرجال؟ رحمهم الله رحمة واسعة وأجزل مثوبتهم وعوضنا عن فقدهم خيرا .

سلام عليك أيها الشيخ الجليل فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين وسلام عليك إلى يوم الدين

رجل مات والرجال قليل

لصاحب الفضيلة الأستاذ الأديب الشيخ أمين هلال المدرس بالأزهر

حاولت الكتابة عن فقيد الإسلام والأزهر الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون وأبى القلم إلا أن يكون عصيا لا يكاد يترجم معنى أو يسطر حرفا . ولعله تهيب الكتابة عن رجل سما بعقله ، وسمر بفضله . وعلا بنبله ، فلم يجد الفاحصون مغمزة فى علمه ، ولا هنة فى خلقه ، ولا بادرة فى كفايته لما أسند إليه من مهام الأمور العلمية والإدارية .

قليل هؤلاء الذين عالجوا ما عالج فقيدنا من الدراسات العلمية . والرياسات التعليمية والمناهج التربوية . فاستطاعوا ـ رغم شتيت الموضوعات ؛ وأضرب الاختلافات وتعدد الواقعات ـ استطاعوا مع كل هذا أن يتجنبوا العثار ويسلكوا الجدد ، فلا أمت ولا عوج ، ولا تخلف عن ركب الإصلاح ومسايرة التوفيق .

كان الشيخ رحمه الله عالما بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان : فإذا سئل فى أبحر الفقه وجداوله أو التاريخ ومسالكه أو الفلسفة وأبوابهـــا وجدت البحر الزاخر تترامى سواحله ، وتتقاذف جواهره : يجيبك فى كل علم على حد سواء بلا إبهام ولا التواء ، كان وديعا متواضعا موطأ الأكناف : تجلس إليه فيخيل إليك أنك بجوار رجل عاد تتكلم وهو يستمع وتشرح وكأنه ينتفع وتظن أن به حصر أو عيا ، وما تدرى أن وراء حبسته هذه شعابا فى نفسه تهدر بسيلها وتعترج فما أسرع ما يلتقى السيل فيجتمع فيصوب إلى مجراه فيتقاذف بالسحر المبين . وكان رئيسا حازما حكيما ، وكأنه ينظر بنور الله إلى الطلبة قبل أن تتلاءم منهم حال ، أو يحدث من عندهم فتق ، فـــكان الطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره العالم بمقدم يده ؛ وموضع مبسمه . ولا يتعجل بالدواء حتى يقع على موضع الداء فيبادر بحسم الأمور قبل تقويتها ، وقطع الأصول قبل استغلاظها فتسكن الثائرة ، وتستقيم الدراسة بميمون نقيبته ، ومخبور تجاربه ، ومعصوم عزيمته .

وهناك تستوى الطلبة فى الثقة متآزرين فى الأمل ، مشتركين فى تقدير الفضل لعميدهم . كما اشتركوا فى عطفه الروحى وعونه الأدبى .

هذا هو فقيدنا العظيم الذى نذرف عليه الدمع ونعزى فيه الأزهر والعروبة والإسلام.

لقد تقطعُ أنفسنا حسرات كلما وجدنا ألاَّ عوض له . وهيهات ثم هيهات .

هيهات أن يأتى الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لبخيل

ذكريات صادقة

لصاحب الفضيلة الشيخ زكريا البرى أمين لجنة الفتوى بالأزهر

شخصية قوية جبارة ، وعلم غزير متدفق ، وذكاء ممتاز نادر ، وأفق واسع وذهن منير مستنير . كل ذلك تجمع فى الفقيد الراحل أستاذنا العلامة فضيلة الشيخ «عيسى منون»

ولن أحاول الكتابة عن أى ناحية من نواحى ذلك العالم العلم ، والأستاذ النافع ، والإدارى الحازم ، والفقيه الحجة ، فإن فى غيرى ممن كتبوا غناء . وهم من أكثر الناس صلة به ، نظرا لطول مصاحبتهم له ، وتلقيهم عنه زملاء أو تلاميذ .

ولهذا فإنى سأقصر حديثى على بعض ما سمعته من الفقيد أو عنه ، مما يوضح جانبا بارزا فى حياته ، ويضىء صفحة من صفحاته الباقية .

١ — حدثنى فقيه كبير معاصر أن فضيلة أستاذنا الشيخ «عيسى منون» كان فى شبابه هو البطل المجهول الذى يمد بالنصوص الفقهية جماعة العلماء الذين عارضوا تشريعات الأحوال الشخصية التى تولى الدعوة اليها الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغى ، وأن ذلك كان سببا من أسباب تقدير الشيخ المراغى للفقيد مضافا إلى ما لمسه الشيخ الأكبر بنفسه من مناقشات الفقيد العلمية فى امتحانات شهادة الأستاذية بالجامع الأزهر .

كما حدثنى أن الفقيد الكريم كان على اطلاع واسع على كل ما كتب فى المذهب الشافعى ، حتى أنه كانت هناك مسألة احتيج إلى معرفة مذهب الشافعى فيها وبحث عنها شيوخ المذهب فلم يهتدوا إلى مكان النص عليها ثم لجأوا إلى الفقيد عليه رحمة الله فأجابهم — على الفور — عن الحكم ومكانه من فقه الشافعى .

٢ — وقد كان لى شرف التلمذة عليه والعمل معه بلجنة الفتوى بالأزهر بعد أن ترك أعماله الإدارية وتفرغ لها فتكشف لى منه صدق ما سمعته عنه قبل ذلك من صفات نادرة ، وكنت ألجأ اليه فى بيان مذهب الإمام الشافعى فى مسائل الفتوى الغامضة ، فكان يجيبنى عنها إجابة صحيحة محررة ، كأنما يقرأ من كتاب ، ثم يعقب ذلك بطلب الكتب المعتمدة فى المذهب ، ويقرأ على النص فى سرور وغبطة بما أنعم الله به عليه من استيعاب لمذهبه وإحاطته بمسائله ودقائقه وأمانته فى التعبير عنه .

حتى جاءت مسألة من مسائل الفتوى المشكله ، فعرضتها عليه ، فتردد فى الجواب عنها وتوقف فيها بل وامتنع عن الجواب ، وكان لى معه دعابة مؤدبة فخاطبته مبتسما سأغير رأيي فى إمام المذهب الشافعى ، بعد أن غير عادته فى الجـواب . وإذا به يطلب من أمين المكتبة أهم الكتب فى مذهب الشافعى ويقرأ ثم يقرأثم يقرأوأنا مشغول بإعداد بعض الفتاوى ، وما هى إلا لحظات حتى وجدت نفسى أمامهجوم كريم من أستاذنا الراحل ، فقد انتهت مراجعته الى أن أئمة الفتوى فى المذهب الشافعى ومن بينهم الإمام الرافعى توقفوا قبله فى الجواب عنها .

٣ ــ كان رحمهالله أمينا فىالإفتاء ، حريصا على تدعيم الفتوى بالنص الفقهى، وكان له فى ذلك احتياط شديد يستنفد الكثير من جهده ووقته ، فقد كان يرى أن هجر النصوص مدعاة إلى التهجم على الإفتاء ممن لا يحسنه وأن القائلين بطرح آراء الأئمة السابقين جملة ، والاعتماد على الكتاب وصحيح السنة فقط ، يحاولون ستر جهلهم بالفقه ، أو يدبرون المكايد للقضاء على تراث إسلامى كريم ورثناه عن أئمة صادقين لهم فى مكان العلم والتقوى مقام كبير .

رحم الله أستاذنا الكبير ، وأكرمه ونعمه ، جزاء وفاقا على ما قدم للإسلام والمسلمين ، والعلم والعلماء ، من خيرٍ كثير ، وعلم نافع ، وجهاد مشكور .

العلامة الكبير الشيخ عيسى منون

لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ رامز مسمار
رئيس محكمة الاستئناف الشرعية بغزة

فضيلة الأستاذ الأخ الوفى الشيخ محمد عيسى منون حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله . وبعـــد : فقياما بواجب الوفاء والإخلاص والاعتراف بالجميل نحو أستاذى الأكبر مولاى العلامة والبحر الدراكة الفهامة والدكم العظيم الشيخ « عيسى منون » قدس الله ثراه وجعل الجنة مأواه وجمعنا به تحت راية خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأبرك التسليم .

وإنه ليشرفنى أن أكتب عن أستاذى العظيم لما له على من فضل أثناء طلبى العلم فى الأزهر الشريف فإنى كنت من تلامذته المشمولين بعنايته وجليل رعايته .

فقد نشأ رحمه الله فى قرية قريبة من القدس تدعى عين كارم من أسرة عريقة فى المجد والعروبة ، ودرس فيها بعض العلوم . ولما أراد أن يتم تحصيله سافر لمصر وانتسب للأزهر . وقد كان حاد الذكاء كثير النشاط، محبا للطالعة، اشتهر بين إخوانه بالفضل . وقبل أن ينال الشهادة العالمية المصرية اختص الكثير من الطلبة يقرأ لهم كثيرا من العلوم فى الأزهر حسبة لوجه الله وتخرج على يديه الكثير من أبناء جيله. وبعد أن بلغ النهاية فى تحصيل العلوم تقدم لامتحان الشهادة العالمية المصرية وفاز بها لأول مرة بدرجة ممتازة وقل من كان يفوز بها فى ذلك الوقت لشدة وطأة الامتحان وتدقيق المميزين ، ومن حسن الحظ أن كان فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر حاضرا وقت امتحانه فسر من أجوبته وتحصيله وسجل اسمه فى مذكرته الخاصة به بعد أن هنأه بنجاحه فى الامتحان وخرج من اللجنة رافع الرأس عالى الهمة موفور الكرامة وكان لهذا التقدير من رؤساء الامتحان أن انتخب للتدريس سنة تخرجه وقد درج فى حياته الدراسية ينتقل من سنة إلى أخرى حتى وصل إلى القسم العالى ثم التخصص وكان من مدرسى الأزهر المبرزين فى علم الأصول واشتهر بين الزملاء والأساتذة الأعلام بوفرة العلم وغزارة المادة وكثرة الاطلاع .

وكنت أشاهد بنفسى إذا ادلهمت مشكلة علمية كان فضيلة والدكم العظيم الحلال لتلك المشكلة حتى أن أساتذته الذين حضر عليهم كانوا يرجعون إليه فى بعض المسائل العويصة ليوضح معانيها ، ويدنى قاصيها ، ومع هذا كله فإنه كان رحمه الله دائم التحصيل يواصل الليل بالنهار بالمطالعة والدرس بشكل لم يكن له نظير بين زملائه فساد ونبغ وذاع صيته ، وكان فخرا لأهل الشام بين علمائه الأعلام .

زارنى مرة فى نابلس واجتمع عليه علماؤها وما أدراك ما علماؤها الكل يسأل والكل يستفيد وكان يجيبهم عن كل سؤال يرد إليه ببشاشة وجه وطلاقة لسان وكأنه لم يكن مختصا فى علم واحد بل العكس ملما فى كل مادة ، قويا فى كل علم ، فى الفقه والأصول والتفسير والحديث والمنطق والتوحيد والمعانى والنحو والصرف وغيرها من العلوم التى تدرس فى الأزهر الشريف ، وما كان يسأل عن مسألة إلا وكان يجيب عنها كأنه طالعها الآن وكأنها كانت موضوعا من مواضيع الامتحان الذى استعد له .

هذا هو والدكم الكبير وأستاذنا العظيم . وله فضل لن ينساه أحد ولن يتر الله عمله ، صحح المجموع فى مذهب الإمام الشافعى ، ووقف على طبعه وله كتاب فى أصول الفقه ورسالة جيدة فى بحث القياس كانت موضع التقدير من أجل العلماء ، وبها نال عضوية جماعة كبار العلماء .

وأما ملاحظته لتلامذته وأبنائه واعتناؤه بهم وعطفه عليهم فقد كان حديث الركب وحدث بهذا الفخر ولا حرج كان يجمع تلاميذ رواق الشوام كل أسبوع مرة فى غرفة كبيرة معينة يسأل كل واحد منهم عما درس فى ذلك الأسبوع يمتحنه فيه ، ويرد إليه الشارد من معانيه كان أبا برا يرقب أبناءه يعاملهم بالرفق واللين والعطف والمحبة وكنت من التلاميذ الفائزين بعطفه . كان يعرف المكان الذى أطالع فيه وكان يزورنى فيه بغتة ويتفقدنى فيما أطالع وأدرس . وهذا غير الدروس التى كنا نحضرها عليه فى النهار .

كان شديد العناية بأبنائه طلبة رواق الشوام فكان يطالع لهم الدروس التى عينت لامتحانهم لوجه الله ، وما من عالم من رواق الشوام إلا وله عليه فضل كبير لا يجحده إلا كل مكابر ، ولا ينكره إلا جاحد للخير والمعروف وكان يلاحظ الواحد مناحتى النهاية ، وبالجملة فقد كان يشاركنا فى الامتحان ، وإعداد الدروس ، وفى السراء والضراء والحزن والفرح . أب رحيم وبر كريم لكل واحد منا يسر بسرورنا ويتكدر لكدرنا .

وما أكرم والدكم يا محمد فى شهر رمضان ولن ننسى مآدبه العظيمة التى كان يقيمها وكان يجمعنا على مائدة واحدة لافرق بين الفقير والغنى والصغير والكبير والبعيد والقريب والمبغض والمحب لا ميزة لأحد على أحد . كان يواسى الجميع ويعطف على الجميع وينتقل من محل لمحل ليؤانس الجميع يؤاكلهم ، ويتحدث معهم بلطف ووفرة أدب .

أما حسن إدارته فقد شهد له بها الأعلام الأخيار حتى اختير فى كثير من الأزمنة لحل مشاكل العامة التى تعتور الإدارة فى بعض الأحيان .

فرحم الله والدكم كان فخرنا وملاذنا وعمدتنا . كان نعم الموجه ، ونعم المسدد ونعم الأب ، ونعم المربى ــ رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عنا أكبر الجزاء . وعوضنا بكم خيرا ، وجعلكم خير خلف لخير سلف وألهمنا وإياكم الصبر وأسأل الله أن يوفقنا للنسج على منواله ، والاقتداء به وعوض المسلمين خيرا بفقده وما رأيتم مكروها بعده . والسلام عليكم ورحمة الله .

أستاذنا الكبير الشيخ عيسى منون

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد جمال الدين العورى
شيخ رواق الشوام بالأزهر

لقد روع الأزهر الشريف والعالم الإسلامى أجمع بوفاة أستاذنا الكبير الثقة المحقق الثبت الألمعى الأصولى البارع ، المتكلم المحدث المفسر شيخ الشافعية ونادرة عصره ، الذى أجمعت القلوب على تقديره ، واتفقت الآراء على نباهة شأنه.

ولد رحمه الله فى ضاحية القدس المباركة فى بلدة تدعى عين كارم . وكانت تلوح عليه منذ صغره مخايل النجابة ، وبشائر الإقبال ، وتلقى مبادىء العلوم فى بلدته ثم تاقت نفسه لإكمال تحصيله وإتمام دراسته وتلقى العلوم من مناهلها الصافية ، ومنابعها العذبة ، فيمم وجهه تلقاء مدين العلوم وأزهرها المبارك ذلك المعهد الإسلامى الخالد والحارس الأمين على التراث الإسلامى العظيم .

وفى الأزهر الشريف تلقى رحمه الله العلوم على أساتذة أجلاء آنذاك كانوا أئمة العلوم ، فتجلى نبوغه ، وظهرت ألمعيته واستنارت قريحته الوقادة بما لفت إليه الأنظار وأكسبه تقدير أساتذته الأجلاء .

ولم يطل به المقام طويلا حتى ظفر بنيل شهادة العالمية المصرية بدرجة ممتازة ثم عين مدرسا بالأزهر عام تخرجه ولم يزل يترقى من منصب إلى منصب ويصعد معارج التقدم حتى اختير رحمه الله عضوا فى جماعة كبار العلماء فعميدا لكلية أصول الدين ثم عميدا لكلية الشريعة وعضوا فى لجنة الفتوى وكان رحمه الله رغم كثرة أعماله الإدارية فى الأزهر واشتغاله بمعظم أعمال اللجان العلمية والتشريعية والإدارية شيخا لرواق الشوام .

وقد كان الشيخ رحمه الله شديد العطف والرعاية لأبناء الأقطار الشقيقة عظيم الحدب عليهم يوجههم بعنايته ويرعى مصالحهم وكان يكثر من زيارته للرواق ويناقش الطلاب فى دروسهم التى تلقوها على أساتذتهم ويشجعهم على الإقبال على الدروس وله مآثر لا تنكر على طلاب البعوث الإسلامية فقد شعر رحمه الله بما يكابدونه فى الانتساب إلى الكليات والأقسام النظامية فسعى سعيه الحثيث لوضع

نظام يكفل لهم الانتساب للكليات والأقسام النظامية وأصبحت بفضله تزخر بمختلف الجنسيات وتخرج منها المئات من الطلاب هم الآن يشغلون أسمى المناصب فى بلادهم والشيخ الجليل طيب الله ثراه مأثرة خالدة على أبناء فلسطين فأنه لم تكد الكارثة تحل بوطنهم وأصبح أهلها مشردين يعانون شظف العيش ومرارة البؤس والحرمان مما تسبب عن ذلك قطع الموارد عن أبنائهم فى مصر ، وكان رحمه الله أعرف الناس بأحوالهم وأدرى بشدة وقع الكارثة عليهم فسعى سعيه الحثيث لدى مشيخة الأزهر وأثمر سعيه فاجتمعت اللجنة وأقرت صرف إعانة شهرية لهم وما زالت المشيخة الجليلة تصرفها لهم ليومنا هذا .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عما قدم من خير ونفع لأبناء وطنه خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .



« عبرة وفاء »

الشاعر الأديب الأستاذ جميل عبد الرحيم أبو دية السرطاوى
المدرس بوزارة التربيـــة والتعليم المصرية

مالى أُخِذْتُ فلا أعِى ما فى الورَى ... والنازِلاتُ يُحِلْنَ صفوِىَ أكدرَا
ما بال قَوِى قد عَراهُم ما عَرَى ... نَفسى وقلبى ثم هَزَّ الأزهَرَا ! ؟
يا وَيح قلبى أىّ خطبٍ نازلٍ ... بالـكائنات وأىُّ بحرٍ غُوِّرَا ؟ !
ما لى أقلِّب ناظـــرىَّ فلا أكا ... دُ أحيط شيئاً ـ عن قريب ـ لاأرَى؟!
هَا أدْمُعِى تَهْمِى سِجامًا لا تَنِى ... عن سكبِها ، أنَّى لَهَا أن تقصِرَا ؟ !

* * *

كيف السُّلُوُّ وقد دُهِى الإسلامُ فى ... أركانِه حتى تزلزل فى الورَى ؟ !
كيف السُّلُوُّ وما هنـاك مجالسٌ ... للعلم تُعقدُ أىُّ هَوْلٍ قد عَرَى ؟ !
كيف السُّلُوُّ وحبرنا شيخ النُّهى ... أمسى وبحرُ العلم يطويه الـثّرَى ؟ !
كيف السُّلُوُّ أبعد شـيخى يُهتَدَى ... للحق ، أم هل بعد « عيسى » يُمتَرَى؟!
كيف السُّلُوُّ وما بدهـرىَ آمـل ... فى أن يجودَ بمثله يهدى السُّرَى ؟!
كيف السُّلُوُّ وكان شـيخى حامياً ... للذّكرِ(١) والدين الحنيف بلا مِرَا ؟!
كيف السُّلُوُّ «وعيسى منونٌ»انطفت ... أضواؤه إذْ كـان نورا نيِّرا ؟!
كيف السُّلُوُّ وعلمه مِلْء الدُّنا ... نعمانَ كان أو ابنَ ادريسَ ابرى ؟!
إن قلت أحمدُ ، قال مالكُ إنه ... وعَىَ المذاهبَ . ليس ذلك مُفترَى !
إن قلت كـان « محدثاً » « متكلما » ... أما « الأصول » فـكان فيه محرِّرا !

---

(١) إشارة إلى مواجهته (رحمه الله) للمؤتمر الإسلامى فى عدم ترجمه القرآن الكريم .

ما المعقول ترنحتْ من بعده — إذ كان « عقليا » « حكيا » مُسْفِرا !

لو قلتُ كانَ موجِّهًا ومدبِّرا — الأزهـر المعمـــور كان مُعمَّرا

قالتْ مراقى العلم حسبكُ إنّه — كـان اللّوا ، كان الطموح الى الذرى !

إن قلت كـان الزهد يبدو ماثلا — فى برده — قالوا شبيها لن نرى !

إن قلت إنّ العطفَ راح قوامُه — لهُوِيِّهِ زفرَ الحنانُ تحسّرا

مَنْ لى بِخِلٍّ بعده يصل البعوثَ جميعَهم — أو يحتويهم رفدُهُ غير القرى !

مَنْ للشآم طليعة . بل للعروبة بعــده — والمسلمين ، فكلُّهم دمعٌ جرى ؟!

من للعلوم يسوقها ، ويُبينُه كلَّ غوامض الأقوالِ فيها أو مسائلَ تُعترى ؟!

من «المهذّب» (١) بعده فيخوضه ويفيضَ ، فيه بكل بحثٍ كان قبلُ تعذّرا ؟!

من للعقول ينيرُها فى جهلها ، ويبيــــدُها من كل شك أو ضلال حَيّرا ؟

كم من عــــلوم فاضَ فيها بحرهُ — وجميعُهم وَرَدَ الفرات وأصدرا !!

يارُبَّ فيضٍ منه عند تدفُّقٍ — للواردين مَضَوْا وصاروا أبحُرا !

ياآلَ « منونَ » اصبروا وتصبَّروا — فالخطبُ جلَّ عن المراثى لو دَرَى !

ياآل « منون » اقتفوا آثاره — إنّا نرى فيكم رَعيلاً خيِّرا

إذْ أنتم الروّاد أبناء الذى — ورث الحامد أكبراً عن أكبراً

فالله يجزيه بكل فضيلة !!! — عنا ويَمنحُه الطهورَ مُعطَّرا

رَبِّ ارحَمنْ شيخى الكبيرَ، وأكرِمنهُ — بحقِّ نورِكَ واجعَلَنْهُ مُطَهَّرًا

رحماك ربى هاكَ حَبرا ماجِداً — فى العالمين مَضَى لذاتك مُؤْثِرا

أكرمْتَه بلطيف فضلك صُنْتَهُ — مما دَنَا ، فسَرَى إليك مُبكِّراً

رضوانُ ، دَوِّنْ نُزْلَه فى جنةٍ — أمسى بها عند النبى مُؤَزَّرا

١٣٧٦ — ٦٠ ، ٩٢ ؛ ٩٠ ، ٥٥٣ — ١٠٢ ، ٨ ، ١٢٤ ، ٩٣ ، ٢٥٤

---

(١) المراد به شرح المهذب المشهور بالمجموع للامام النووى رضى الله عنه.

الفهرس

اعتذار ورجاء

نعتذر للقراء الكرام على وقوع بعض أغلاط ، وهى وإن كانت بسيطة لا تخفى على فطنة القارىء فإننا نثبتها هنا رجاء التفضل بملاحظتها :

٥ — ٥ : الحبيبة ، ٥ — ٧ : أمنيته ، ١٢ — ١١ : فاستغنوا ، ١٨ — ٢٤ : الأولى ، ٣١ — ٧ : النزعات ، ٣٨ — ٢ : اعتزال ، ٤٠ — ١٨ : فينتصر ، ٤٨ — ٥ : حججهم ، ٤٩ — ٢٥ : الأمثال ، ٥٦ — ٤ : بفضلهم ، ٥٩ — ١٩ : تضبطها ، ٦٤ — ٢٦ : البحث ، ٦٤ — ٢٣ : الزلل ، ٨٦ — ٩ : النصوص ٩٩ — ٦ : ولا نتحاشى ، ٩٩ — ٢٦ : أحدها ، ١٠٣ — ٧ : فليغتسل ، ١٠٤ — ٢٦ : الفريد ، ١٢٧ — ١٤ : جزءا ، ١٢٨ — ٩ : مدى .